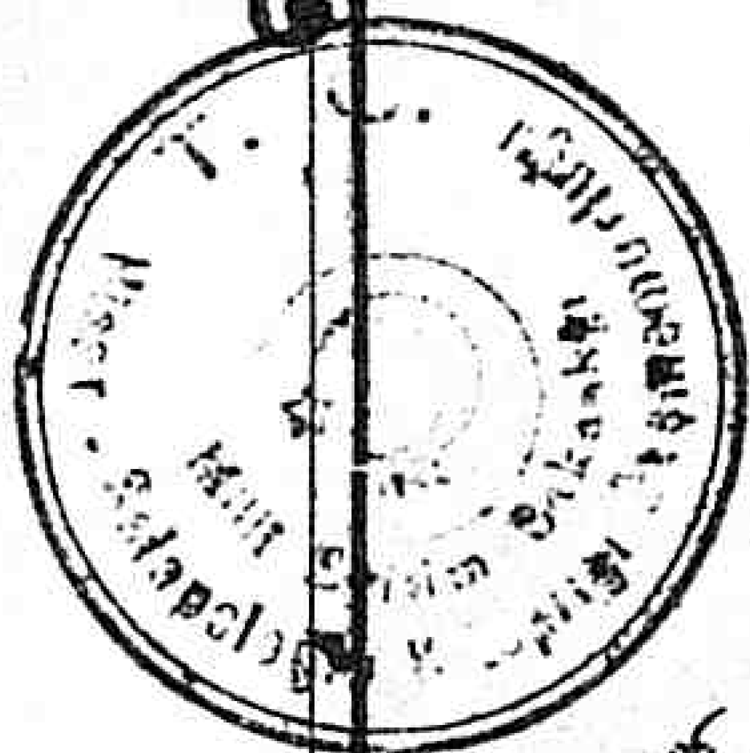


كتاب

﴿ تشنيف السمع بانسكاب الدمع ﴾

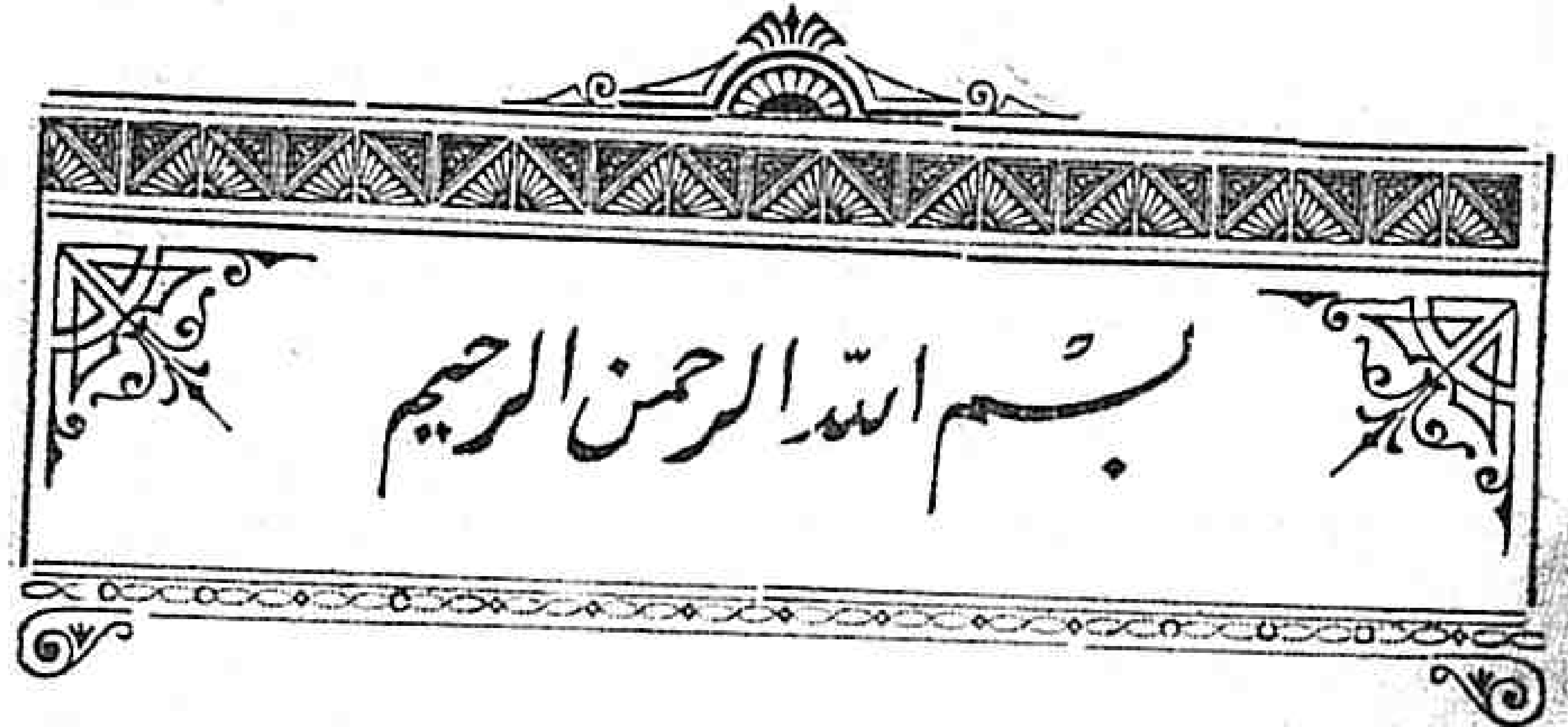


تأليف

﴿ العلامة الصفدى شارح لامية العجم ﴾

﴿ الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هجريه ﴾

(طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر)
« لصاحبها اسماعيل حافظ الخبير بالمحاكم الاهليه »



الحمد لله الذي جعلني ممن سما بالعلم وسمح • وصحا قلبه من سكرة الجهل وصح * وملأ قلمه ملأ الآداب بالملح * ورأى شفاه سطوره فرشف منها اللما حين لمح • أحمده حمد من اقتدي بالهدى فأضاء له ما اقتدح * وضرب صفحاً عن حاسده واتقى لما اتقح • وورد منهل التفويض الى الله تعالى فصفا له لما صفح • ومال الي الغض من رياض الاغضاء فجنى ثمارها لما جنح • وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له شهادة من طفا بها يقينه وطفح • وانتشق عرفها من حدائق الايمان فنفى البهتان لما نفح • وأشهد أن محمداً عبده الذي نص على نشر العلم لما نصح • ورسوله الذي من اتبع هداه فقد نجا ومن اتضع لهداه فقد نجح • صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين اقتبسوا من سناه لما سنح • وامتثلوا أوامره فما منهم من اجترأ عليه ولا اجترح • صلاة ضرى نشرها بين الجنان وسرح • وأطرب صدى طائرها لما صدح • ما انسفك دمع المحب وانسفح • وجري من الجفون وجرح • وسلم تسليما كثيراً الي يوم الدين (وبعد) فاني لما رأيت الشعراء قد

أطنبوا في ذكر الدمع وبالغوا في وصفه ضمن الرثاء والتشبيب وتفننوا وسلكوا في تشبيهه طرقا متشعبة واستعملوا فيها ضروباً مختلفة ف(اول) مراتبهم أنهم ذكروه من غير مبالغة في أمره كقول امرئ القيس

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول قيس بن دريج

هل الحب الا زفرة ثم عبرة * وحرّ على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع تستهل اذا بدا * لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

(وثانيها) أنه فاضح سرهم وكاشف أمرهم لمن يحاولون كتمانه من ذوي قرابة المحبوب والرقباء ويجعلون الذنب في إفشاء السر المكتم له كقول العباس بن الاحنف

لا جزى الله دمع عيني خيراً * وجزى الله كل خير لساني
نم دمعي فليس يكتم شيئاً * ووجدت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي * فاستدلوا عليه بالعنوان

وكقول عليم بن أروح الكلبي

وقال له الواشون باح وصدره * على بعض أطراف الودائع مغلق
وما باح الا أن إنسان عينه * لذكراك من ماء الصبابة مغرق

(وثالثها) أنهم أخرجوه عن دائرة المعهود وجعلوه متصل الجري دائم الهمول من غير فترة في وقت دون وقت كقول الحماسي

وما في الارض أشقى من محب * ولو وجد الهوي حلو المذاق
تراه باكياً في كل حال * مخافة فرقة أولاشتياق
فيبكي إن نأوا شوقا اليهم * ويبكي إن دنوا خوف الفراق

وكقول المجنون

الا طالما لاعبت ليلى وقادني * الى اللهو قلب للحسان تبوع
وطال امتراء الشوق عيني كلما * نزفت دموعا تستجد دموع

و (رابعها) أنهم تعدّوا هذه الرتبة وأدّعوا فيه أنه مثل المطر حتى سقوا به الديار ورووا به الأطلال الدارسة المقفرة كقول ابن ميّادة

ألا من لعين لاترى أبرق الحمى * ولا جانب الصّمان الا استهلتِ
بماء لو انّ المزن جاد بمثله * رضينا بما جادت به حين ولّتِ

وقول أبي الطيب

دمع جرى فقضى في الربع ماوجبا * لأهله وشفى أنّى ولا كربا
سقيته عبرات ظنها مطرا * سوائلا من جفون ظنها سحبا

و (خامسها) أنهم ماوقفوا به عند هذه الغاية بل تجاوزوا حدها وشبهوها بالأنهار الجارية والغدران الطافية كقول أبي تمام

فأبدت جمانا من دموع نظامها * على النحر الا أن ناظمها الثغر
وماالدمع ثاني عزمتي ولو أنها * سقى خدها من كل حين لها نهر

و (سادسها) أنهم ماارتضوا بهذا القدر وعدوه من القليل النذر بل ادعوا أنه مثل السيول المتحدرة من أعالي الربى الى بطون الوهاد كقول الشاعر

ياسائقي الظعن قلبي في رحالكمو * أمانة رعيها والحفظ إيمان
ردوا المطيّ وإلا ردها نَفَسى * وأدمعي فهما سيل ونيران

و (سابعها) انهم نظروا إلى الغاية الممكنة في ذلك فلم يجدوها الا في البحار والطوفان فادعوها لدموعهم وبثوها في جوعهم كقول العباس

ابن الاحنف

لكل جفن على خدى على حدة * طريقة دمعها مستوثق سارِ
استمطر العين لاتخفى مدامعها * كأن ينبوع بحر بين أشفار

وكقول مسلم بن الوليد

أبعد أبي موسى أسر ببلدة * من العيش أوأفضى لشئ من الدهر
بكيت فما تفنى الدموع ولا البكا * كأن دموع العين تغرف من بحر

ومن الرتبة الثالثة الى السابعة وقوع ماأدعوه غير ممكن في العادة والعقل وكلما علت رتبة زاد امتناع الأمكان لأن مادة البكا هي من فضول تصعدت الى الدماغ من الرطوبات المنفصلة من غذاء الجسم على ماياتي بيانه في المقدمة الثانية ولكن هذا من المبالغات الشعرية التي لاتنخرط في سلك التحقيق والا من أين للدمع مادة الطوفان أو البحر أو السيل أو المطر ومتي سقى المنازل أوجرى دائما على ممر الاوقات ولكن هذا من سعادات الشعراء وشرف الشعر أنه يجوز فيه الكذب ثم لايرضي لمن كذب فيه بالتصديق له حتي يعد من الأحسان ويتلقى بالقبول وكلما زاد الشاعر في دعوى غير الأمكان عادة وعقلا كلما استحسن منه ذلك ثم يقنع له بالتصديق على كذبه حتي يقال له والله أحسنت فيصدق على الباطل ويزاد يمينا مع ذلك حانثة ثم لايقتنع له بالتصديق واليمين حتى يكون العمل به سنة تتبع وأمراً لايليق الخروج عنه عند ذوى المروءآت والأحساب والنفوس الأبية. يقال أن يزيد بن مزيد الشيباني لما بلغه قول مسلم بن الوليد فيه

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه * ولا يمسح عينيه من الكحل

كانت بين يديه جارية تطيبه فقال لها قومى فقد حرم مسلم علينا الطيب وكان قد التزم ان لا يكذب شاعراً يصفه بوصف (يحكى) أن الرشيد دعاه في بعض الليالى وقال للرسول جئني به على الحالة التي يكون عليها فألفاه على شرابه فى ثياب المنادمة فحمله اليه فلما رآه الرشيد قال له ما أراك الا أكذبت شاعرك في قوله

تراه فى الامن فى درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يأتي على عجل

فقال يا أمير المؤمنين ما أكذبته وكشف الحلة التي عليه فرأى الرشيد الدروع وهي عليه بين ثيابه والله أعلم

ولما قدم الاعشى مكة تسامع الناس به وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل بل أم فقالت له أنت رجل فقير خامل الذكر ولك بنات وهذا الاعشى محظوظ ما مدح أحدا إلا ارتفع ولا هجا احدا إلا اوضع وعندنا لقحة فلو سبقت الناس اليه ونحرت واحتلت له في شراب لرجوت لك حسن العاقبة فسبق المحلق اليه فأنزله ونحر له وخبزت امرأته وأخرجت له نحياً فيه سمن وجاءت بوطف فيه لبن فلما أكل الأعشى واصحابه وكان في عصابة من عشيرته قدم اليه الشراب واستوى له من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها فلما جرى فيه الشراب وأخذ منه الكاس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه وذكر البنات فقال له الاعشى كفيت امرهن فأصبح بعكاظ ينشد قصيدته

أرقت وما هـذا السهاد المؤرق * وما بي من شوق وما بي معشق

حتي قال فيها

نفى اللوم عن آل المحلق جفنة * كجابية الشيخ العراقي تفهق

ترى القوم فيها سارعين وبينهم * مع القوم ولدان من النسل دردق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار بالبقاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق

ترى الجود يجرى ظافرا فوق وجهه * كما زان متن الهندواني رونق

فما اتم القصيدة الا والناس يتسللون الى المحلق يهنئونه ولم تمس واحدة من بناته الا في عصمة رجل أفضل من أبيها بألف ضعف • ولله در ابي تمام الطائى حيث يقول

وما هو الا القول يسرى فيغتدي * له غرر في أوجه ومواسم

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة * ويقضى بما يقضى به وهو ظالم

ولولا خلال سنها الشعر ما دري * بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

(وثامنها) انهم ادعوا أن الدمع تبدلت بالدم وهذه الرتبة قريبة على ما يأتي بيانه في المقدمة الثانية ومن دعوى الدم فيه بدل الدموع قول ابي تمام الطائي من ابيات

وأنقذها من غمرة الموت أنه * صدود فراق لا صدود تعمد

وأجرى لها الاشفاق دمعاً موردا * من الدم يجرى فوق خد مورد

وفى قول مزاحم بن الحارث وكان في زمن جرير

فقلت وقد أيقنت أن ليس بيننا * تلاق وعيني بالدماء تمور

أيا سرعة الاخبار حين تزوجت * فهل يأتيني بالطلاق بشير

ومن هنا انفتح باب تشبيه الدمع بالعقيق والمرجان والياقوت لمجرد الحمرة في لون الدمع فمنهم من شبه ومنهم من استعار ولما غلب استعمال الشعراء الدم في الدمع وتداولت الأسماع وروده عليها وألفت وقوعه فيها صارت

حقيقة عرفية عند الخاص والعام وصار هو الاصل والدمع فرعا عليه حتى ادعى الشاعر أن المحبوبة انكرت دمعه وطالبته بالحجة والعذر عن بياضه فقال

وقائلة ما بال دمعك أبيضاً * فقلت لها ياعلو هذا الذى بقى
ألم تعلمى أن البكا طال عمره * فشابت دموعى مثلما شاب مفرقي

وهذا مشهور وهو حسن ولكن لي عليه ايراد يذهب حسنه ويبقى له عذوبته وانسجام تركيبه فقط وهى ان بقية الشئ هي من جنس ماتقدمها واذا كانت البقية بيضاء دلت على أن الذى نفد منها كان أبيض فعلى هذا ماخرج عن عهدة مطالبتها له بالعذر عن بياضه فان قلت هذا يفهم من قوله شابت فدل على أنها انقلبت من اللون الاول الى لون المشيب وهو البياض قلت لم يقل أنه كان أحمر قبل هذا ولا في البيتين مايدل على شئ من هذا بل قال هذا الذى بقي وهذا يصلح أن يكون جواباً لها إذا قالت أن دمعك قليل ألا ترى أن الآخر قال

قالوا ودمعي قد صفا لفراقهم * إنا عهدنا منك دمعاً أحمرا
فأجبتهم إن الصبابة عمرت * فيكم وشاب الدمع لما عمرا

فاحترز بذكر الحمرة خوفاً من مثل هذا الايراد عليه وإنما الذي هو أحسن من هذا عندى وأكمل وأبدع لما فيه من زيادة التورية قول بعضهم

تعجبوا من أدمعى اذ غدت * بيضا وكانت من دم قان
لاتعجبوا طرفي رب الهوى * فكل يوم هو في شان

وقد توسع الشعراء في وصف الدمع بالحمرة الى أن نقلوه الي غيرها

مجازاً لما سمعوا قول القائل

وقائلة مابال دمعك أحمرا * فقلت لها يامنتهى كل منيتى
نحرت لضيف الطيف فى جفني الكرى * فهادمه جار على صحن وجنتى

وقال بعضهم فى الدمع الأسود

وقائلة مابال دمعك أسودا * وجسمك مصفر وأنت نحيل
فقلت لها أفنى جفاك مدامعى * وهذا سواد المقلتين يسيل

وهذا المعني مليح ولكن الشعر منحط فكأنه عروس جليت في ثياب حداد وقال آخر في الدمع الاخضر

وقائلة مابال دمعك أخضرا * فقلت لها هل تفهمين إشارتي
ألم تعلمي أن الدموع تجففت * فأجريتها يامحنتى من مرارتي

وهذا المقطوع ركيك وانما الاستطراد اضطرني الى ذلك ولقائله عذر واضح لكونه دفع الى مضيق هذا الجواب وكنت قد كلفت نظم شئ في الدمع الاخضر فاتفق لي هذا المعنى فنظمته وهو

يقول عذولى مالدمعك أخضرا * جرى في هوى ظبي علا في نفاره
فقلت صفا دمعى وقابلت صدغه * فأبصرت فيه لون آس عذاره

وتبرعت بالنظم في الدمع الاصفر فقلت

وقائلة مابال دمعك أصفرا * فقلت لها ماحال عن أصل مائه
ولكن خدي اصفر من سقم الهوي * فسال به والماء لون إنائه

وقلت فيه أيضاً

لاتنكروا من أدمعي صفرة * يبصرها الناظر عند الهموع
وإنما تجرى على ناحل * واللون للوجنة لا للدموع

وقلت أيضاً

قال حبي على م تبكي بدمع * أصفرٍ هكذا تفيض الأماقى
قلت إن الدموع تألف خدي * فلهذا تصفر خوف الفراق

فقيل لى لم يبق الا الدمع الازرق فقلت

قالت وقد نظرت لزرقة أدمعى * أكذا يكون بكاء صب شيّق
فأجبتها قد مات في جفني الكرى * فجرت دموعي في الحداد الأزرق

و(تاسعها) أن الدموع قرّحت مآقيهم وجرحت أجفانهم وخدّدت خدودهم وهذه الرتبة أيضاً داخلة في حيز الأمكان على مايظهر تقريره في المقدمة الثانية ومن هذه الرتبة قول العباس بن الاحنف

لقد هد الهوى بدني وأضني * فؤادى الهم من طول اشتياقى
بكيت غداة بنت بدمع عين * له قرحت جفوني والمآقى

وقول مسلم بن الوليد

اذا مابنات النفس همت بسلوة * تعرض وهنا طيف أروى فشاقها
وما زلت أبكى العين في رسم منزل * بدومة حتي قرح الجفن ماقها

و(عاشرها) أن العين ذهبت منه ولم يبق لها أثر كقول الباخرزى

عجبت من دمعتي وعيني * من قبل بين وبعد بين
قد كان عيني بغير دمع * فصار دمعى بغير عين

ولبعضهم في المعنى

أبكي وتبكى الحمام لكن * شتان مابينها وبيني
تبكى بعين بغير دمع * ولى دموع بغير عين

ويحصل إذهاب السواد كما أخبر الله تعالى عن يعقوب عليه السلام

فى الآية الكريمة فقال عز من قائل (وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) ثم قال تعالى (فلما أن جاء البصير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) وهذا في حق الانبياء صلوات الله عليهم معجز لأن المعجز عبارة عن أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم عين قتادة رضى الله عنه حين ذهبت حتي كانت أحسن عينيه وأبرأ المسيح صلوات الله عليه الاعمى • وبقية الآيات من الأمور الخارقة للعادة وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى وابيضت عيناه من الحزن فقال مقاتل لم يبصر بهما سنين حتى كشف الله عنه ذلك بقميص يوسف عليه السلام والقائلون بهذا التأويل قالوا الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمي لان البكاء الدائم يحدث كدورة في سواد العين ومنهم من قال أنه ماعمي ولكن صار بحيث يدرك إدراكا ضعيفاً وقيل انه ماجفت عيناه عليه السلام من حين فراقه الي حين لقائه وتلك المدة ثمانون عاما ومنهم من ذهب الى أن بصره ابيض برؤية الدمع فيه لانه اذا غلب البكا على البصر كثر الدمع فتصير العين بيضاء بالماء الذى فيها قلت قد رجح الامام فخر الدين هذا التأويل وحسنه ولكنه منقوض بما يأتي بعد ذلك من قوله تعالى فارتد بصيرا وهو دليل على أنه كان قد عمي • وروي أن يوسف عليه السلام قال لجبريل عليه السلام « هل لك علم بيعقوب » قال « نعم » قال وكيف حزنه قال حزن سبعين ثكلى وهي التي لها ولد ومات فقال فهل له في ذلك من أجر قال أجر مائة شهيد ومن كانت هذه حاله حق له العمى

قال شاعر من الحماسة

استبق دمعك لا يودي البكاء به * وا كفف مدامع من عينيك تستبق
ليس الشؤون وان جادت بباقية * ولا الجفون على هذا ولا الحدق

فان قلت قول شاعر الحماسة

وقفت كأني من وراء زجاجة * الي الدار من فرط الصبابة أنظر
فعيناي طورا يغرقان من البكا * فأعشى وطورا يحسران فأبصر

يؤيد ما استحسنه الامام ورجحه لانه قال اذا نظرت الي الدار ودموع العين باهتة فيها غشيت وكنت كأني أنظر من خلف زجاجة شبه الدمع بالزجاجة على عينيه فلا ترى شيئاً واذا انحسرت الدموع عن العين أبصر. قلت اذا انحدر الدمع في العين اما خوف رقيب يحبسه واما ان يكون البكاء تصنعاً كمن يعصر شؤونه ليتباكى فانه يقل إبصاره ويكون أعشى ضعيف البصر وقد قرئ « وجاؤا أباهم عشاء يبكون » بضم العين جمع أعشى لانهم تصنعوا في البكاء وتكلفوا اذ لا حزن عندهم لانهم بلغوا قصدهم بابعاد يوسف عن ابيهم وشتان ما بين بكائهم وبكاء ابيهم وما النائحة بكراها مثل الحزينة لقلبها. وفي قوله تعالى فارتد بصيرا تنبيه على انه كان قد عمي لانه ارتد على حالة كان على خلافها والابصار يخالف العمي وينضم الى هذا ما ذهب اليه بعض المفسرين من انه عمي مدة ثماني سنين وتهويل الآية وسياق نظمها يدل علي العمي وقول يوسف عليه السلام (إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) دليل على انه علم بعماه لانه أول ما بادر الى زوال ما هو عنده عظيم وهو العمي وأما انه سير قميصه ليتحدر الدمع من ابيه وينسفح فهذا بعيد من الذهن اذ ليس هو بكبير أمر ولا مهم والله أعلم بالصواب.

(وحادي عشرها) ان الدموع نفدت ولم يبق الا ما يذوب من النفس فيتصعد من التراقي وينحدر من الآماقي كقول الحارثي

خذي بيدي ثم اكشفي الثوب تنظري * بيَ الضر إلا أنني أتستر
وليس الذي يجري من العين ماؤها * ولكنها نفس تذوب وتقطر

وهذه الرتبة بعيدة عن الامكان جداً بل هي من المستحيل وأما اذا أردنا أن نحمل هذا البيت على الامكان تأولنا له وقلنا إن النفس في اللغة كما هي عند الفقهاء ايضاً عبارة عن الدم قال السموأل

تسيل على حدّ الظُّباة نفوسنا * وليست على غير السيوف تسيل

وفي عبارة الفقهاء ماليس له نفس سائلة وسوف يرد عليك في المقدمة الثانية مايقرب هذه الدعوى من الصدق في أن الدمع أصله الدم ولكن هذا التأويل يذهب ما في البيت من حسن المطابقة وأن الذي يجرى من الدمع انما هو ذوب النفس فلا يبقى في البيت موقع تام في القلوب

(وثاني عشرها) ادعوا انهم من الانصار على الحزن وانهم يستروحون بانفاقه ويستعينون به على ألم الهوى ودفع غلبة الجوى كقول الحسن ابن وهب

ابك فمن أيسر ما في البكا * ء أنه للوجد تسهيل
وهو إذا انت تأملته * حزن على الخدين محلول

وقول كثير عزة

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا * فقلت البكا أشفي إذاً لغليلي

(وروى) عن سالم راوى عاصم المقري رضي الله عنه انه قال لما كنت شابا اصابتني مصيبة تجلدت لها ودفعت البكا بالصبر فكان ذلك

يؤذيني ويؤلمني حتى رأيت اعرابيا بالكناسة وهو واقف على بعير ينشد ويقول

خليليّ عوجا من صدور الرواحل * بمهجور خودا فابكيا في المنازل
لعل انحدار الدمع يعقب راحة * من الوجد أو يشفي نجيّ البلابل

فسألت عنه فقيل هو ذو الرمة فأصابني بعد ذلك مصائب فكنت ابكي فأجد لذلك راحة فقلت قاتل الله الاعرابي فما كان أبصره • وهذه الرتبة صدقها معلوم ويأتي تقرير عليها والبرهان على صحة الدعوى فيها اذا مررت في أثناء المقدمة الثانية

و(رابع عشرها) انهم استنجدوا بالاخوان واستنصروا عليه بالاعوان كقول ابن الدمينه

وما احدث البين المفرق بيننا * سلوّا ولا طول اجتماع تقاليا
خليلي إن لا تبكيا لي استعن * خليلا اذا أنزفت دمعاً بكى ليا

و(خامس عشرها) انهم ساعدوا غيرهم على البكا لما فضل عندهم عن القدر المحتاج اليه كقول جميل بن سمر العذرى

خليلي هل بالشام عين حزينة * فتبكي على نجد لعلي أعينها
قد ابتعد الباكون إلا حمامة * مطوقة قد غاب عنها قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة * يكاد يدانيها من الارض لينها

و(سادس عشرها) انهم ادعوا بكاء المحبوب رحمة لهم كقول إسحق بن إبراهيم النديم

قامت تودعني والدمع يغلبها * فجمجمت بعض ما قالت ولم تبن
مالت علي تفديني وترشفني * كما يميل نسيم الريح بالغصن
فأعرضت ثم قالت وهي باكية * ياليت معرفتي إياك لم تكن

وقول ابن المعتز

قالت لاتراب خلون معاً * وبكت فبلّ دموعها النحرا
ياليته في مجلس معنا * نشكو إليه النأي والهجرا

و(سابع عشرها) أن الحسود بكى على المحب رقة عليه لما حل به وأصابه كقول أبي نواس

لم يبق الا نفس خافت * ومقلة انسانها باهت
يبكي له الشامت مما به * ياويح من يرثي له الشامت

نعوذ بالله من حال تؤدي الى رحمة الحسود وبكاء الشامت • وقد أحببت ان أجمع في ذلك ما يكون لمن نظر فيه حديقة غضة الجني • جامعة المنى • ساطعة السنى • يلذ قطافها • ويعذب نطافها • ويسوغ ارتشافها قد تفتح فيها زهر النظم الغض • وسقط من البلاغة لؤلؤ الندى على ورقها وأرفض • وترقرق في غدران سطورها سلسال الفصاحة • وروى الأدب المتمكن بأنفاسه النفاحة • ولعبت معانيها بلب ذي النظر السليم • لعب الهبات بمال الكريم • أو السلافة بعقل النديم • وعبث بها أهل الآداب عبث الرقباء بزيارة الاحباب • والدهر المتأخر بحرمان المتقدم في الآداب • وأولع بروايتها أرباب النثر والآداب • ولوع ثغر الاقاحي بالابتسام • ودمع النوادي بالانسجام • وأغري بنقلها المتأدبون • إغراء النسيم بميل أعطاف الغصون • والدموع بإذاعة السر المصون • ولم أودع هذا التأليف من الابيات الا ما كان لطيف المعني • محكم المبني • قد انسجم لفظه وعذب تركيبه ولذ في السمع وقعه • وارتشفت النفس مدامه • وفض الاختبار ختامه •

من كل معنى يكاد الميت يفهمه * حسناً ويعبده القرطاس والقلم

ولم أكن في ذلك حاطب ليل بل قاطف نهار . لان الابيات في ذلك كثيرة الى الغاية في الدواوين والمجاميع وأقوال الرواة لا يسعها فضاء الاحصاء ، ولا ينتهي اليها غاية الاعداد وان شككت

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد * ملء المسامع والافواه والمقل

وأي نحر للاقط ، يتناول كل ساقط ، وأى فضل لمتخير . يأتي بغير نير . وكم من بيت اذا اخذ الاذن على اذن السامع يجرعه ولا يكاد يسيغه وكم من معني اذا حاوله ناظمه لم يتأت له كيف يصوغه

ميلوا الى سهل الكلام فانه * من خاف مال الى الطريق الأوعر

بل الذى يجمع ويختار يحتاج الي لطف ذوق وصحة تمييز قبل العلم بالادب ومعرفة البيان والمعاني والبديع ورواية الشعر عن دواوين الشعراء . ومجاميع الادباء . وتواليف البلغاء ، ليكون مايختاره يرشفه جريالا . ويعده سحراً حلالا . ويكون إذا أورده يرف عليه ريحان القلوب وبدوراً تلفتت إليها القلوب . اذا شارفت الغروب .

فما كل دار اقفرت دارة الحمى * ولا كل بيضاء الترائب زينب

ولطف هذا الذوق الذي أشير اليه ليس مما يكتسب من أفواه الرجال ولا مما يؤخذ عن الاستاذ ولا مما ينبه عليه كبار المعلمين لانه ما عند المعلم ما يقول غير أنه إذا كان النظم والنثر خاليا من الالفاظ الحشوية والكلمات الغريبة أو القريبة المخارج او الدالة على المعاني التي تنفر النفوس منها بريئاً من قلق التركيب غير محتاج الي تقدير ولا حذف ولا اضمار سالما من الضرورة في الاعراب ووزن العروض منسجم النظم متمكن

القوافي خفيفاً على القلب وروده سهلا على النفوس استخراج معناه كشعر البها زهير فانهم قالوا ما تعاتب الاحباب ولا تراسل الاصحاب بأرق من شعره وهو لرقته يظن بأنه سهل فاذا حاول شاعر أن يجاريه عثر في محاجر الامتناع

لانت معاطفه وعز وإنما * يشتد بأس الرمح حين يلين

وقد اعترف الاديب نور الدين على بن سعيد المغربي في أول كتابه الموسوم بالمراميات أنه لما وردمن المغرب ولازمه واخذ يحذو حذوه إلى أن رق شعره ونعم لاريب ولا شك . أنه رق وكدت لتناسب السجع أن أقول رك . ولكن ما قارب بخلاف مهيار الديلمى وسيده الشريف الرضى فانه لما تأدب بآدابه وسلك طريقه قارب زائدا . وكاد نفساهما يكون واحدا وما للبها زهير عندى من المتقدمين الا العباس بن الاحنف وهيهات لطف الذوق من وراء هذا كله لانا نجد في الكلام ما عرى عن هذه الاشياء وليس له طلاوة غيره وتلك الطلاوة غير معقولة المعنى ولا معلومة السبب

وكم في الناس من حسن ولكن * عليك من الورى وقع اختياري

وأضرب لما ادعيته مثلا يؤيد الحجه . ويهدي الى المحجه . وهو قول جرير

إن العيون التي في طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله إنسانا

وقول مسلم بن الوليد

نقاتل أبطال الوغى فنبيدهم * ويقتلنا فى السلم لحظ الكواعب

وليست سيوف الهند تفنى نفوسنا * ولكن سهام فوّقت بالحواجب

وأين قول أبي الشيص

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي * متأخر عنهم ولا متقدم

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهمو

أجد الملامة في هواك لذيذة * حباً لذكرك فليمني اللوّم

من قول وهب بن جابر الخزاعي المغربي

هدّدت بالسلطان فيك وإنما * أخشى صدودك لا من السلطان

أهوى الملامة في هواك ولودري * أخذ الرشا مني الذي يلحاني

وأين قول مهلهل

الطاعن الطعنة النجلاء تحسبها * نوما أناخ بجفن العين يخفيها

بلهذم من هموم النفس صبغته * فليس ينفك يجرى في مجاريها

من قول أبي الطيب

كأن الهام في الهيجا عيون * وقد طبعت سيوفك من رقاد

وقد صغت الاسنة من هموم * فما يخطرن الا في فؤادي

وأين قول مهيار الديلمي

هل السائق العجلان يملك أمره * فما كل سير اليعملات وحيد

ترفق بأجفان المطيّ فانما * تداس جباه في الورى وخدود

من قول أبي العلاء المصري

رب لحد قد صار لحدا مراراً * ضاحك من تزاحم الاضداد

ودفين على بقايا دفين * في طويل الازمان والآباد

خفف الوطء ما أظن أديم ال * أرض الا من هذه الاجساد

وأين قول القائل

ألا ليت شعري هل تذكرت عهدنا * وطيب ليالينا كما أنا ذاكر

وإني لأستدنيك بالفكر والمني * إلى مهجتي حتى كأنك حاضر

من قول أبي الوليد بن زيدون

أما في قلبي فأنت جميعه * ياليتني أصبحت بعض مناكا

يدني مزارك حين شط بك النوى * وهم أكاد به أقبل فاكا

وأين قول مجير الدين بن تميم

بنده الازرق لما * شده من قد سباني

جدول فوق كثيب * دار يسقى غصن بان

من قول محيي الدين بن قرناص

من لقلبي من جور ظبي هواه * لي شغل عن حاجر والعقيق

خصره تحت أحمر البند يحكي * خنصراً فيه خاتم من عقيق

فهذه أمثلة ضربتها لك أيها الواقف على هذا التأليف وهي كل مقطوعين منها في معني واحد وليس في أحدها مايمجه السمع ولا ينفر منه القلب ولابد أن يجد الذهن الصافي بينهما فرقا في الالطاف يحكم به الذوق الصحيح ولم أراع فيها الترتيب حتي تحكم فيها بذهنك فتعرف الحسن منها والاحسن بذوقك . ولكن

وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم * فنمّ عليهم في الظلام التبسم

وأضرب لك مثالا يقرب لك معرفة النظم المنسجم العذب الرقيق من النظم المجرف القلق وهو قول المتنبي

وكذا اسم أغطية الجفون عيونها * من أنها عمل السيوف عوامل

أخذه محمد سبط التعاويذى فقال

بين السيوف وعينيه مشاركة * من أجلها قيل للاغماد أجفان

فانت ترى عجرفة بيت المتنبي في قوله أغطية العيون جفونها وقلق تركيبه في قوله عمل السيوف عوامل إن لم يكن للسامع دربة ودقة نظر وفكر في المعاني لم يقدر يتصرف في إعرابه فينصب عمل على أنها مفعول اسم الفاعلين لان عوامل جمع عاملة وعاملة صيغة اسم فاعل وكان التقدير من أنها عوامل عمل السيوف فاحتاج الي تقديم وتأخير فأوقع الفاعل في رتبته وأخره وقدم المفعول وأتى بعد أسم أن فالبس على السامع حتي توهم أنه خبر لان ففسد المعني ولم يستقم الا بالتقديم والتأخير مع مافي قوله أغطية الجفون من العجرفة والعامية وهذا الجمع مفرده أعذب من جمعه في القلة لان قول أبي تمام

سلبنا غطاء الحسن من حر أوجه * تظل لنفس السالبيها سوالبا

عذب في السمع لذيذ وترى انسجام قول التعاويذي لما أخذه من المتنبى كيف جاء به حديدا وأعاده ذهبا فيصدق فيه قول الحريرى

آخذ اللفظ فضة فاذا ما * صغته قيل انه ذهب

وقول أبي الطيب

لو قلت للدنف المشوق فديته * مما به لأغرته بعذابه

أخذه محمد بن الخياط الدمشقي فقال

أغار إذا آنست في الحى أنه * حذارا وخوفا أن تكون لحبه

فالنظر الى قلق الاول وسهولة الثاني كيف تناوله من النضارة عريا ورده زهرا جنيا وقول بشار بن برد

من راقب الناس لم يظفر بحاجته * وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه تلميذه سلم الخاسر فقال

من راقب الناس مات غما * وفاز باللذة الجسور

فتأمل الى سلم كيف تسلمه ذباله واعاده قمرهالانه اعذب وقعا واسلس طبعا مع أنه نقص من الاول تسعة احرف وعكس هذا قول عامر بن شهيد من أبيات

وتكادست فيها الابا * رق وهي قاذفة الحلاقم

وكأنها عصب وعفـ * ـن فثرن دامية الخياشم

أخذه من قول ابي إسحق الصابي

عروس كرم صفت وطابت * لونا وطعما فما تعاف

كأن إبريقها لديهم * ناكس رأس به رعاف

وإن كان الصابي أخذه من ابن المعتز فانه قال

يندى لثام الابريق من يدها * كأنه راعف وما رعفا

أخذه ابن شهيد حق در فأعاده صر بعر (وأزيدك بياناً آخر) وهوأن الشاعر نفسه تعلو وتسفل في الابيات القليلة أو القصيدة كابي الطيب المتنبي فاءن جيده في الاوج ورديه في الحضيض والقاضى الفاضل لايشبه جيده شئ من كلام مترسل وإن كان رديئه لاينحط كثيراً إلا أن جيده قلد جيد الزمان* وامتاز به عن الاقران* وقل من تجد كلامه تخرط في سلك واحد إذا أجاد فاذا ظفرت به فذلك الفذ الذى يعد من الافراد وأبو عبادة البحترى ممن لايعلو ولا يسفل بل هو نموذج واحد فكان كلامه من البسائط التى جزؤها يشبه كلها

من تلق منهم لاقيت سيدهم   مثل النجوم التي يسرى بها الساري

وابن التعاويذى ممن يدخل هذه الدائرة كأن شعره قد أفرغ في قالب واحد وابن حيوس أيضاً من هذا القبيل وكذلك ابن الخياط الدمشقي وابن النبيه وابن الفارض ممن ينخرط في هذا السلك وأما فحول الشعراء فان كلامهم يعلو إلى الثريا وربما تسفل الى الثري كأبي نواس وأبي تمام وأبي الطيب وابن المعتز وأضرابهم على أنني لاأدعى الاحاطة بالجيد من هذا النوع الذى قصدت جمعه وحاولت وضعه بل ولا بعشر معشار من آلافه المتعددة

إن فى الموج للغريق لعذراً * واضحاً أن يفوته تعداد

لانه مامن شاعر على عدم الاحاطة بعدتهم الا وقد تغزل أو رثي أو شكي أو تعتب وهو فى هذه الاحوال لايخلو من ذكر الدمع ووصفه ولكن سددت وقاربت وأتيت بما أمكن وأثبت الاحسن فالاحسن ورتبت هذا التأليف على مقدمتين ونتيجة هي الغرض الاقصى من هذا الكتاب (أما المقدمة الاولى) فاذكر فيها مايتعلق بالدمع من اللغة وذكر مايرادفه وبيان أسماء العين وماتشتمل عليه من الجزئيات . (وأما المقدمة الثانية) فأبدأ فيها بذكر سببه نقلا وما ورد فى ذلك من الاحاديث وذكر سببه عقلا ومن هذه المقدمة يتضح لك أسباب كثيرة داخلة في الامكان من دعاوي الشعراء في المدح . و(اما النتيجة) فانها تشتمل على سبعة وثلاثين بابا (الاول) في أوان البكا (الثاني) في وجود الراحة فيه (الثالث) في حيرته في الجفون خوف الرقباء (الرابع) أنه شاهد الحب (الخامس) فى أنه غسل العين (السابع) فى أنه نار وشرار (الثامن)

في أنه حجب الناظر (التاسع) في أنه دم (العاشر) في أنه عقيق أو مرجان (الحادي عشر) في الاعتذار لبياضه (الثاني عشر) في أنه نجوم (الثالث عشر) فى أنه لؤلؤ (الرابع عشر في أنه زهر (الخامس عشر) في ادعاء شربه (السادس عشر) في أنه ملح أجاج (السابع عشر) في جريته فى الخدود وترقرقه (الثامن عشر) في مباكاة الغمام والحمام (التاسع عشر) في سقيا الديار والمنازل (العشرون) في كثرته وجُود العين به (الحادي والعشرون) في أنه كالمطر (الثاني والعشرون) في أنه كالنهر (الثالث والعشرون) في أنه كالبحر (الرابع والعشرون) في أنه قرح الجفون وخدّد الخدود (الخامس والعشرون) في أنه أذهب العين (السادس والعشرون) في أنه ذوب النفس (السابع والعشرون) في طلبه من الرفاق وعاريته للعشاق (الثامن والعشرون) فى عدمه وجفافه (التاسع والعشرون) فى الاعتذار عن البكاء (الثلاثون) فى الافتخار به (الحادى والثلاثون) في الضحك بدلا عن البكاء (الثاني والثلاثون) فى البكاء بدلا عن الضحك (الثالث والثلاثون) في انه تبسم (الرابع والثلاثون) في بكاء المحبوب (الخامس والثلاثون) فى بكاء العدو وغيره رحمة (السادس والثلاثون) في مفردات تتعلق به (السابع والثلاثون) في استعارة البكا لعين الانسان

المقدمة الاولى

فيما يتعلق بالدمع من اللغة وذكر ما يرادفه وبيان أسماء العين وما تشتمل عليه من الجزئيات

(الدمع) ماء تقذفه العين من الرطوبة عند مايحصل للقلب رقة إما من خوف أو رجفة أو استغراق في الضحك أو عقيب التثاؤب وغير ذلك • وجمعه دموع في الكثرة وأدمع في القلة مثل فلس وفلوس وأفلس ونفس ونفوس وأنفس و (المدامع) جمع مدمع وهو مجرى الدمع نفسه مثل مركب ومراكب اسم لموضع الركوب ومجمع ومجامع اسم لموضع الجمع و (الغرب) مجرى الدمع ويجمع علي غروب وللعين غربان مقدمها ومؤخرها قال الأصمعي يقال بعينه غروب إذا كانت تسيل ولا تنقطع دموعها والغروب في الدموع مجازاً قال الشاعر

مالك لاتذكر أم عمرو * إلا بعينيك غروب تجرى

و (الشأن) واحد الشؤون وهي مواصل قبائل الرأس وملتقاها ومنها تجرى الدموع قال ابن السكيت الشأنان عرقان منحدران من الرأس الى الحاجبين ثم الى العينين و (العبرة) الدمع نفسه وتجمع على عبرات يقال منها استعبر اذا بكي وتقول عبر الرجل يعبر عبرا فهو عابر والمرأة عابر أيضاً • وعبرت عينه واستعبرت اذا انحلت دمعها والعبران الباكي والعبر بالتحريك سخنة في العين يبكيها والعبر بالضم مثله * ورأى فلان عبر عينه أي مايسخن عينه وما أحسن ما كتب به ابن حكينا البغدادي الى ابن التلميذ الطبيب وقد مرض بأن يعبر اليه دجلة ليداويه

إن امرء القيس الذى * هام بذات المحمل
كان شفاه عبرة * وعبرة تصلح لي

يريد قول امريء القيس

وإن شفائي عبرة مهراقة * فهل عند رسم دارس من معوّل

فنقل ابن حكينا العبرة من كلام امرىء القيس من الدمع الى العبرة في كلامه وهى التعدية في الدجله • وذكرت ههنا قول السراج الوراق

منزلى في ذلك البر وفي ذا البر زادى
والذى عدّى تهدّى * بخلافي للمراد
فتخلفت وخلفت غريباً في بلادي
ولتفريطى ما * أبقيت شيئاً للمعادى

ورّى بالمعادى وهو يوم القيامة عن المعادى باثبات الياء جمع معدية و (البكا) يمد ويقصر فاذا مددت أردت الصوت الذى يكون مع البكا واذا قصرت أردت الدمع وخروجهما قال الشاعر

بكت عيني وحق لها بكاها * وما يغنى البكاء ولا العويل

وبكيته وبكيت عليه بمعني قال الاصمعي بكيت الرجل بالتخفيف وبكيته بالتشديد كلاهما اذا بكيت عليه وأبو زيد مثله وأ بكيته إذا صنعت به ما يبكيه وباكيته فبكيت أي كنت أبكي منه قال الشاعر

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

واختلف أرباب الادب في معني هذا البيت فقيل معناه أن الشمس طالعة ليست بكاسفة نجوم الليل والقمر تبكي عليك وعلى هذا التقدير يستقيم معنى البيت وقيل غير ذلك واستبكيته وأبكيته بمعنى وتباكى تكلف البكا والبكى بكسر الكاف الكثير البكا على وزن فعيل والبكى على وزن فعول جمع باك مثل جالس وجلوس الا أنهم قلبوا الواو ياء • قال الله تعالى (خروا سجداً وبكيا) ولا يكون بكياً مصدرا بل هو جمع باك لانه معطوف على سجداً جمع ساجد

فصل

(في ترتيب البكا)

إذا تهيأ الرجل للبكا قيل أجهش . قال أبو زيد والأصمعي أشحن بالشين المعجمه والحاء المهملة بمعناه . وزاد أبو زيد جهش للحزن والشوق وقال الأصمعي أهتف الصبي إهتافاً مثل الإجهاش . وقال الكسائي فخم الصبي تفحم فخوما وفخاما إذا بكى حتى ينقطع صوته . وفخم بكسر الحاء لغة فان امتلأت عين الانسان دموعا قيل إغرورقت عيناه فاذا كادت تسيل قيل ترقرقت فاذا سال قيل دمعت بكسر الميم وقال الكسائي وأبو زيد دمعت بالفتح لاغيره وهمت تهمي فاذا كان للبكا صوت قيل نحب وانتحب ونشج من النشج والنحيب فاذا صاح مع بكائه قيل أعول ويقال همعت تهمع . وعسقت تعسق بكسر السين عسقا مثله

فصل

(في تقسيم الماء من أماكنه)

من السحاب سح . ومن الينبوع نبع . ومن الحجر انبجس . ومن النهر فاض . ومن السقف وكف . ومن القربة سرب . ومن الأناء رشح . ومن العين انسكب . ومن المذاكير نطف . ومن الجرح ثغ . وقد يتجاوز في كل ذلك ويستعمل في الدمع ويقال رشح وانسفح وهطل وهمل وهمى وهمع ووكف وذرف وقطر وانهمر وجرى وسال وانبجس وصاب وهتن واسبل واستهل وفاض وانسرب وانسكب وانسجم وتحلب وتدفق وازنق

فصل

في مايرادف لفظ العين مجازاً

عين وجمع الكثرة عيون وجمع القلة أعين . ومقلة وجمعها مُقَل وحدقة وجمعها حَدَق وأحداق وناظر وجمعها نواظر . وطرف

فصل

المقلة شحمة العين وهي التى تجمع السواد والبياض . والحدقة السواد الاعظم والناظر هو السواد الاصغر . والانسان يكون في الناظر كالمرآة اذا استقبلتها رأيت شخصك والعامة تسميه النونو أو النني وقال أبو الطيب

جارية طالما خلوت بها   تبصر في ناظري محياها

يصف إفراط قربه منها فان قلت لاي شيء قال تبصر في ناظرى محياها وما عكس اذ هذا يدل على إنها مشغوفة مشتغلة به مولعة بادامة النظر اليه وهو يخالف قوله فيما بعد

تبل خدي كلما ابتسمت * من مطر برقه سناياها

وأول القصيدة كله شكوي وتأوه والعادة جارية أيضاً بوصف المحبوب بالاعراض ووصف المحب بالاشتغال به وبادامة النظر اليه قلت الجواب من وجهين أحدهما وهو إقناعي أن القافية لايليق بها إلا ذلك فلو عكس لم يوافق وقد جاء في القرآن الكريم مراعاة رؤوس الآي مثل رب موسي وهارون ورب هارون وموسى وثانيها أنه يرى وجهه في سائر وجهها لصقاله وشفوفه والمحب لم تجر العادة بوصفه أن وجهه شفاف

فيه صقال تجلو مايقابله فلم يكن فيه شئ بهذه الصفة غير إنسانه وهـذا السؤال والجواب لم يظهرا إلا عند تعليق هذا الفصل والانسان هو الذى فيـه الحركة وإذا مات الانسان بطلت هاتيك الحركة التى تكون فيه • قال شرف الدين شيخ الشيوخ

عاتبت إنسان عيني في تسرعه * فقال لي خلق الانسان من عجل

وذنابة العين مؤخرها • واللحظ طرف العين مما يلي الصدغ والموق طرف العين مما يلي الأنف • والحملاق باطن جفن العين الذى ينبت عليه الشعر • والحجاج العظم المشرف على العين

فصل

في محاسن العين

الدعج أن تكون العين شديدة السواد مع سعة المقلة • البرج شدة سوادها وشدة بياضها • النجل شدة سعتها • الكحل سواد جفونها من غير كحل • الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها يقال احورت عينه احوراراً واحور الشئ ابيض . قال الاصمعى ما أدرى الحور في العين • وقال أبو عمرو الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظبي والبقر قال وليس فى بني آدم حَوَر وانما قيل للنساء حور العين لأنهن شبهن بالظبي والبقر • والوطف فى العين طول أشفارها وتمامه • وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان في أشفاره وطف • والشهلة حمرة فى سوادها • وتلويز العين اذا كانت فى شكل

اللوزة ، فهذه صفات الحسن عند أرباب المحبة والمتغزلين • وأما الحكماء فقالوا في العين التى تحمد فراستها أن تكون متوسطة الحجم ساكنة فى تركيبها ترقه فى نظرها لم تتفرق أشفارها ولم تضق ولم يضعف إنسانها وتكون صافية من الكدورة نقية من النقط لينة فى بريقها كامنة العروقات معتدلة فى الطرف بالجفن تجلى يخالطها السرور والمهابة بياضها نقي وسوادها كذلك ولا صغيرة ولا عظيمة ولا غائرة ولا جاحظـة ولا شاخصة كالجامدة ولا سريعة التقلب كحركة الزئبق ولا ناتئة الحدقة ولا صغيرتها ولا كبيرتها ولا واسعتها ولا مختلفة الوضع فى البياض والسواد وتكون رطبة فى المنظر من غير ضعف ولا علة شهلا خفيفة الشهولة ملوزة الوضع وقلما تجتمع هذه الصفات في عين

فصل

(فى معائب العين)

الحوص ضيق العين • والحوص غورها مع الضيق • والشتر انقلاب الجفن • والعمش أن لا تزال العين تسيل وترمص • والجهر أن لا تبصر نهاراً • والعشي أن لا تبصر ليلاً • الخزر أن لا تنظر بمؤخرها • الغضن أن تكسر فى النظر حتي تتغضن جفونها • القبل أن تكون كأنها تنظر الى الانف وهو أهون من الحول • والحول في الشخص أن تراه كأنه ينظر اليك وهو ينظر الي آخر • الشوس أن ينظر باحدى عينيه ويميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها • الخفش صغر العين مع ضعف البصر • والجحوظ خروج المقلة وظهورها من الحجاج • النحق أن

يذهب البصر والعين منفتحة • والكمه أن يولد الانسان أعمى • والسمادير ضعف البصر وقد اسمدرّ ويقال هو الشيء الذي يتراءى للانسان مع ضعف بصره عند السكر من الشراب وغيره • والقدع بتحريك الدال مفتوحة ضعف البصر من إدمانه فى النظر الى الشيء • والاسجاد إدامة النظر مع السكون

المقدمة الثانية

(في سبب البكا عقلا ونقلا)

أما العقل فهو ما أخبرنا به الشيخ السند الصالح شمس الدين أبو الحسن على بن محمد بن ممدود بن جامع البندنيجي قراءة عليه وأنا بدمشق قال أنبأنا أبو العباس أحمد بن عمر بن عبد الكريم البادنيني قراءة عليه ببغداد وأنا أسمع قال أنبأنا المؤيد بن محمد بن علي الطوسي قال أنبأنا محمد بن الفضل الفزاري قال أنبأنا الحسين بن عبد الغافر بن محمد ابن شعبان الفارسي أنبأنا أبو أحمد بن محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودي أنبأنا أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن سفيان أنبأنا أبو الحسن سالم ابن الحجاج النيسابوري القشيري أنبأنا أبو كامل الجحدري حدثنا حماد يعني ابن زيد عن عاصم الأحول عن أبي عثمان النهدي عن أسامة ابن زيد قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبياً أو ابناً لها في الموت فقال للرسول أرجع اليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمي فمرها فلتصبر ولتحتسب فعاد الرسول فقال إنها أقسمت لتأتينها قال

فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وانطلقت معهم فرفع النبي صلى الله عليه وسلم الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنة ففاضت عيناه فقال له سعد ماهذا يارسول الله فقال هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء (وقال أنس) دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القين وكان ظئراً لابراهيم فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه ابراهيم فقبله وشمه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان • فقال ابن عوف وأنت يارسول الله فقال يا ابن عوف انها رحمة ثم أتبعها بأخرى فقال ان العين لتدمع وان القلب ليخشع وما نقول الا مايرضى الرب إنا لفراقك ياابراهيم لمحزونون • أخرجه البخاري وأبوداود • وقال أبوهريره رضى الله عنه مات ميت من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع النساء يبكين عليه فقام عمر ينهاهن ويطردهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعهن ياعمر فان العين دامعة والقلب مصاب والعهد قريب • أخرجه النسائي • وقالت عمرة سمعت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية يبكي عليها فقال إنه ليبكى عليها وأنها لتعذب في قبرها • أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي والنسائي (قوله) صلى الله عليه وسلم إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه وما أشبهه قال الشيخ محيي الدين رحمه الله اختلف العلماء في هذه الاحاديث فتأولها الجمهور على من وصي بأن يبكى عليه وينـاح بعد موته فنفذت وصيته فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم لانه بسببه

ومنسوب إليه • فأما من بكى أهله عليه وناحوا من غير وصية منه فلا يعذب لقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقالت طائفة هو محمول على من أوصى بالبكاء والنوح ولم يعرض بتركهما فمن أوصى بتركهما أو أهمل الوصية فلا يعذب بهما اذ لاصنع له فيهما ولا تفريط منه * وحاصل هذا القول إيجاب الوصية بتركهما * وقالت طائفة معنى الاحاديث أنهم كانوا ينوحون على الميت ويندبونه بتعديد شمائله ومحاسنه بزعمهم وتلك الشمائل قبائح في الشرع يعذب بها كما كانوا يقولون يامرمل النسوان يامؤتم الولدان يامخرب العمران ونحو ذلك مما يرونه شجاعة وفخرا وهو حرام شرعا • وقالت طائفة أنه يعذب ببكاء أهله ويرق لهم والى هذا ذهب محمد بن جرير الطبرى وغيره • قال القاضى عياض وهو أولى الاقوال • واحتجوا بحديث فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم زجر امرأة عن البكاء على أبيها وقال إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه فياعباد الله لاتعذبوا اخوانكم • وأجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم أن المراد بالبكاء هو البكاء بصوت ونياحة لابمجرد الدمع • قلت وقال ابن حزم رحمه الله تعالى الصبر واجب والبكا مباح مالم يكن نوح فان النوح حرام والصياح وخمش الوجوه وضربها وضرب الصدور ونتف الشعر وحلقه للميت كل ذلك حرام • وكذلك الكلام المكروه الذي يسخط لأقدار الله تعالي وشق الثياب ثم ساق حديث ابراهيم وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال وهذا إباحة للحزن الذى لايقدر أحد على دفعه ولا يكلف الله نفساً الا وسعها • ثم ذكر حديث عبدالله ابن عمر قال اشتكى سعد بن أبي عبادة فعاده النبي صلى الله عليه وسلم

مع عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وابن مسعود فلما دخل عليه وجده فى غشية فبكى النبيّ صلى الله عليه وسلم فلما رأى القوم بكاء النبي بكوا فقال ألا تسمعون أن الله لايعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا أو يرحم وأشار الى لسانه وان الميت يعذب ببكاء أهله عليه قال هذا الخبر بتمامه مبين معنى ماذهل فيه كثير من الناس من قوله صلي الله عليه وسلم إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه ولاح بهذا أن البكاء الذى يعذب به الميت ليس هو الذي لايعذب به من دمع العين وحزن القلب

﴿ فصل ﴾

قال أبو أحمد بن عدي أنبأنا ابراهيم بن محمد بن يوسف بن موسى أنبأنا الوليد بن بكر السعدي حدثنا عبدالله بن عثمان بن سيف المقرى أنبأنا زيد بن علي بن جدعان عن ابن المسيب عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ماعلامة المنافق قلنا الله ورسوله أعلم قال الذى يبكي بإحدى عينيه قال أبو أحمد هذا حديث غريب وإسناده مظلم فيه ثلاثة مجاهيل لاتعرف أحوالهم قلت قد رأيت وأنا بصفد من يبكي بإحدى عينيه ثم يقول لها قفي فيقف دمعها ويقول للأخرى أبكي فيجري دمعها ولكن ماعلمت اسمه • ورأيت بمصر إنساناً يحب آخر يقال له أحمد يعرفهما جماعة من أصحابنا فاذا قال له محبوبه أبك يبك واذا قال وهو في وسط البكا أضحك جمد دمعه وضحك • ورأيت برحبة مالك بن طوق إنساناً يعرف بالشيخ حيدو يعرفه جماعة بدمشق يبكي باحدى عينيه وسوف يأتي تعليل هذا في السبب العقلى بعد هذا الفصل

قلت قوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً) قال المفسرون أخبر الله تعالى أن الانبياء إذا سمعوا آيات الله تعالى سجدوا وبكوا خشية الله تعالى وهكذا ينبغي أن يكون من تخلق بأخلاقهم فاستن بسنتهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ سورة مريم فسجدوا قال هذا السجود فأين البكاء وعن ابن عباس اذا قرأتم سورة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتي تبكوا فان لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أغرورقت عين بماء من خشية الله إلا حرم الله جسدها على النار وعن أبي هريرة رضي الله عنه لايلج النار من بكى من خشية الله تعالى وقال وهب سجد آدم على جبل الهند مائة عام يبكي حتى جرت دموعه في وادي سرنديب فنبت من دمعه الدارصيني والقرنفل وجعل طير ذلك الوادي الطواويس ثم جاء جبريل فقال ارفع رأسك فقد غفر لك فرفع رأسه ثم أتى البيت فأطاف أسبوعا فما أتمه حتي خاض في دموعه قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كتاب اللطائف كان يحيي بن زكريا عليهما السلام يبكي حتى رق دمعه وبدت أضراسه • وقد عاش سليمان يبكى من مرض الذنوب فيا عجباً من بكائه وما ثم مأتم فكيف بمن لاينقضى يوم الا وفيه لهم مأتم ومأتم • وقال عليه الصلاة والسلام عينان لاتمسهما النار عين بكت من خشية الله تعالى وعين باتت تحرس في سبيل الله وقال لو بكى عبد من خشية الله تعالى لرحم من حوله ولو كانوا عشرين ألفاً • وقال يزيد الرقاشي بلغني أنه من بكى على ذنب نسي حافظاه ذلك الذنب • وكان عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي يبكيان الدم • وكان

الفضل قد ألف البكاء حتي صار يبكى في النوم وقال الحسن بن عرفة رأيت يزيد بن هارون من أحسن الناس عينين ثم رأيته مكفوفاً فقلت مافعلت العينان الجميلتان فقال ذهب بهما بكاء الاسحار • وقال أبو عمر الجوني أرتني أمي موضعاً في البيت قد انحفر فقالت هذا موضع دم أبيك حين كان يبكى وقيل إن الخنساء لم تزل تبكى على أخويها صخر ومعاوية حتى أدركت الاسلام فاقبل بها بنو عمها إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهي عجوز كبيرة فقالوا ياأمير المؤمنين هذه الخنساء قد قرحت مآقيها من البكاء في الجاهلية والاسلام فلو نهيتها لرجونا أن تنتهي فقال لها عمر اتقى الله تعالى وأيقني بالموت فقالت إنما أبكى ، إبى لموقفه بالموت فقال عمر رضى الله عنه أتبكين على من صاروا جمرة في النار قالت ذلك أشد لبكائي عليهم فكأن عمر رق لها فقال خلوا عجوزكم لا أبالكم وكل امرئ يبكى شجوه ونام الخلي عن بكاء الشجي

قال محب الدين بن النجار في ذيل تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن المختار أمير البطيحة وقد مات له ابن فبكى عليه إلى أن ذهبت إحدي عينيه ثم تلتها الاخرى فقال يشكو الزمان

كأنما آلي على نفسه * أن لايرى شملا لاثنين
لم يكفه ما نال من مهجتي * حتي أصاب العين بالعين

ولما خرج الحسين بن علىّ بن حسن بن حسن بن الحسين بن علىّ ابن أبي طالب رضى الله عنه بالمدينة زمن الهادى وتوجه الى مكة قالت له أخته فاطمة بنت علىّ لاأسأل الركبان عنك أبدا وخرجت معه فشهدت قتله وكانت تزور قبره وتلازمه وفي عنقها مصحف فتبكيه إلى أن عميت • حكي صاحب الاغاني عن الرقاشي قال صلى متمم بن نويرة

مع أبي بكر الصديق رضى الله عنه وأنشد

نعم القتيل إذا الرماح تناوحت * تحت الازار قتلت يا ابن الازور

قال ثم بكى حتى سالت عينه ثم انخرط على قوسه متكئا ومغشيا عليه • وقال قيل لمتمم ما بلغ من وجدك على أخيك قال أصبت باحدى عيني فما قطرت منها دمعة عشرين سنة فلما مات أخي استهلت فلم ترقأ وما أحسن قول ابن سناء الملك

بكيت بكلتا مقلتيّ كأنني * أتمم ما قد فات عند متمم
فلم يرطرفي قط شملا مبددا * فقابله إلا بدمع منظم

وحكي أيضا عن عمر بن شبة بن لبيد بن ربيعة العامري أنه قال لابنتيه لما احتضر

فان حان يوما أن يموت أبوكما * فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا حليفه * أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

ولهذا قال أبو تمام الطائي

إن كان مسعود سقي أطلالهم * سيل الشؤون فلست من مسعود
ظعنوا فكان بكاي حولا بعدهم * ثم ارعويت فكان حكم لبيد

وأما السبب العقلي فهو أنه قد تبين في علم الطب كون مزاج الدماغ باردا رطبا وأن فيه من أصل الخلقة رطوبة فضلية وأنه يقبل بخارات البدن المتصاعدة منه وأنها تستحيل فيه لبرده ورطوبته إلى المائية كما في بخار الحمام وان هذه المائية انما تنفصل عن الدماغ بالدمع واللعاب والمخاط وان الدمع انما يحدر الي العين من الدماغ بواسطة العصب الاجوف الذى فيه الروح الباصر وان مستقر الدمع في الدماغ انما هو في الشؤون

لانها اعلى موضع في الدماغ وهذه الفضلة الطف هذه الفضول وارقها وتبين ايضا ان هذه الفضلة انما تندفع بارادة طبيعية كاندفاع البول بخلاف بقية فضلاته فإنها طبيعية فقط ولذلك يمكن الانسان استدعاء الدمع بالبكاء بخلاف غيره وتبين ان اندفاع هذه الفضلة إنما هو بانعصار الشؤون وانما يعصرها أحد أمور ثلاثة إما تزاحم من خارج كضربة شديدة على الراس وإما تمدد الدماغ واغشيته وإما مزاحمة الابخرة الصاعدة من البدن وهو السبب الثالث الاكثريّ الوقوع فاذا امتلأ الدماغ بخاراً رطباً وانقبض انعصرت الشؤون واندفع ما فيها الى العين فكان منه البكاء وانما يمتلئ الدماغ بخاراً بما يصعد اليه من البدن لورود المؤدي على النفس أو البدن وانما ينقبض الدماغ عند ذلك للغم الذى يلزم القهر وعدم الانتصار والغلبة فيستروح الدماغ لخلوه عن هذا المؤدى وكثيراً ما يكون فى الدماغ مواد مستعدة لان تصير دمعاً فعند ما يحرك أدنى سبب من أسباب البكاء ويحصل يسير منه بحسب سببه تستتبعه تلك المواد الكامنة لاتصالها بهذه المواد وما أحسن قول ابن درست

لولا مخافة عين الحاسد الشاني * لكان لي ولكم شأن من الشان
هرقتمو ماء عيني يوم فرقتكم * ما الشأن فى مائها للشأن والشان

ولما كان الغضب وهو طلب الانتقام يسخن المزاج بإفراط كان الدمع الحاصل من البكاء حاراً • ولما كان السرور يبسط النفوس والارواح باعتدال لكنها ربما صادفت رطوبة مائية مستعدة للاندفاع بأدنى سبب فاندفعت بانبساط الارواح لافادة بخارية جديدة فيحدث من ذلك فى النادر بكاء عند الضحك ويكون الدمع بارداً لعدم البخار

المسخن الحاصل من الغضب ولهذا قالوا للمدعوّ له اقرّ الله عينك اى جعل دمعها بارداً من فرط السرور وقالوا للمدعو عليه سخن الله عينك اى جعل دمعها حارًّا لفرط الغم وكثيراً ما يكون بين طبقات العين رطوبات فضلية محتبسة فاذا سخنت طبقات العين إما بدواء حار يرد عليها كالا كحال الحادة ونحوها وإما بملاقاة شمس حادة واما بورود بخار مسخن من الدماغ فتندفع تلك الرطوبات بالدمع من غير بكاء وانما يمكن لبعض الاشخاص ان يبكي باحدى عينيه دون الأخرى لاختلاف مزاج شقيّ الدماغ في ذلك الشخص لانه تبين في علم التشريح أن كل واحد من بطون الدماغ الثلاثة أعني المقدم المشتمل على الحس المشترك والخيال والبطن الاوسط المشتمل على الفكر والوهم والبطن المؤخر المشتمل على القوة الذاكرة منصّفه في طولها وأن مزاج كل واحد من الشقين يخالف الآخر ولذلك تقع القوة فى احد شقي الوجه دون جميعه ولما كانت هذه الرطوبة المائية اعنى الدمع انما تحصل عن الطف البخارات فتشبه الماء القراح في لونه وقوامه واما في طعمه فلا • بل ربما مالت الى الاحتراق فكانت مالحة وقد تشتد حرارتها فتكون حريفة فربما قرحت الجفون وخدّدت الخدود ولما كان أصل هذه الرطوبة من أخلاط الجسد التي هي محولة في الدم وإنما تستحيل الى البياض بطبخ الحرارة الغريزية كما فى المني ونحوه فاذا لم يتم طبخها جاز أن توجد على لون الدم وان كان ذلك نادراً كما يوجد ذلك عند المكثرين من الجماع دماً قانياً واذا قلت هذه المادة لكثرة البكاء وجفاف الدماغ وامتلاء النفس عليه ودام سببه الفاعل مع قلة سببه المادي فيوجد من الدمع القليل ولا يجد له مدداً فيقف ويتحير واذا ورد على النفس شاغل قوي

فربما انصرفت اليه بغتة فينقطع البكاء دفعة ويقف الدمع كالجامد كما يحصل عند مفاجأة الرقيب ونحوه وكما يشاهد من انقطاع بكاء الطفل عند مايرد عليه مايخاف منه أو يلهيه عن حالته بغتة • ولما كان الدماغ رطباً وفيه من أصل الخلقة رطوبة فضلية تحتاج الى التنقية جعل الله تبارك وتعالى أسباب تنقيتها بكاء الاطفال مع مافي بكائهم من الاعلام بورود المؤذى عليهم لعجزهم عن النطق والاشارة

النتيجة

(وتشتمل على سبعة وثلاثين بابا)

الباب الاول

(في أوان البكاء)

قال ابن خيب من شعراء الانموذج لابن رشيق

ليت الفراق غداة أورد أصدرا * بل لو تلوّم ساعة وتصبرا
لما وقفت ودمع عيني واقف * في مقلتي حتي اذا رحلوا سرى

أخذ الصدر من قول البحترى

نهته رقبة الواشين حتى * تعلق لا يفيض ولا يسيل

وأخذ العجز من قول أبي الطيب

كأن العيس كانت فوق جفني * مناخات فلما سرنَ سارا

يقال ان هذا البيت قرئ على بعض ملوك الروم فقال مايكون اكذب من هذا الشعر فكيف تكون الجمال فوق جفنيه • وقد ضمن النصف الاول من هذا البيت مجير الدين بن تميم فقال

وجيران الفتهمو زمانا * فأبعدهم نوى الحدثان عني

أثاروا عيسهم فجرت دموعي * كأن العيس كانت فوق جفني

وقال الشريف الرضى

فيا صاحبي إن تعط صبراً فانني * نزعت يديَّ اليوم من طاعة الصبر
فان كنت لم تدر البكا قبل هذه * فميعاد دمع العين منقلب النفر

وقال ابن المعلم

لولاه مابدا الغمام هاطلا * دمعي ولا اشتاق التراب خدى
وأنت ياعيني وعدت بالبكا * هذا الفراق فانعمى بالوعد

وقال شرف الدين شيخ الشيوخ

لعيني كل يوم فيه عَبره * تصيّرني لاهل العشق عِبره
فمسجد دمعها لا نقص فيه * وكم جهزت فيه جيش عسره
اذا غفل الوشاة أسلت دمعى * فيغدو مرسلا في وقت فتره

وقال ابن المعتز

مابال ليلى لايرى فجره * وما لدمعى دائماً قطره
أستودع الله حبيباً مضى * ميعاد دمعي أبداً ذكره

وقال أبو الحسين الجزار

أستودع الله من ودعتهم سحراً * يوم الرحيل وهم للقلب قد سحروا
وقال قلبي لطرفي عند فرقتهم * ماذا لدمعك فيه اليوم تنتظر
هناك آبت جفوني وهي مسرعة * إن الجفون بأمر القلب تأتمر

وقال شهاب الدين محمود

قالوا الرحيل وما تملت باللقا * عيني ولا امتلات بغير مدامعي
حيران لا أدري لقرب انني * أذرى المدامع أو لبين رائع

قال أيضاً

ميعاد جفني والدموع التى * تهمي اذا برق الحمي أومضا
وعهد عيني بالكرى عندما * سرت مع الركب الذى قوّضا

وقال العماد الكاتب

تجود الثرى دمعي اذا ما ذكرتكم * بصيب غموم لا بصيب غمام
فلله دمعى قاضياً حق ودكم * اذا ما تقاضاه غريم غرام

وقال الشريف الرضى

قال لى صاحبي غداة التقينا * نتشاكى حر القلوب الظماء
ماترى النفر والتحمل للبين فما ذا انتظارنا بالبكاء
لم يقلها حتى انثنيت لما بي * أتاقى دمعى بفضل رداء

وقلت أنا في ذلك

لما أعتنقنا لوداع الهوى * وكدت من جمر الجوى أحرقه
رأيت قلبي سار قدامه * وأدمعى تجرى فما تلحقه

الباب الثاني

في وجود الراحة فيه

قال مهيار الديلمى

دعونى فلي إن زمّت العيس وقفة * أعلم فيها الصخر كيف يلين

وقال آخر

لاتلم في البكاء فالدمع لو لم * يجر في الخد كان فى القلب جمرا

وقال ابن الخياط الدمشقي

أقم مأتماً قد أثكل الفضل أهله * وأبك المعالى قد أجد رحيلها
اذا أنت كلفت المدامع حملها * عناك من الأحزان خف ثقيلها

وقال ابن سناء الملك

كأن جفوني إذ تكاثر دمعها * تمد على الدنيا بهن المساويا
وإني لأنهى الجفن عن فيض غربه * لاني رأيت الدمع للهم ماحياً

وقال أيضاً وأبدع

ولما مررت بدار الحبيب * وقد خاب في ساكنيها ظنوني
حططت همـوم جفوني بها * لان الدموع هموم الجفون

وقال دعبل الخزاعي

يشفى غليلك في الديار بقدر ما * فاضت بها من مقلتيك نجوم
فاذا انقضت حرق البكاء عاد الهوى * وترادفتك مع الهموم هموم

وقال الشريف البياضي

إن عاش دمعك والركاب تساق * مع ما بقلبك فهو منك نفاق
لا تحبسن ماء الجفـون فانه * لك يا لديـغ هواهمو درياق

وقال أيضاً

الفت الضني من بعدكم فلوانه * يزول إذا عدتم حننت إليه
وصار البكا لي مؤنساً فكأنه * تغيب عن عيني بكيت عليه

وهو يشبه قول أبي الطيب

خلقت ألوفا لو رددت إلى الصبا * لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

وقرأه بعضهم حلفت ألوفا بالحاء المهملة والفاء وضم الهمزة من ألوف جمع ألف وهو تصحيف حسن • وأخذ هذا المعنى أيضاً أبو الفرج العلا بن السوارى فقال

فلو تجمع شملى بعد فرقتهم * ولهت للبين لما صرت آلفه

وقال ابراهيم بن العباس الصولى

لا وحبك لا أوا * صل بالدمع مدمعا
من بكي شجوه استرا * ح وإن كان موجعا

وقال محمد بن شرف القيرواني

عتابا عسي أن الزمان له عتبا * وشكوى فكم شكوى ألانت له القلبا
اذا لم يكن إلا إلى الدمع راحة * فلا زال دمع العين منهملا سكبا

وقال آخر

أرسل دموعك يوم البين إن بانوا * إن الدموع على الاحزان أعوان

وقال الحسين بن محمد البارع

نشدتهما أن يمنحاني وقفة * أبل بها شوقا وأقضى بها نحبا
وأن لا يلوما فى البكاء لعله * يبل غليلا أو ينفس لى كربا

وقال العباس بن الاحنف

فلم أر مثلما تشكو ضلوعي * وما راحت به من سوء زاد
أبيت مسهداً قلقاً وسادى * اخفف بالدموع عن الفؤاد

وقال ابن المعتز

وهاجرتني عيون كنّ راضية * ذنب المشيب إليها ليس يغتفر
فغالبت دمعها والوجد دافعه * وكل جازعـة بالدمع تنتصر

وقال الخفاجى الحلبي

واذا الهموم ترادفت أحزانها * فالدمع يجمل سعيه في كلها

وقلت أنا في ذلك

دعوني ودمعي عسى فيضـه * به تنطفى نار قلبي المروع
فمن شؤم خطيَ في الحب أن * أرى راحتي في انسكاب الدموع

﴿ الباب الثالث ﴾

في حيرته في الجفون خوف الرقباء

ماأحسن قول البحترى في هذا المعنى

وقفنا والعيون مثقلات * يغالب طرفها نظر كليل
نهته رقبة الواشين حتى * تعلق لا يغيض ولا يسيل

وقال ابن صردر

أحبس دمعي فيندّ شاردا * كأنني أضبط عبداً آبقا
ومن محاشاة الرقيب خلتني * يوم الرحيل في الهوى منافقاً

وقال الواواء الدمشقي

كم دمعة كدت أذريها وماظهرت * لما تركت رجائي في يد الياس
جالت فلما خشيت الوجد يظهرها * ويغتدى كافى جهراً لدى الناس
سترت بالكأس لحظي عن لواحظه * عمداً وغيضتها في لجة الكاس

وقال مهيار الديلمي

ولقد وقفت وما حظيت بمسعد * وشكوت لكن مارزقت رحيم
والعين تكرم ثم تبخل حيرة * والركب يقعد تارة ويقوم

وقال الشريف الرضي

رجعت ودمعي فارغ من تجلدى * يروم نزالا للهوى ويهاب
وأثقل محمول على العين دمعها * إذا بان أحباب وعزّ إياب

وقال أيضاً

دمع تكمّن في الجفون فرعته * حذر الرقيب فلاذ بالاشفار
فكأن أسياف الخوارج تنتضي * وكأنه عثمان يوم الدار

وقال الارّجانى من قصيدة

فعينك سكرى بخمر الصبا * وعيني من حيرة الدمع سكرى

قلت اخذ عجزه من المتنبي حيث قال

نظرت اليهمو والعين سكرى * فصارت كلها للدمع مأوي

وقال الحسين ابن الضحاك

نفسي الفداء لخائف مترقب * جعل الوداع إشارة بعناق
إذ لامقال لمفحم متحير * إلا الدموع تصان بالاطراق

وقلت انا في ذلك

قد سال دمعي لفقد ظبي * رضاً به سكر وقرقف
ولو رأي في الهوى رقيباً * رأيته سائلا توقف

وقلت أيضاً

قد حار دمعي في جفني مخافة ان * يدرى الرقيب بأن الجفن يدريه
ياللرجال لأمر قد بليت به * على سهادى وقلبي في تلظيه
حتى ولا دمع عيني لم أجد فرجا * منه ولم اتصرّف بالبكا فيه

﴿ الباب الرابع ﴾

في أنه شاهد الحب

لبعض الشعراء

أنا صبّ وماء دمعيَ صبّ * وأسير من الضنى فى قيود
وشهودى على الهوى أدمع العيـ * ـن ولكنني قذفت شهودى

وقال محيي الدين يوسف بن ذبلاق

خذوا خبر الاشجان عن جفني السمح * فمجمل حالى فيه يغنى عن الشرح

فان سفحت عيناي دمعي احمراً * فلا عجب سيل العقيق من السفح
أيجعله الواشي على الخد شاهداً * وحمرته في الجفن تؤذن بالجرح

وقال مجد الدين الاربلي

قلبي وطرفي ذا يسيل دما وذا * دون الورى أنت العليم بقرحه
وهما بحبك شاهدان وإنما * تعديل كل منهما في جرحه

وقال سيف الدين بن المشد

خذ بحقي من ذمة البرحاء * واقض لى في الوفا بحسن الوفاء
جرحت أدمعي شهود جفوني * قذفتها يوم النوى بالبكاء

وقال أيضاً

لاتلمني وقد منعت جفونى * من لذيذ الكري وطيب الرقاد
صنت دمعي بين الجفون فلما * قذفته حددتها بالسهاد

وقال ابن سناء الملك

العين تكذب أن يبيت * خياله فى محجري
ولأجل ذاك حددتها * بالدمع حد المفترى

وقال ابن نفاذه

وأكتم ماألقى ودمعي يذيعه * وقد نطقت منه به السن فصح
وتقريح أجفاني من الدمع شاهد * يزكيه فى حكم الهوي القذف والجرح

وقال بعض الشعراء

لقد قضي حاكم التبريح مجتهدا * عليّ بالوجد حتي ينقضي اجلي
لذا قذفت شهود الدمع فيك عسي * ان الوصال بجرح العين يثبت لى

وقال ابن قلاقس السكندرى

لو انها سمحت بطيف عائد * نصب الرقاد لها حبالة صائد

لكنها صحبته فاحتجب الكرى * عن ساهد وافى بدمع شاهد

وقال نجم الدين اسرائيل

بكيت من وجدى عليه دما * فناظرى بالدمع مقروح
وقلت طرفى فى الهوى شاهد * فقال ذا الشاهد مجروح

وقال شرف الدين بن القيروان

بكيت دما والقاصرات سوافر * فلاحت خدود كلهن مورّد
وقد وقف الواشون فى كل وجنة * على محضر فيه المدامع تشهد

وقال شهاب الدين محمود

تذكر بالحمى عهدا خزامه * وعيشا بالعذيب صفا فرامه
وأسكنه الجوي كمداً ووجداً * فقام الدمع في النجوى مقامه
فناح وباح من طرب وشوق * وأبدى وجده وشكا غرامه

وقال ايضاً

غنى بذكر الحمي فارتاح كل شجي * وخاض بالدمع حادي الركب في لجج
حتي اذا لاح نور القرب وابتسمت * تلك الثنيات عن وجه الحمي البهج
فأي ماء دموع لم ترق فرحاً * وأي نار ضلوع ثم لم تلج
وكم لسان فصيح كلّ من دهش * فصاح نحو لسان المدمع اللهج

وقال البدر يوسف الذهبي

قد قذف الدمع وهو شاهده * بما قضته يد الهوى القذف
ومنذ أعي عن وصف لوعته * لسانه قال للدموع صفى
والدمع والصبر أعوزا فلذا * لم يكف هذا وذاك لم يكف

وقال ابوالفتح ابن قادوس

من عاذرى من عاذل * يلوم فى حب رشا

إذا جحدت حبه * قال كفى بالدمع شاهد

وقلت انا فى ذلك

وأنت يامن أداجيه على شغف * به وهيهات ان تخفى الصبابات
لاتقبلن شهادات الدموع ومن * تعديل عطفيه كم فينا جراحات

﴿ الباب الخامس ﴾

﴿ في أنه فاضح الاسرار ﴾

قال بعض الشعراء

لى حبيب بين الورى شبهوه * بهلال السما وقد ظلموه
ليس لى عنه في ساوي وجه * وله في السلو عني وجوه
قمر كلما كتمت هواه * قال دمعي هذا المريب خذوه

وقال ناصح الدين الارجاني

تالله لم تر عاشقاً كمداً * ان كنت يوم البعد لم ترني
فالقلب يسبقني فأتبعه * والدمع أسرقه فيفضحني

وقال ابن الساعاتى

لم تهم سحب الدمع بعد جحودها * الا وقلب البرق في الخفقان
مابحت بالشكوى إليه وانما * نسخت دموعي آية الكتمان

وقال الوأوأ الدمشقي

يكفيك ما أفنت الايام من بدني * لم يبق جور الهوي مني ولم يذر
إني لأخفى اشتياقي وهو مستتر * من أين تخفى ودمعي صاحب الخبر

وقال ابراهيم الغزي

سكرى الفؤاد وان صحوا مرضى الهوى * والحب ما لمريضه إفراق

نطقوا بأعينهم وأفصح ناطق * دمع يفض ختامه الاشواق

وقال آخر

لو كنت ساعة بيننا مابيننا * وشهدت حين نكرر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثاً * وعلمت أن من الحديث دموعا

وقال ابن التعاويذى

مالي إذا رمت السلو يلومني القلب المليم
واذا كتمت الحب باح بسري الدمع النموم
عيني وقلبي في الهوى * عين علي فمن ألوم

وقال أبو علي بن الشبلي

نام سمار الدجى عن ساهر * يجد الهم سميراً والبكاء
أسعدته أدمع تفضحه * وإذاما أحسن الدمع أساء

وقال مهيار الديلمي

لساني فيك أملكه * ودمع العين يملكني
هبيني أستر النجوى * أليس الدمع يفضحني

وعكس ذلك فقال

ومع التحبة أن سر هواكمو * في الصدر خلف ممنع محزون
لم تدر من ستري له كبدي بمن * ذابت ولا ألم البكاء جفوني

وربما عاب بعض الناس مثل هذا على الشعراء إذا تناقض كلامهم وليس ذلك على اطلاقه بل هو مشروط أن يكون ذلك في مقام واحد أعني في قصيدة واحدة • أما إذا كان التناقض في مقامين اى في قصيدتين فلا يعد ذلك عيباً كقول امرئ القيس

فلو أنما أسعي لادنى معيشة * كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسمى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

ثم إنه قال من قصيدة أخرى

إذا مالم يكن إبل فمعزي * كأن قرون خلتها عصيّ
فتملأ بيتنا أقطا وسمنا * وحسبك من غني شبع وريّ

وكقول أبي الطيب

أحن الى أهلي وأرجو لقاءهم * وأين من المشتاق عنقاء مغرب

ثم أنه قال من قصيدة أخرى

غنى عن الاوطان لا تستفزني * الي بلد سافرت عنه إياب

ودواوين الشعراء ملأى من التناقض فى اختلاف المقام ولم يعد النقاد ولا الحذّاق ذلك عيباً لأن الشاعر يتكلم على حسب حالاته وما تحدثه به نفسه من السلو مرة ومن دوام الحب أخرى ومن القناعة مرة ومن الغني أخرى فهو ينغم بمقتضى الحال

(رجع) وقال ابن المعلم

ومعنف لى بالبكاء أجبته * والدمع يظهر ما يجن ضميري
دعنى فما أخضر العقيق بعبرتى * إلا وصوح نبته بزفيري
مهلا فما دمعى بمحبوس ولا * قلبي على جور الهوي بصبور

وقال ابن البنيه

خذ من حديث شؤونه وشجونه * خبراً تسلسله رواة جفونه
لولا فضيحة قلبه بدموعه * مازال شك رقيبه بيقينه

وقال أبو الحسين الجزار

طرف المحب فم يذاع به الجوى * والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكي الجفون على الكرى فاعجب لمن * تبكى عليه إذا نأى الاوطان

وقال مهذب الدين بن القيسراني

دمعى لسان فمه ناظر * تعزى الوشايات إلى سكبه
فاعجب لطرف دل قلبا على ال * حب هو الواشى على حبه

أخذ الاول من القاضى الفاضل لانه قال

أي شأن لا يباح أبه * بعد ما قد باح لى شان
وكلام الصب أدمعه * لك والأفواه أجفان

وقال الامير أبو الفضل الميكالى

ان لى في الهوى لسانا كتوماً * وفؤادا يخفى حريق جواه
غير أنى أخاف دمعى عليه * ستراه يبدى الذى ستراه

وقال الواواء الدمشقى

أيا ملزمي ذنب الدموع التي جرت * فأبدت من الاسرار كل مصون
أعنى على تأديب دمعى فإنه * ينوب إذا ما كنت أنت معين

وقال بعض المتقدمين

كتمت الهوى حتي اذا نطقت به * بوادر من دمعي تسيل على خدى

وقال ابن القيسراني

تجاهل صحبي أن بكيت صبابة * عليّ وقالوا ماجرى قلت أدمع
وما عبر الصب الكئيب عن الهوى * بمثل لسان فوه جفني ومدمع

وقال شهاب الدين بن دمرداش .

أخفيت سر هواكمو ضنا به * إن المتيم بالهوى لضنين
فوشت به عيني ولم أك عالماً * من قبلها أن الوشاة عيون

وقال الاسعد بن مماتي

في حجور المحاجر اليوم أطفا * ل دموع ليوم هجر أرنى

والذي بيننا حديث مهم * عنه نطقي ينبي ودمعي ينبي

وقال أبو هلال العسكري

آفة الشر من جفو * ن دوام دوامع
كيف تخفى مع الدمو * ع الهوامي الهوامع

وقلت أنا في ذلك

يا مانحي ذلة الخضوع * ومانعي لذة الهجوع
عاقبتني لافتضاح سري * والذنب في ذاك للدموع

وقال أيضاً

لا ترموا على دموعي مزيداً * قد كفى ما جرى من الاجفان
كم كتمت الهوى وما كنت أدرى * أن شاني في الحب يفضح شاني

﴿ الباب السادس ﴾

﴿ في أنه غسل العين ﴾

أول من فتح هذا الباب للشعراء مجنون ليلى فقال

وكيف ترى ليلي بعين ترى بها * سواها وما طهرتها بالمدامع

فجاء المتأخرون وزادوا فيه زيادة حسنة لا بأس بها فهم ابن هند لانه قال

يقولون لي ما بال عينك كلما * رأت حسن هذا الظبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني برؤية وجهه * فكان لها من صيب أدمعها غسل

وقد ظهر لي فيه مؤاخذة لانهم قالوا له لاي شئ كلما ترى هذا الظبي تبكي فقال لأن عيني زنت برؤية وجهه . قلت الغسل يكون مرة واحدة وبه يرتفع الحدث بل الاحداث المتعددة فما الجواب مطابق لسؤالهم لانهم قالوا تبكي كلما رأيته . ولو قال لان عيني كلما زنت

برؤية وجهه تغتسل لكان مطابقاً لسؤالهم وهذا ظاهر جلي . وأخذه الثعالبي فقال

إنسانة فتانة * بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيني بها * فبالدموع تغتسل

وتابعه ابن الساعاتي فقال

جفني الذي يرد الكرى متأسفاً * جهلا ورجم الدمع حد المحصن

قلت هذا مع حسنه وزيادته على من تقدمه فيه عيبان أحدهما أنه ما وطأ للاحصان فيما تقدم حتى ينطبق المفصل على المفصل . والثاني أنه ما القاعدة في الرجم أن يكون بالدموع وكان ينبغي أن يقدم لذلك مقدمات تؤيد هذه الدعوي وقال آخر هو أبو الحسن بن أبي قاسم القاشاني كما سيأتي في الباب الثاني عشر

عيناي مذ شط المزار بكم * تحكي سما والدموع أنجمها
كأن في وجنتي أبالسة * تسترق الدمع فهي ترجمها

وقال أبو الفضل الميكالي

سل محباً أعياه فرط هواه * فضناه ينوب عن ترجمانه

قلت هذا أخص في النقد من الاول لانه علل رجم الدمع إذا هو استحسن غير محبوبه وأما أبالسة مجردة في الوجنة تسترق بمجرد الدمع حتي ترجم بالدموع فليس بكاف من نفس المعنى وللنقد فيه مجال ومجاز . وقول الاول كأن في وجنتي أبالسة ليس بمجرد ذكر الابالسة . وأحسن منه وأكمل قول الآخر

جنت فعوذني بكفك إن لي * شياطين شوق لا يفارقن مضجعي
إذا سرقت أسرار دمعي تمرداً * بعثت اليها في الدجى شهب أدمعي

وما أحسن ما استعمل السراج الوراق هذا المعنى حيث قال

ودموع في إثرهن دماء * كانسكاب الولي بعد الوسمي
يتراكضن بين شهب وحمر * والغواني يبكين حولي بدهم
وزناء العيون تطهيره من * شهب الدمع في الظلام برجم

قلت انظر كيف أتي بذكر الرجم مشتركا بين رجم النجوم وغيره وأيده بلفظ الشهب التي وطأ بها في كون الدمع وأكده بذكر الظلام فلما كثرت التوطئة جاز ذكر الرجم في موضعه متمكناً من القواعد التي قررها له والدّهم فى قوله ليست صفة الدمع بل صفة العيون لانه جاء في ذكر الغواني وما أحسن ما استعمل الرجم في مكان آخر

نظرت من خلل السجف كشمس من دجون
وعلينا رقباء * هجروا نوم العيون
فتطارحنا هوانا * برسالات الجفون
وزنينا بعيون * ورجمنا بظنون

وأما ابن الفارض فانه قد خلص من هذا كله واستعمل الغسل فقال

وقد سخنت عيني عليها كأنها * بها لم تكن يوماً من الدهر قرّتِ
فانسانها ميت ودمعي غسيله * وأكفانه ما ابيض حزناً لفرقتي
فللعين والاحشاء أول « هل أتى » * تلا عائدي الآسي وثالث «تبت»

قلت قد أحسن في استعمال إنسان العين ميتاً والميت الذي لاحركة له ومتى بطلت حركة الانسان لزم موت الانسان فكأنه نفسه مات. وأما الاول من « هل أتي » فهو الآية الكريمة وهل فى الآية بمعنى قد وهو يعود للعين وثالث « تبت » هو « سيصلى ناراً » وهو يعود للاحشاء فأحسن في هذا اللف والنشر وقال الشريف أبو الحسن علي

ابن حيدر

إمتص حمرة خده * باللحظ طرفي إذ رنا
فجلدته بدموعه * والحد يلزم من زنى

وقال ابن قزل

تنبأ دمعي فى ضلالة شعره * ألم تره فى فترة الجفن يرسل
اذا ما زنى انسان عيني بنظرة * الى حسنه يوماً فبالدمع يغسل

وقال ابن نفاذه

قد ضحكت عينيَ من بكائها * واغتسلت من بعدكم بمائها
فلم يطهرها وقد خالطه * ما أجرت الاشواق من دمائها

قلت في قوله ضحكت واغتسلت فائدة يسأل عنها وما أظن الناظم تنبه لذلك وهى ما الفائدة في قوله اغتسلت بعد قوله ضحكت اذ الضحك لايوجب الاغتسال . والجواب أن الضحك هو الحيض وبه فسر قوله تعالى فضحكت فبشرناها باسحق ولهذا قال الحريرى فى المقامة الثانية والثلاثين قال فان ضحكت المرأة في صومها قال بطل صوم يومها وإذا حاضت العين ناسب اغتسالها فان قلت كيف تحيض العين قلت يخرج مخرج الاستعارة لوجود الدم وهو البكاء . وكل من تقدم خلا ابن نفاذه استعمل لفظة الزنا وهو غير لائق بالمحبوب والعشاق . فان لفظة الزنا لفظة ينفر منها السمع لتحريمه في الشرع وما أحسن قول السراج الوراق

يانازح الطرف مُر نومي يعاودني * فقد بكيت لفقد الظاعنين دماً
أوجبت غسلا على عيني بأدمعها * وكيف وهي اذا لم تبلغ الحلما

وقال عفيف التلمساني

قالوا أتبكي من بقلبك داره * جهل العواذل داره لحبي
لم أبكه لكن لرؤية وجهه * طهرت أجفاني بفيض دموعي

وقال السراج الوراق يرثي امرأة

وجوه عليها للحياء براقع * وللصون من بعد الخدور خدور
فكم من رداء طاهر بات جارياً * على فقده دمع هناك طهور

وقلت أنا في ذلك

منعتم جفوني لذة الغمض في الدجى * فما ذاق طرفي بعدكم للكرى طعما
فكيف قضيتم بعدها أن أدمعي * لعيني غسل وهي لم تعرف الحلما
أظنكمو طهرتمو بمدامعي * عيوني لما إن رأت غيركم قدما

﴿الباب السابع﴾

في أنه نار أو شرار

قال مهيار الديلمي

جمعت عليه حرقة الدمع والجوى * وما اجتمع الداآن الا ليقتلا
هبي لي عيني واجعلي كلفة الاسى * على القلب إن القلب أصبر للبلا

وقال ابن نفاذة

وكنت أسر الوجد في القلب جاهداً * وهذا لسان الدمع قد قاله جهرا
وقد طار من جفني شرار مدامعي * فحقق صحبي أن في كبدي جمرا

وقال أيضاً

أقل وجدي مذ تناءوا فكر * وبعض ما ألقاه فيهم سهر
كأنما قلبي زناد في الهوى * يقدحه الشوق ودمعي شرر

وقال مجد الدين ابن منقذ

يا راحلين وقلبي في محلهمو * والدار دانية والشمل مفترق
أحبب الي بليل التم أسهره * تفكرا فيكمو والدمع يسترق
وكلما فاض دمعي زادني حرقا * فكيف حالة من بالماء يحترق

قلت لو كان عندي تعنت الادباء لقلت إنه نقل هذا المعنى من قول الشاعر

من غص داوى بشرب الماء غصته * فكيف يصنع من قد غص بالماء

وقال ابن الساعاتي

مقلتي أصمت بلحظ مقلتي * فمن المشكو والمرمي رام
أحرقتني وهي ماء أدمعي * إن ماء الدمع نار المستهام

وقال أيضاً

يا بارقاً صدع الدجى * من ومضه سهم مرق
قلبي وأنت وقرطه * كل يهيم إذا خفق
ومدامعي ماء ولـكن فعلها فعل الحرق

وقال أبو جعفر الغزالي في مجمر

ومجمر ملئت ساحاته بغضا * والجمر يرمي شراراً وهو يستعر
كلفت تشبيهه يوماً فقلت خذوا الـ * تشبيه عني لا يشغلكم الخبر
فمجمر النار صدري والغضا كبدي * والجمر قلبي ودمعي ذلك الشرر

وقال شهاب الدين محمود

محب روى عنه الضنى ما بقلبه * من الشوق نحو الظاعنين فما غوى
أعاد فراق الحي ماء جفونه * لهيباً اذا ما سال في خده كوى

وقال شهاب الدين محاسن الشوا

أعانقها يوم الوداع ولم أخف * رقيباً لأني قد خفيت من السقم
بكيت عقيقاً من شقيق لبعد من * بكت لؤلؤاً من نرجس ساعة الضم

غدا من سرور باردا در دمعها * ومرجان دمعي راح سخناً من الهم

وقلت أنا في ذلك

هل لي من وزري لديكم وزر * قد ذاب طرفي بالبكا والسهر

لو لم يكن في القلب جمر الجوى * ما كان دمعي فوق خدي شرر

﴿ الباب الثامن ﴾

في أنه حجب الناظر

قال مهيار الديلمي

أبارقٌ ماتشيم عيني * أم المصابيح في الحمول

انظر فان الدموع خاطت * جفني على ناظر كليل

وقال الشريف الرضي

ياخليلي انظرا عنى الحمى * إن طرف العين بالدمع أعاما

طالما استسقوا لعيني دمعها * إنما استبقيت للدار الغماما

وقال ابن سناء الملك

إذا نظرت عيني سواك تلثمت * حياء بعنوان الوفاء من الدمع

وقال ابن حبيب

مُجرى جفوني دماء وهو ناظرها * ومتلف القلب وجداً وهو مرتعه

إذ بدا حال دمعي بعد رؤيته * يغار مني عليه فهو يرتعه

وقال القاضي الفاضل فأغرب

ولما مررنا بالرسوم تنفذت * بها للهوى في العاشقين المراسم

بكيت فغطى الدمع أنوار أعين * ومن عجب أن الدموع كواتم

وقال مهذب الدين قلاقس

حجب الدمع مقلتي فعداها * أن ترى ما يروقها ما يريق

ولآلي دموع عيني طوافٍ * فلماذا غواصهن غريق

وقال ابن عفيف الدين التلمساني

متحجب حتى بدمعي إن بدا * وتلاه حتى الدمع من أعوانه

مازال يأخذ درّ دمعي صده * حتى انتهت يده إلى مرجانه

وقال نور الدين بن موسى المغربي

بعيشك هاتيك الديار ديارها * وهذى الذى تزكي على الدمع نارها

أعد نظراً ياسعد إن بمقلتي * حجاب دموع منذ شط مزارها

وقلت أنا في ذلك

سألتهمو وقد عزموا التنائي * قفوا نفساً عليّ فما أجابوا

ولم أرهم وقد زمّوا المطايا * لان الدمع في عيني حجاب

وقلت أيضاً

هم نور عيني وإن كانت لبعدهمو * أيّام عيشيَ سوداً كلها عطب

إن يحضروا فالبكا غطى على بصري * فهم حضور وفي المعنى همو غيبُ

﴿ الباب التاسع ﴾

(في أنه دم)

قال الأرّجاني

دنوت عشيّة التوديع مني * ولي عينان بالدم تجريان

ولم يمسحن إكراماً جفوني * ولكن رُمْنَ تخضيب البنان

وقال ابن الساعاتي

سلوا بالحمى أين الظباء السوانح * وهل ظل بعدي بانه المتناوح

جرى ماء عيني يوم كاظمة دماً * فأعلمني أن البروق صفائح

وقال ابن قزل

جرحوا قلبيَ الاسير لديهم * وأسالوا ليَ الدما من أماقي
عجباً لي وقد فنيت بكاءً * وبرغم الدموع أني باق

وقال أيضاً

جرى على الركب دمع عيني * يوم استقلوا بغير عين
وفاض حتى خشيت منه * يحول ما بينه وبيني

قلت كأني بمن لا دربة له بالادب وقد قال ما للدم في هذين البيتين ذكر فما لسياقتهما في هذا الباب وجه وجوابه أن يقال ألم تره قال جرى دمعي بغير عين واذا كان دمعاً بغير عين فقد صار دما وقد أخذ المعنى من عمر بن علي المطوعي حيث قال

باتوا فامطرت الاجفان بعدهمو * من نوء عيني على خدي نوعين
حتى إذا نفضت عيني مدامعها * بقيت أبكيهمو دمعاً بلا عين

وقال ابن قزل

يانازحين عن الحمى خلفتموا * جسداً بكم مضني ونفساً باليه
وسكنتموا غور الحشى فمدامعي * تجرى شريعتها وعيني داميه

وقال المعتمد بن عباد أحد ملوك الاندلس

ولما وقفنا للوداع عشيّة * وقد خفقت في ساحة القصر رايات
بكينا دما حتى كأنّ جفوننا * بجري الدموع الحمر فيها جراحات

وقال محمد بن شرف

صنم من الكافور بات معانقي * في حلتين تعفف وتكرم
فكرت ليلة وصله في هجره * فجرت بقايا أدمعي كالعندم

فطفقت أمسح مقلتيَّ بجسمه * اذ شيمة الكافور إمساك الدم

ومن هذه المادة قول محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي

أتذكر إذ مسحت بفيك عيني * وقد حل البكا فيها عقوده
ذكرت بأن ريقك ماء ورد * فقابلت الحرارة بالبروده

وقال شرف الدين بن الفارض

أبق لي مقلة لعليَ يوما * قبل موتي أرى بها من رآكا
قد كفى ما جري دما من جفون * لي قرحى فهل جرى ما كفاكا

وقال ابن المعلم

ركب اللجاجة في الغرام وكلما * عابوا الجنون عليه زاد وتمما
ولقد درى أن التهتك لم يفد * قيساً ولا نفع البكاء متمما
وطوي على الوجد الضلوع وما طوى * وحمى عن الصحب الدموع وما حمى
لاموا على زفراته فشكى جوى * واستكثروا عبراته فبكى دما

وقال ابن نفاذه

كتم الغرام فهل يصح جحود * والسقم قاض والدموع شهود
أجرى الهوى إنسان ناظره دما * فكأنه في جفنه مفصود

وقال القاضي الفاضل

قالوا بكيت وقد زكيت وجنتها * فقلت بل جئت عني بالدم الكذب
لا تعدلوا الجفن في صوبي دموكري * لو لم يصب بسهام الجفن لم يصب

وقال أيضاً

أعزز عليَّ بان ظلت ديارهمو * تسدى الهموم بها إذ مدت الهمم
وما لبست دموع العين عاطلة * الا وفيض دمي في ردنها علم

وقال أيضاً

اذا ماجرى جفني دما بمدامعي * علمت بان القلب راح قتيلا
فما القلب الا للهموم قراره * وما الجفن الا للدماء مسيلا

وقال ابن الخيمي يخاطب قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في عمل محضرِ لاخوين معسرين أحدهما يسمي حسن والآخر يسمى حسين

ياثاني القمرين بل ياثالث العمرين هذا محضر الحسنين
أخوان قد نزفت عيونهما دماً * بالفقر فانظر في دم الاخوين

وقال حسام الدين عيسى بن بهرام الحاجري

ولما التقينا ومنّ الزمان * رأي دمع عيني دماً في المآقي
فقال وعهدي به لؤلؤا * أتجرى عقيقاً وهذا التلاقى
فقلت حبيبي لاتعجبن * جعلت فداءك ميتاً وباقي
فتلك أوائل دمع الوداع * وهذي أواخر دمع الفراق

وقال ابن سناء الملك

أشكو اليها رقتى لترق لى * فتقول تطمع بي وأنت كمارى
واذا بكيت دماً تقول شمت بي * يوم النوى فصبغت دمعك أحمرا

وقال أيضاً

وتوالى همي عليّ إلى أن * ضاق ذرعي بل ضاق والله درعي
كيف قد زيد في دم العين عين * أنا أجرى دمي فلم قيل دمعي

وقال ابن سناء الملك

لاتحسبوا أني بكيت دماً * ولئن بكيت فليس بالبدع
لكن دمعي حين قابله * ألقى شعاع الخد في الدمع

أخذه الباخرزى لانه قال

شكوت الذى ألقي سهاداً وعبرة * وقلت احمرار الدمع يخبر عن وجدى

فقال محال ما ادعيت وإنما * سرقت بعينيك التورد في خدي

وقال الوأوأ الدمشقي

واذا نظرت الى محاسن وجهه * لم تدرمن نظرت إليه ظماءى
فامزج بمائك كاس راحك واسقني * إني مزجت مدامعي بدماء

وقال الشريف البياضي

يبكي فراقكمو دماً ويجُلّه * عن أن تجود به العيون دموعا
ما أنضجت نار الغرام جوانحا * إلا وصاعدَتِ الدموع نجيعا

وقلت أنا

نثرت دم الاجفان مني بحجرها * فظنته فيه حب رمان نهدها
وجسّت بروع نهدهاقات سالم * ولكن دموعي نقطتك بجمرها

وقال شهاب الدين التلعفرى

وأغن أغناه الجمال بخله * إن الجمال بوصله لشحيح
أجرى دماً جفني وأسهره إلى * أن خلت أن النوم فيه ذبيح

وقال أيضاً

وقالوا اجرت حُمراً دموعك قلت عن * أمور جرت في كثرة الشوق قلّتِ
نحرت لضيف الطيف في جفني الكرى * قِرًى فجرى دمعي على صحن وجنتي

وقال أيضاً

منازل للصّبا مازال تملي * له فيها بمن أهوى اتّصال
دموعي بعدها دالٌ وميم * على خدى لها ميم ودال

وقال علاء الدين الوداعي

ياموَدعاً بوداعه في مهجتي * حُرَقاً تؤججها يد التذكار
أبكيت طرفي بعد أدمعه دماً * وكذا يكون بكاء أهل النار

وقال أيضاً

ما أعجب البرق إذا أضاء * فضاء ناراً وفاض ماء
كأنه مهجتي تلظت * فأسبلت عبرتي دماء

وقال أيضاً

وغرامي هو العذاب وما فا * ضت دموعي إلا حميماً آن
ودماءً شقت سماء خدودي * فغدت وهي وردة كالدهان

وقال الارجاني وأحسن

خدّها يصبغ الدموع ودمعي * يصبغ الخد قانياً بالدماء
فترى العين في بها صفحة الخد * سواء وما هما بسواء

وقال البدر يوسف الذهبي

ودمع العين صب مثل قلبي * وراء ركائب الغيد الحسان
فيالك سائلا ردوه نهراً * تعثر في رداه الأرجواني

وقال مهذب الدين القيسراني

عاينت أدمعها على لباتها * كالعقد من فرط العناق تبددا
وكأن طرفي حين أبكته دما * ألقى الشعاع بخدها فتوردا

وقال شهاب الدين محمود

بالله يا حادي الركائب سحرة * قف بالمطي ولو كنعسة هاجع
لأبث أشواقي وأكتب قصتي * أسفاً بدام من جفوني دامع

وقال أبو الحسين الجزار

مضى لي به عيش بكيت لفقده * وهيهات أن يرتد عيشي اذا مضى
ليال مضت بيضاً وحمر أدمعي * يعيد عليها أسود العين أبيضا

وقال مهذب الدين القيسراني



تذاكرني الهوى وقد احتكمنا * أقمت بعبرتيّ شهادتين
ومن هذا بكيت دماً ودمعاً * لتنطق عبرتي بعبارتين

وقال عفيف الدين التلمساني

نخرت بحسن النظم فيه فقال لي * تعلمته من نظم ثغري وعقده
ولما رأى دمعي دماً ظن خده * تراءى لدمعي فاكتسى لون ورده

وقال شهاب الدين محمود

تريه أوهامه بان النقا فإذا * أفاق لم ير إلا الوجد والأسفا
وينثني دامي الاجفان ملتهباً * بوجده دائم الاشجان ملتهفاً

وقال السراج الورّاق

دع مقلتي للدمع والأرق الذي * كم هيّجته حمامة ورقاء
أبكي ليالي حاجرٍ بمحاجرٍ * بهوى العقيق دموعهن دماء

وقال يرثي الرشيد العطار المحدث

دمعي على الشيخ الرشيد مرسل * وحزن قلبي أبداً مسلسل
بكى دماً جفني القريح بعده * لو بالجريح يقتدي المعدّل

وقال علم الدين القمني

قالوا بكيت على العذيب كأنه * وبكيت في نجد دما متحدّراً
فأجبت أشهب أدمعي من بعدكم * لم يجر في خدي فسقت الاحمرا

وقلت أنا في ذلك

أملت أن تتعطفوا بوصالكم * فرأيت من هجرانكم ما لا يرى
وعلمت أن بعادكم لابد أن * يجري له دمعي دماً وكذا جري

وقلت أيضاً

أما ترني لجسم عاد رثا * وناح له الحمام جوى وأرثى
وترحم ذا دموع فيك أضحت * تحث على البكاء دماً وتحثي

وقلت أيضاً

قال وقد أبصر دمعي دماً * هذا وما وعتك بالبين
فقلت لما فنيت أدمعي * بكيت بالدمع بلا عين

وقلت أيضاً

إذا اسودّ قلبي فيك من نار حرقة * فما تغسل الاجفان مني سوى خدي
وقد صرت أبكي كل شيء بمثله * لأني فرد في الصبابة والوجد
فثغرك أبكيه بأبيض أدمعي * وأحمرها أبكي بها خدك الوردي

وقلت أيضاً

جرحت قلبي فأجريت الدموع دماً * ففيض دمعي من تلك الجراحات
وراح دمعي يجاري فيك نطقي فى * فالشأن في عبراتي والعبارات

﴿ الباب العاشر ﴾

(في أنه عقيق أو مرجان)

قال بعض الشعراء

قلت للظاعن المجدّ بليل * وقد اعتدّ للفراق الفريق
يامنادي الفراق أرخصت دمعي * قال لي هكذا يباع العقيق

وقال ابن نفاذه

وكان دمعي لؤلؤا وقد جري * منه وقد جازوا عقيقاً أحمراً
وغادروا في كبدي ناراً سى * وفي جفوني غدرٌ مذ غدرا

قلت أيضاً

وناحل الخصر عقد البند منه على * أوهي وأضعف من تعليل نحويّ
أحوى تبدّد مرجان الدموع على * خدى بمنظوم ثغر منه دريّ

الاول مأخوذ من قول ابن فارس اللغوى

مرت بنا هيفاء مجدولة * تركيّة تعزى لتركيّ
ترنو بطرف فاتن فاتر * أضعف من حجة نحويّ

وقال ابن الساعاتي

متلوّن الاخلاق غادر أدمعي * بالصد والهجران ذا ألوان
أخفى الجمان فظن عيني فاقة * ثم استجم فعاد بالمرجان

وقال ابن مطروح

ذكر الحمى فصبا وكان قد ارعوي * صبّ على عرش الغرام قد استوى
تجرى مدامعه ويخفق قلبه * فهو العقيق على الحقيقة واللوى

وقال ابن قلاقس

قال السلام على من لو مررت به * أهدي السلام له يقظان ما سلما
واهتز كالغصن المياد فانتثرت * مدامعي حوله العناب والعنما

وقال النصير الحمامي

واعجبا من عاذلي في الهوى * لم تنهه وعّاظ أجفاني
وطرفيَ البكاء مما رأي * يوم النوى والدمع مرجاني

وقال السراج الوراق

لست أنسى ساعة البين وقد * وجم الشائق منا والمشوق
ورجوعي بدموعي عاثراً * لست أدرى بعدهم أين الطريق
وعلى الأكوار منهم قمر * ليس للاقمار إن لاح شروق
كلما أم العقيق امتزجت * أدمعي فهي جمان وعقيق

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر

ذو لحاظ تغار منه المواضى * كم على مهجتي لها من غاره
من عيوني تبدى المدامع بيضاً * ثم حمراً لأنها سحّاره

وقلت أنا في ذلك

قد كان دمعي أبيضاً حتى إذا * رحلوا غدا للهجر أحمر قاني
تجري بمجرى وجنتي فيمتلى الـ * مرجان من عيني بالمرجان

❁ الباب الحادى عشر ❁

في الاعتذر لبياضه

قال البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي

قالوا تباكى بالدموع وما بكى * بدم على عيش تصرم وانقضى
فأجبتهم هو من دمي لكنه * لما تصعد صار يقطر أبيضاً

وقال أيضاً

وأنكر صحبي كون دمعي أبيضاً * أيخفى عليهم شأنه كلما بدا
وما كان إلا من دم القلب أحمراً * فقطرته فابيض لما تصعدا

وقال آخر

تعجبوا من أدمعي إذ غدت * بيضاً وكانت من دم قاني
لا تعجبوا طرفي رب الهوى * فكل يوم هو في شان

وقال آخر

تظنون ما تذرى جفوني إذ غدت * على الدم منها يستحيل فيقطر
تعيد بياضا حمرة الدمع لوعتي * كما بيض ماء الورد والورد أحمر

وقال أبو حفص عمر المطوعي

قالت عهدتك تبكي * دما حذار التنائي
فما لعينيك جاءت * بعد الدماء بماء
فقلت ماذاك عندي * لسلوة وعزاء
لكن دموعي شابت * لطول عمر البكاء

وقلت أنا في ذلك

مذ قال ما لدمع هذا أبيضاً * أجبت يا من قد جفا وأعرضا
أليس أن الدمع ملح طعمه * ولا يكون الملح الا أبيضا

❁ الباب الثاني عشر ❁

في أنه نجوم

قال أبو الحسن بن أبي القاسم الكاشاني

عيناي مذ شط المزار بكم * تحكى سما والدمع أنجمها
فإن في وجنتي أبالسة * تسترق السمع فهي ترجمها

وقال آخر

جنت فموّذني بكتبك إذ لي * شياطين شوق لاتفارق مضجعي
إذا سرقت أسرار جفني تمرّدا * بعثت اليها في الدجي شهب أدمعي

وقال ابن الساعاتي

أكفكف غرب الدمع والدمع جاهل * وأستنجد السلوان وهو حليم
إذا ما ارتقى شيطان عذل محاولا * سماوات دمعي فالدموع رجوم

قلت استعمال الشيطان هنا أتم وأكمل مما تقدم وإضافته إلى العذله أمر مناسب وقال بن سناء الملك

لاغرو لما غاب شمس الضحى * أن يطلع الجفن دموعي نجوم

لفظت ما الدمع نجوم به * لكنه در بحار الهموم

وما أحسن قوله در بحار الهموم ولكن إضافة الدر الى بحر الهموم غير مناسبة لان الدر شيء نفيس عزيز يورث النفس بسطة وبهجة والقلب تفريحاً والهم شيء يظلم النفس ويكمدها ويكدر القلب فبينهما هذا التناقض وعلى كل حال فهو تخيل غريب

وقال أيضاً

ليس الادمعي الذي من رأى جفني رآه كأن دمعيَّ هدبي
أنجم الدمع لاتغيب شروقا * مع أني رأيتها في الغرب

أخذه محمد بن غربي فقال

بكيت بدمع يخجل الغيث سكبه * ليالينا بين المصلى إلى جمع
وقالوا بأن الشرق للشهب مطالع * فلم طلعت من غربها أنجم الدمع

وقال أيضاً

على الصب أن يخفي الصبابة جهده * إذا لم يخنه في الهوى المدمع السكب
أليس الى مرآهم الطرف ظامئاً * وقد رويت من فيض أدمعه الترب
نجوم دموع أشرقت من غروبها * أ بصرت شهباً من مطالعها الغرب

وقلت أنا في ذلك

ولي شياطين سلوى * لها الدموع رجوم
وما تعشقت بدراً * إلا ودمعي نجوم

وقلت أنا أيضاً من قصيدة

نفس خناق الوجد عنك بعبرة * فالخد إن لم تبقه لم تبقه
إن الدموع هي النجوم حضيضها * بين الجفون وأوجها في الاوجه

الباب الثالث عشر

في أنه لؤلؤ

قال الأرجاني

لم يسأروا في كأس دمعي فضلة * عنكم فأجعلها نصيب الاربع
هو ذلك الدر الذي ألقيتمو * في مسمعي ألقيته من أدمعي

يشبه قول محمود الخوارزمي صاحب الكشاف يرثي شيخه أبا نصر

وقائلة ماهذه الدرر التي * تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذي كان قد حشى * أبا مضر أذني تساقط من عيني

والارجاني وصاحب الكشاف رحمهما الله تعالى كانا متعاصرين لأن الأرجاني توفي سنة أربعة وأربعين وخمسمائة وصاحب الكشاف توفي سنة ثماني وثلاثين وخمسمائة فما تحكم لأحدهما أنه أخذ المعنى من الآخر • نعم إن الارجاني أقعد منه بالشعر وتخيل المعاني وليس أحدهما بصاحب المعنى لان أبا العلا المعري توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة وقد قال

وألقين لي درّاً فلما عددته * غني مسحته شقوة الخد أدمعي

وقال أيضاً

شموس أتت مثل الاهلة موهناً * فقامت تراعي بين حسري وطلع

وقال الارجاني أيضاً

أجري دموعي وحتى اليوم مارقأت * وبالذي سر قلبي الإلف حدثني
كأنما خرقت كف الوداع إلى * عيني طريقاً لذاك الدر من أذني

وأخذه ابن سناء الملك فقال

وانفقت من سر المدامع للأسى * كنوزاً لهذا اليوم كنت ادخرتها
وسلت على خدي من لوعة الهوى * سيول دموع خضتها ثم عمتها
لآلئ دمع من لآلئ ثغرها * ففي وقت لثمي كنت منها سرقتها

ومثله قول الرشيد النابلسي

إذا ذكر الخد المورد فرقت * مدامعه في الخد دمعاً موردا
تعاق ذاك الثغر دراً منظماً * تساقط من جفنيه دراً مبددا

وقال ابن نفاذه

ناعمة أطرافها بديعة * أوصافها لحسنها البدر سجد
عانقتها فحلت در عقدها * في نحرها يوم النوى دمعي جمد

وقال ابن قلاقس

رفعوا ذيول النجم عن أجفانهم * واستنشطوا لحظاً عليه غيورا
وتعطلوا لولا عقود مدامع * حلت فحلت بالجمان نحورا

وقال ابن سناء الملك

وغدت مودعة فقلبي يلتظي * حتى تعود ومقلة تستعبر
وكأنها تركت بخدي عقدها * ليكون تذكرة بها يتذكر

وقال أبو الحسين الجزار

نقلت لقلبي ما بجفنك من كسر * وعلمت جسمي بالضني دقة الخصر
وغادرت دمعي فوق خدي كأنه * ثناياك لما لحت مبتسم الثغر

وقال الميكالي

صد الحبيب بوجهه * فجفا رقادي إذ صدف
فنثرت لؤلؤ أدمع * أضحى كدر في صدف

وقال السراج الوراق من أبيات

أبصرت من كل الشقائق خدها * فأرتك منه الحاسد المتلونا
فضحت مباسمها العقود وحكمت * دمعي فقال ومن يحاكيني أنا

وقلت انا في ذلك

يامن رنا وانثني لما بصرت به * فالسيف والرمح مهزوز ومسلول
إن كان خدك ياقوتاً يشف سني * ففي سلوك جفوني أدمعي لولو



﴿ الباب الرابع عشر ﴾

في انه زهر

قال ابن قلاقس السكندري

لا والذي لو أحالهم خبراً * إخال أعضاه له أذنا
مانثر الشوق دمعه زهراً * إلا وقد هز قلبه غصناً

الاول مأخوذ من قول ابن كشاجم

جاءت بوجه كأنه قمر * على قوام كأنه غصن
غنت فلم يبق في جارحة * إلا تمنت بأنها أذن

وقال الوليد بن الحسان

نزلوا حديقة مهجتي أو ماتري * أغصان أهدابي بدمعي تزهر

وقال مهذب بن الزبير

وما الدمع يوم البين الا لآلئ * على الرسم في رسم الديار نثرناها
وما أطلع الزهر الربيع وإنما * رأى الدمع أجياد الغصون فحلاها

وقال ابن الفارض

ياسقى الله عقيقاً باللوى * ورعى ثم فريقاً من لؤي
وأويقات بواد سلفت * فيه كانت راحتي في راحتي

معهد من عهد أجفاني على * جيده من عقد أزهار حليّ

وقلت أنا في ذلك

أيا عجبا لاحشاء حريقه * وأجفاني بما دمعي غريقه

ولي حدق ولكن فيك صارت * بأزهار المدامع لي حديقه

وقلت أيضاً

أيها الجيرة الذين تناءوا * وسقوني الوصال حلوا ومرا

حدقي فيكم حدائق أضحت * قضبها الهدب والمدامع زهراً

﴿ الباب الخامس عشر ﴾

في ادعاء شربه

قال ابن التعاويذي

بات يجلو عليّ روضة حسن * بت فيها مابين روض ورآس

أمزج الكاس من جناه وكم ليـ.........لة صد مزجت بالدمع كاسي

وقال مهيار الديلمي

أذكرونا مثل ذكرانا لكم * رب ذكرى قرّبت من نزحا

وارحموا صبا إذا غنى بكم * شرب الدمع وعاف القدحا

وقال ايضاً

أدر يانديمي كاس المدام * فكاسي من بعدهم أدمعي

وإن كان خدك فيه الثلاث * فإني لاشرب بالاربع

وقال الشريف الرضى

وتركتني ظمآن أشرب أدمعي * أسفاً على ذاك اللمي الممنوع

قلبي وطرفي منك هذا في حمي * قيظ وهذا في رياض ربيع

ابكي ويبسم والدجى مابيننا * حتي أضا بثغره ودموعى

وقال ايضاً

بات يعاطيني جنى ظَلمه * وبت ظمآن ولم انقع

عاقرني يشرب من مهجتى * ريا ويسقينيَ من أدمعى

وقال الشريف البياضى

ألفت الضنى لما تطاول مكثه * فلو زال عن جسمي بكته الجوارح

ولذّ سهاد الليل عندى وإنه * لمرٌّ وطاب الدمع لى وهو مالح

قلت لايقال مالح الا في لغة رديئة والفصيح مانطق به القرآن العظيم في قوله تعالى « وهذا ملح اجاج »

وقال البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي

فسرت ولى من قاني الدمع قهوة * أشعشعها صرفاً علي نغمة الحدا

وقد كان دمعي فائضاً يوم بينهم * فقد غار لما أن راي الركب أنجدا

وقال الصاحب جمال الدين بن مطروح

أن فاض سيل فقل أجفانه ذرفت * أولاح برق فقل قلب له خفقا

وكم شرقت بدمعى عند ذكركمو * من يشرب الدمع معذور إذا شرقا

ولما سمع بعضهم قول أبي تمام

لاتسقني ماء الملام فانني * صب قد استعذبت ماء بكائى

جهز اليه كوزا وقال ابعث لى قليلا من ماء الملام فقال ابو تمام حتي تبعث لى بريشة من جناح الذل وما ظلم من جهز اليه الكوز فانه استعار قبيحا وأسوأ من ذلك أنه مثله بجناح لذل واستعارة الخفض والجناح للذل في غاية الحسن وقال ابو بكر الخوارزمى

وعذبتني في الحب لابل رحمتنى * بتعريفيَ الدهر الخؤون المختالا

وما فيك ع غير أني ربما * مزجت حمياً الكاس بالدمع هاطلا
وإن مزاجاً فيه بعض اقام * عليّ بأعلى السفر لو كنت عاقلا
لعمري لئن حاولت ربحاً على الهوى * لقد رمت شيئاً يعجز المتناولا

وقال الشهاب محمود

ما اشمس الانس عندي بعدما * غربت أقماركم من مطلع
لا ولالى في حياتي بعد أن * يتمادي بي النوى من مطمع
مطربي وجدي وأنسي ذكركم * وهو راحي وكؤوسي أدمعي

وقلت انا في ذلك

عادني الحب حليف الجوى * وطار نومي وفؤادي معاً
أشرب من دمعي على أنني * وياظما من يشرب الأدمعا

﴿ الباب السادس عشر ﴾

(فى انه ملح اجاج)

قال مهيار الديلمي

مذ أرقص البين المشتّ ركاب من * أهوي وغنت للفراق حداته
قبلت مبسمه بدمعي فالتقى * عند الوداع إجاجه وفراته

وقال أيضاً

حمى الله عينا من قذاها على الحمى * تجفّ ضروع المزن وهي حلوب
إذا قلت أفنى البرق جمه ماءها * براها مرور الريح وهي جنوب
وما خلت قبلي أن عيناً ركية * ولا أن ملح الماقيين شروب

وقال ابن المعلم

كالغيث دمعي ولكن طعم مشربه * ملح وطعم مذاق الغيث سلسال

وكالهوي زفرتي لكن لنسمته * برد ومن زفرتي حر وإشعال

﴿ الباب السابع عشر ﴾

(فى جريه على الخدود وترقرقه)

قال ابن النبيه

تزرع عيناي على خده * ورداً ولا أجني الذي أزرع
جنت به عيني فانسانها * مسلسل أعلاله الأدمع

وقال ايضاً

وسنان حوري الصفات كأنه * ملّ الجنان ففرّ من رضوان
جنت بمنظره البديع عيوننا * فتسلسلت بمدامع الاجفان

وقال ايضاً

ضل الكري عن جفون مقلته * فدمعه عنه لم يزل سائل
ما سح في الخد طرّ أدمعه * إلا وأضحى خصيبه ماحل

وقال ايضاً

كاتب قده إلي الخط يعزي * بارع فى فنونه لا يبارى
خدمته روحي فأطلق لي من * ناظر الدمع جاريا مدراراً

وقال ابن الساعاتي

من كان يشكو من قساوة قلبها * فشكيتي ما رق من وجناتها
وشكت دموعي المطلقات فوقعت * بجفونها تجرى على عاداتها

ومن هنا أخذ بعض المتأخرين قوله

لقد طالعت من أهوى بحالي * فوقع لي على ما كان يجري
وأطلق جاريا لي دمع عيني * فأصبح راتباً لي مستمراً

وقال ابن النقيب

كم رفع الدمع له قصة * يذكر فيها بعض إنهائه
فوقع العشق على ظهرها * يجري على عادة إجرائه

وقال ايضاً

وكانت جهاتي فضة بوصالكم * فغيرتمو ماكان منها مقرراً
ورتبتمو من أدمعي لي جاريا * وأطلقتموه جاريا متوفراً

وقال آخر

وقع لي لما رأى قصتي * أشكو لهيب النار من وجنته
غرامه يبقى على حاله * ودمعه يجري على عادته

قلت وهذان البيتان مع لطفهما وظرف تركيبهما فيهما من عيوب القافية السناد وهو أن يكون أحد البيتين مؤسساً والاخر غير مؤسس والتأسيس هنا حرف الالف. والدال يسمى حرف الدخيل كأن هذا الحرف دخل بين حرف التأسيس وحرف الروي وقال عبدالظاهر

قل لعيني طيف إلفك ساري * فتباهى له ولو بعواري
فهمت لقربه وتهادت * من دموع إليه بين جواري
يتسابقن خدمة فتراهنّ لديها كالدرّ اوكالدراري

وقال ابن التلمساني

أفدي عُرُباً بوادي الجرع * ياوحشة ناظري لهم في الربع
لما بخلوا عندي في فرقتنا * انشأت لهم مسائلا من دمعي

قلت مسائل هنا أحد معنيها هو موضع مسيل الماء ويجمع على مسيل بضم الميم وسكون السين شبهوه بفعيل كما قالوا رغيف ورغف وارغفة ورغفان ومسيل هو أيضاً مفعل لانه من سال ومفعل لايجمع

على ذلك ولكن شبهوه بفعيل وقال القاضي الفاضل

أشكو إليك جفوناً أعينها أبداً * عين تترجم عن نيران أحشائي
كأن إنسانها وافي بمعجزة * فكان من أدمعي يمشي على الماء

وقال شهاب الدين ابن التلعفري

أءخا الغزالة والغزال ملاحة * وصباحة هاقد بقيت كما ترى
كم ذا انتباله في الهوى عن حالتي * دمعي يفيض وانت تسأل ماجرى

وقال أيضاً

ولكم لهوت بمن بكى في منزل * حتى بكيت منازلا وربوعا
بمدامع لو أن جعفرها له * فضل لانبت في الخدود ربيعا

وقال علاء الدين الوداعي

لي من الطرف كاتب يكتب الشو * ق إليكم إذا الفؤاد أملّه
سلسل الدمع في صحيفة خدي * هل رأيتم مسلسلات ابن مقله

أخذه من قول القائل

سبق الدمع بالمسيل المطايا * إذ نوى من أحب عني رحيله
وأجاد السطور في صفحة الخدّ ولم لا يجيدوهو ابن مقله

وقال عفيف الدين التلمساني

لك ناظر أبداً لحاجبه * يشكو ظلامة ميلة القد
وبعارض لما اعترضت رأى * إطلاق جاري الدمع في نقد

أرسل الصاحب زين الدين الى السراج الوراق هذين البيتين

أهدى له البرق من أحبابه خبراً * فبات ناظره يستعذب السهرا
وحدثته نسيمات الصبا سحراً * فلا تسل عن حديث الدمع كيف جرى

وأمره بالزيادة عليهما فقال بديهاً في جملة أبيات

جاءت مخبرة عنهم معطرة * منهم وطيب شذاها أوضح الخبرا
هيهات أن يجمع المشتاق منذ نأوا * جنباً لمهد ولا جفنا لطيب كرى
يامنزلا بالحمي حييت من وطن * كم بلغتني أيامي به وطرا
لجادك الغيث أنى يوم بينهمو * أفنيت دمعي وقد أوصي به الخبرا

وقال ايضاً

كلف مالدمعه مذ تولوا * وقفة بعد وقفة التوديع
لاتسل عن مسلسل الدمع واسأل * عن فؤاد يوم النوى مصروع

وقال ايضاً

ياغنيّ الحسن دمعي سائل * فتصدق قال لمْ لا تقف
قلت مانعرف ما أوجب ذا * قال قد أسأل عما أعرف

وقال ايضاً يرثي

مافي الرزايا مثلها فأمثلا * وأقول أذكرني الأخير الأولا
ولقد أجن إذا ذكرت مصابه * فأريك دمعي في الخدود مسلسلا

وقال ايضاً

ان أحال الثرى محاسنك الغرّ وأبلى فعز من لا يحول
ماجرى اليوم من دموعي على خدّي قليلا وذا عليك قليل

وقال تقي الدين السروجي

أيا بدر تم حان منه طلوعه * ويا غصن بان آن أن تتعطفا
كفى ماجرى من دمع عيني بالبكا * وعشقي على قلبي جرى منه ماكفى
تقدم شوقي يسبق الدمع جارياً * اليك ولكن عنك صبري تخلفاً

وقال جلال الدين القوصي

أقول ودمع عيني ليس يرقا * ولي من عبرتي إحدي الوسائل

حرمت الطيف منك بفيض دمعي * فطرفي منك محروم وسائل

وقال آخر وأحسن

وحياة طلعتك التي يا بدر قد * بخلت على عشاقها بطلوع
ماالسائل المحروم إلا دمعي الـ * مبذول في إحسانك الممنوع

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب

رميت بمهجتي جمرات شوق * ولم تأخذك بالمشتاق رأفه
فهرول دمع عيني فوق خدي * وما حصلت له مع ذاك وقفه

وقال البهاء زهير

رويدك قد أفنيت يابين أدمعي * وحسبك قد أحرقت ياشوق أضلعي
إلى كم أقاسي لوعة بعد لوعة * وحتى متى يابين أنت معي معي
وقالوا علمنا ماجري منك بعدنا * فقلت ظلمتم ماجري غير أدمعي

وقال شهاب الدين محمود

تناديتمو عند الأصائل بالسرى * سحيراً فلبّاكم على عجل قلبي
وخلفتمو المضني على وصف دمعه * غراما فقل ماشئت في الصب والصب

وقلت أنا في ذلك

إن لم تصدقني تصدق بالكري * ليزورني فيه الخيال الزائل
وانظر إلى فقري لوصلك واغتنم * أجري وقل للدمع قف ياسائل

وقلت من أبيات

إنّ عيني مذ غاب شخصك عنها * يأمر السهد في كراها وينهى
بدموع كأنهن الغوادي * لاتسل ماجرى على الخد منها

وقلت أيضاً

قولوا لاقمار بخلـن على المعنّى بالطلوع

ماجنّ ليلى بعدكم * الا تسلسل بالدموع

وقلت أيضاً

وحق الهوي ماحلت عن سنن الوفا * ولم ينقلب مني الى سلوة قلب
وما انا غر بالصبابة والهوي * فأنكر دمعي سائلا واناصبه

وقلت ايضاً

تجلت محياها وخافت رقيبها * فأرخت عليها من ذوائبها سجفاً
محياً رآه الصب للحسن جامعاً * فأجري عليه من مدامعه وقفا

وقلت أيضاً

قدأذاب الفؤادبالوجدحتي * رق ممابه العدى والأسي له
وكأنى به تخيل دمعى * أنه قد أساله فأساله

وقلت أيضاً

لئن سمح الدهر البخيل بقربكم * وسكن منا أنفساً وخواطرا
جعلنا ابتذال النفس شكران قربكم * وقفنا لدمع العين يعمل ماجرى

وقلت أيضاً

والطرف ماخاط لى جفناً على وسن * وإن أغمّض فهدب العين كالابر
وأدمعي لو رأوها في تدفقها * تحققوا ماجرى منها على بصرى

وقلت أيضاً

قد قلت لما قيل دمعك هكذا * يجرى ولم تظفر بوصف يؤثر
دمع يكون على المحاجر سعيه * بالله قل لى كيف لايتغير

وقلت أيضاً

أشكو إليك محاجراً * قد قاطعت سنة الكرى
ومدامعا أطلقتها * وغفلت عما قد جرى

وقلت ايضاً

أمير حسن خطا والرمح فى يده * فهزّ في قتله العشاق رمحين
أقطعته مهجتي فازور من غضب * وقال زدني البكا نقداً من العين

وقلت أيضاً

أسكنت شخصك طرفى * حتى أواري أواري
فحين جاورت دمعي * جعلت جارك جارى

وقلت أيضاً

لى أضلع تحني على جمر الغضا * وما الشرار غير قلبي الطائر
ومقلة تغيرت دموعها * لانها تجرى على محاجرى

وقلت أيضاً

رفعت له في شرح حاليَ قصة * وقد كتبت عيني على طرسها سطرا
فلما رآها قال لى وهو ضاحك * متى كنت يامسكين من جملة الأسرى
وأوصى بجسمى أن تعفّى رسومه * فقلت له دمعي فوقع أن يجرى

الباب الثامن عشر

في مباكاة الحمام

قال ابن المعلم

وصادحة في الأيك كم أججت لها * لظي طالما أذكته في قلبه الورق
بكت طرباً فانصاع يبكي تشوقاً * فدمعتها زور ودمعته حق
زرى الآن ياورقاء نوحك إنما البكاء لمن من دمعه يخجل الودق

وقال محمد بن عبد الملك من شعراء تحفة القادم

جلت عن ثناياها فأومض بارق * فأضواء ماشق الدجنة منهما

وساعدني جفن الغمام على البكا * فلم أدر وجداً أينا كان أسحما

وقال ابو بكر بن زيد الكاتب

قد طارحته حمام الأيك نغمتها * حرفاً بحرف فيحكيها وتحكيه

وساجلت عبرات السحب عبرته * إذا يفيض فيبكيها وتبكيه

وقال ابن المعتز

وبكيت من طرب الحمائم غدوة * يدعو الهديل وما وجدت سميعا

ساعدتهن بنوحة وتفجع * وغلبتهن تنفساً ودموعا

وقال السراج الوراق

ألا قاتل الله الحمامة إنها * اذابت فؤاد الصب لما تغنت

أطارحها شكوى الغرام وبثه * فما صدحت الا أجبت بأنتي

كلانا بكى شوقاً ومعتبر الهوى * يفضلني عنها بفائض عبرتي

وان قيل لا يبلى على الدهر طوقها * كذلك لا تبلى عهود أحبتي

وقال أيضاً

أفنى حمام الواديين مدامعي * حتى غدا بدمي خضيب بناني

ومواثق الأحباب في أعناقه * ثبتت خلاف مواثق الخوان

هذا وما عاني هواي ولا له * دمعي الطليق ولا فؤادي العاني

وقال أيضاً

ما كان يخفى وميض البرق مبتسما * ولا الحيا في انسكاب الدمع يحكيني

هيفاء تستنطق الورقاء قامتها * فلم تزل بين تحنان وتحنين

ولي حنين إليها كلما هتفت * وطالما حن محزون لمحزون

ما كان دمعك ياورقاء محتبساً * لو بات يبكيك وجدا بات يبكيني

﴿ الباب التاسع عشر ﴾

﴿ في سقي الديار به والمنازل ﴾

وقال ابن المعلم

ولقد زجرت الدمع عن تسكابه * فيه فقال وقد أحب خلافي

دعني أروّى الربع بعد رحيلهم * فأحق سكبي في محل عافي

وقال أيضاً

بكيت وهل رأيتم طللا * قبل وقوفي فيه يبكي طللا

عليّ أن أمطره دمعي وما * عليّ أن جاد الحيا أو بخلا

وقال مجد الدين بن منقذ

يادمع أنجدني فهذي دارهم * ولها ادّخرتك والذخائر تنفع

وأولى حق منازل الاحباب أن * يسجى بها قلب وتسفح أدمع

وقال ابن الساعاتي

قف معي وقفة الشجي فإن لا * ملك خلّ فاجمل عليّ الإحاله

في سبيل الغرام يامنزل الحيّ تولى مدامعي الهطاله

كفل الدمع ريّ سفحك والدمع مليّ بعد النوى بالكفاله

وقال الأرجاني

رميت محيا دارهم عن صبابة * بسائحة الاجفان سافحة القرب

أروّى بها خدّى وفي القلب غلة * وقد يتخطى الغيث أمكنة الجدب

وقال آخر

نزلوا جبال تهامة فلأجلهم * يهوى الفؤاد تهامة وجبالها

ياصاحبيّ قفا عليّ بقدرما * أسقي بوابل عبرتي أطلالها

وقال السراج الوراق

مهماجرى ذكرالخدودفإن لي * جريان دمع كالخدود مورَّد
خق المنازل حق من كانوا بها * فانقع بدمعك غلة الرسم الصدي

وقال أيضاً

بكى بعدكم ربعاً أجاد مصيفه * بماسح من سحب الجفون ربيعا
وإنَّ قصاري كل صب بكاؤه * منازل من اهلي خلت وربوعا
بكت دماً دون العقيق جفوننا * دما وبكاها العاشقون دموعا

وقال ايضاً

لي لا لدمعي وقفة في المنزل * عنها التجلد والسلو بمعزل
ولأدمعي والغيث في عرصاتها * شوطان للوسمي فيها والولى
وعليَّ أن أعطي المنازل حقها * حفظاً لعهد الظاعن المتحمل

قال شهاب الدين محمود

هل يعلم الناؤون في طلب الحيا * أن الدموع وفت بري ديارهم
أو أيقن السارى بأن حداتهم * جعلت دموعي في رؤوس قطارهم

استعمال القطار هنا في غاية الحسن وكذلك استعمله البدر يوسف الذهبي فقال

كم رفعت للعين يوم رحيلهم * كلل غدت بمنطق ومكلّل
ولكم سبقت حداتهم بمدامعي * حتي جعلت قطارها في الاول

وقال شرف الدين ابن الفارض

إن ينقضى وجدى فليس بمنقض * وجدى القديم بكم ولا برحائي
ولئن جفا الوسمي ماحل تربكم * فمدامعي تربو على الأنواء

الباب العشرون

في كثرته وجود العين به

وقال ابن سناء الملك

وشاربة خمر الدلال فدهرها * يفى عليها حليها وهي تشرب
أخوض دموعي وهي تضحك غفلة * وإني وإياها نخوض ونلعب

قال ابن التعاويذي

عليل الشوق فيك متي يصح * وسكران بحبك كيف يصحو
وبين القلب والسلوان حرب * وبين الجفن والعبرات صلح
ولما فل جيش الشوق صبري * وغادر در دمعي وهو سفح
ولم أملك إلى الشكوى سبيلا * كتبت اليك والعبرات تمحو

وهذا يتضمن معنى قول الباخرزى

كتبت إليك والعبرات تمحو * كتابي بالأنين وبالزفير
ويشهد لي على مافي ضميرى * سطور الدمع مابين السطور

وقال ابن قزل

أما الرقاد فلست أعرف طعمه * ماحال طرف خانه طعم الكرى
وسألت دمعي أن يزيد فقال لي * ياظالماً أوما كفى ماقد جري

وقال أيضاً

أخفاه قلبي غيرة أن لايرى * في غيره وحنى عليه أضلعي
لم أنسه يوماً فأجري ذكره * ولطالما ذكراه أجرت أدمعي

وقال ايضاً

ياجيرة الحي من جرعاء كاظمة * طرفي لبعدكمو ما التذ بالنظر
لاتسألوا عن حديث الدمع كيف جرى * فقد كفى ماجرى منه على بصرى

وقال الأرجاني

رأيت أعجب من قلبي وعادته * إذا الكرى خاط أجفاناً بأجفان
يظل يطلق أسري الدمع من كرم * في وجنتي وهو في أسر الهوى عاني

وقال ابن رشيق

كنا وكان لنا زمان صالح * لكنها الايام ذات تقلب
ما أكرم العبرات معلوم المدى * إذ ليس تحوجني إلى قول اسكبي

وقال مهيار الديلمي

وما أربي إلى سقي ربوع * لها من مقلتي سار وغاد
حملت يد السحاب الجون فيها * ولست معوّداً حمل الايادي
فلو بكت السماء لها وجفني * تبينت البخيل من الجواد

وقال أيضاً

تعيب على الشيب خنساء اذ رأت * تطلع ضوء الفجر تحت هزيع
وما شبت لكن ضاع مما بكيتكم * سواد عذاري في بياض دموعي

وقال أيضاً

بعداً ليومك في الزمان فانه * أقذى العيون وفتت الاكبادا
لاينفد الدمع الذي يبكى به * إن الملوب له من الامداد

وقال ابن صردر

مامر ذو شجن يكتمه * إلا أقول متيم مثلي
فضلت دموعي عن مدي حزني * فبكيت من قتل الهوي قبلي

وقال البدر يوسف الذهبي

تولى وعاد ولي مدمع * إذا ماسألت الحمى عنه سالا
نخل تخلى وعصر خلا * وخل تولى وعصر توالى

وقال الشريف البياضي

إن في طرفي دموعا جمة * جاز في الجود بها حد السرف
فاذا أنفقتها في فرقة * عجل الشوق عليها بالخلف

وقال علاء الدين الوداعي

مثلي وقد فارقت صورة يوسف * وهو العزيز على الذليل الوامق
أبكيه كل جوارحي فكأنني * قد عدت مخلوقا بماء دافق

وقال البدر يوسف الذهبي

قلب بعين قد أصيب وعارض * فأعده لي بالدمع ليس براق
ألقى الدموع على الدموع وليتني * أدري بما ألقى بها والاقي

واستعملها محاسن الشواء فقال

ولما أتاني العاذلون عدمتهم * وما فيهمو إلا للحمي قارض
وقد بهتوا لما رأوني شاحبا * وقالوا به عين فقلت وعارض

ولكن أخرج ذلك مخرج القول بالموجب وكساه ديباجة أخرى وقد قابلها البدر يوسف بقوله « فالدمع ليس براقى » فاستويا في طبقة البديع

وقال الارجاني

وأكثر من لمع اليدين مفتحا * لدمعي طريقا طيفهم كان سدّه
مدامع سيل بين أجفان مغرم * إذا حار منها خدد الدمع خده

وقال السراج الوراق

حمي قومها عني طروق خيالها * وهيهات سدّ الدمع من دونها السبلا
وأين الكرى مني وقد ذهبت به * فما تركت ماقل منه وما جلا
جرت أدمعي وبلا غداة وداعها * ومقلتها الوطفاء ماقطرت طلا

قلت ما أحسن ذكر الوطفاء ههنا لانها من صفة الديمة الماطرة دائما يومين

وثلاثة • وقال شهاب الدين محمود

أحبابنا إن كنت بنت فشخصكم * فى ناظري وذكركم فى مسمعي
أوحشتمو طرفي القريح فما له * من بعدكم أنس بغير الأدمع
وعدمت بعدكم المساعد فى الهوى * إلا الحمام فانه يبكى معى

وقال ابن النقيب

لو رأت عين عروة بن حزام * أدمعى عند ما تحل عراها
أقسمت ما الغمام يوما ولا النيـ * ـل لدى الصب جاريا مجراها

وقلت أنا في ذلك

أراد الغمام إذا ماهمي * يعبر عن عبرتي وانتحابي
فجادت دموعي من فيضها * بما لم يكن فى حساب السحاب

وقلت أيضا

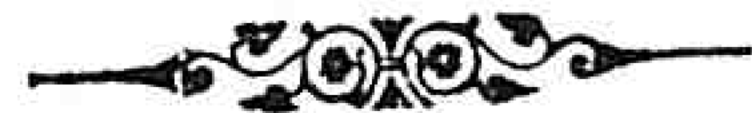
توقد جمر القلب عند تغزلي * فمن أجل هذا قد أتى جيد السبك
فما حفظت عيناي من شؤم بختها * على كثرة الاشعار غير «قفا نبك»

وقلت أيضا

يذوب فؤادي عند رؤية وجهه * وكم ذاب من شمس النهار جليد
ويحيا به وجدى وحزني خالد * كما أن دمع المقلتين يزيد

وقلت أيضا

قلبي لا يروى ولا مقلتي * ترقا فذى عين وهذاك صاد
وكيف يدرى النوم من جفنه * يذري دموعا مالها من نفاد



﴿ الباب الحادى والعشرون ﴾

في أنه كالمطر

قال ابن التعاويذى

وبنفسي الغضبان لا يرضيه غيـ * ـر دمى وما في سفكه من طائل
عانقته أبكى ويبسم ثغره * كالبرق أومض من غمام هاطل

وقال أيضا

فبت وجدا بها أقاسيها * على فؤاد بالشوق منفطر
كدت بنار الغرام أحرقها * لولا دموع تنهل كالمطر

وقال آخر فأحسن

أبصروا دمعي فخافوا * قلت لا تخشوا بكائي
ما عليكم من دموعى * غير أمطار السماء

وقال الارجاني

إن يغش قلبي وطرفي نازلا بهما * فالقلب والطرف كلٌّ منزل القمر
أو يطرق الطيف عيني وهي راقدة * فالبدر في الغيم يسرى وهو ذو مطر

أخذه ابن الساعاتي فقال

وأغن ماضرّ الصبا * لو أنها حملت سلامه
فأغالط الواشى بنشـ * ـر الاقحوانة والنمامه
إن حل طرفي طيفه * فالبدر يسري في غمامه

وقال جحظة البرمكي

ومن طاعتي إياه أمطر ناظري * إذا هو أبدى من ثناياه لى برقا
كأنّ دموعي تبصر الوصل هاربا * فمن أجل ذا تجرى لتدركه سبقا

والاول يشبه قول القائل

جارية طالما خلوت بها * تبصر في ناظري محياها
تبل خدي كلما ابتسمت * من مطر برقه ثناياها

قال بعض المتعصبين هذه كانت تبصق في وجهه وقال التلمساني

هلال في التباعد والتداني * غزال في التلفت والنفور
أعاين من محاسنه ودمعي * طلوع الشمس في اليوم المطير

وقال ابن سناء الملك

زار الحبيب وبدر التم في كمد * باد عليه وغصن البان في قلق
يمشي على خد من أهوى وأدمعه * تجرى فسبحان منجيه من الغرق

وقال أيضاً

إن الذي يضحك من أدمعي * وهي عليه أبداً تسفك
قد صح عندي أنه روضة * والروض من دمع الحيا يضحك

وقال شهاب الدين ابن التلعفري

ما كان قلبي خانني من بعدهم * يوم النوى لو خلفوا قلبي معي
ما كان أخصب أرضهم لو أنها * تسقى اذا ظمئت سحاب أدمعي

وقال سعد الدين محمد ابن عربي

ألا يا أيها الداعي ترفق * فقد آذى أذانك كل سمع
ألم ترني وحبي في اجتماع * فأخر ذا الأذان لأجل جمع
فقال الجمع في مصر حرام * فقلت أما ترى أمطار دمعي

قلت لا يلزم من الجمع تأخير الأذان لمن كان في مصر جامع لأن التأذين إعلام بدخول الوقت للناس وفيهم من لا يجوز له الجمع ففي هذه العبارة تجوز وقال أبو الحسن بن مطرف

إن شبها في طرفي لوعة * بكى لها من طرف مدمع
فهو لقلبي شرر محرق * وهو بجفني ديمة تهمع

أخذه من قول أبي جعفر بن البنا

كأن فؤادي وجفني معاً * هما طرفا غصن أخضر
إذا اضطرم النار في جانب * يقطر من جانب آخر

وفي هذا المعنى المأخوذ زيادة وهي صحة التمثيل من أنواع البديع وقيل

أظهر الكبرياء زهواً وتيهاً * فتلقيته بذل الخضوع
وحباني ربيع خديه بالور * د فأمطرته سحاب دموعي

ومن هنا أخذه شهاب الدين بن دمرطاش فقال

ولقد يقول معانقي وخدوده * تسقى بطل مدامعي وحياها
ما بالها تسقى رياض محاسني * عيناك قلت لأنها ترعاها

قلت فيه الاضمار قبل الذكر اذ التقدير ما بال عينك تسقى بأرض محاسني وكان ينبغي أن يقول لأنهما يرعيانها ولكن يغتفر له ذلك كله لاستعمال ترعاها مورّاة من الرعي والرعاية وقال الحسين بن علي البغوى

وبرقها نار شوقي ريحها نفسي * ورعدها أنتي والقطر فيض دمي
وأرضها صحن خدي وهي ممحلة * أعجب بمحل يرى من صيب الديم

وقلت أنا

ولما بكى طرفي وثغرك ضاحك * تعجب منا عند هذا الخلائق
ولم يرضهم من بعد عيني سحائب * ولم يصبهم من بعد ثغرك بارق

وقلت أيضاً

تبسم اذ بكيت فلام فيه الـ * ـعذول فقلت قد ضيعت نصحك
فلم تر بعد عيني السحب تبكي * ولم أر بعد فيه البرق يضحك

وقلت أيضاً

آهاً من البعد آهاً إن لي كبداً * تضرمت بلظى الاشواق واستعرت
وأدمع إن جرى ذكر الوصال جرت * شؤونها فتخال السحب قد هطلت

الباب الثاني والعشرون

في انه كالنهر

قال البدر يوسف الذهبي

رفقا بصب مغرم * أبكيته صدا وهجرا
وافاك سائل دمعه * فرددته في الحال نهرا

وقال الارجاني

بيضاء لما أن منعت وصالها * وبدت بدوّ البدر وسط سمائه
أترعت في حجري غديرا للبكا * لعسى يلوح خيالها في مائه

وقال سيف الدين المشد

سهرت فيكم جفوني * من غرامي وشجوني
وجرى من عيني الدمـــع كأمثال العيون

عجبت انها تنأى جفا وخيـالها * يلم اذا جـن الدجى ويزور
ولي عند زور الطيف من طيب نشره * ومن فيض دمعي روضة وغدير

وقالت حمدة الوادي آشية

ولما أبي الواشـون الا فراقنا * وما لهمو عندي وعندك من ثار
وشـنوا على أسماعنا كل غارة * وقلّت حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهمو من مقلتيك وأدمعي * ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ومثله قول الارجاني

فلا تعجبوا للسيف والسيل واعجبوا * لاجفانه الوسنا ومقلتي العبرا
وإن بان قمري وانكساري لبينه * فمن قيصر عند اللقاء ومن كسري

وأحسن منه قول القائل

مليك الحسن أحي في المحيا * ملوكا في نعيم وانتعاش
فكسرى في الجفون ووجنتاه * بها النعمان والخال النجاشي

وقال عمارة اليمني

عاهدت دمعي أن يقرّ فخانني * قلب لسائله الهموم قرار
قد كنت أشرق من رذاذ مدامعي * أسفاً فكيف وقد طمى التيّار

وقال شيخ الشيوخ

غرامي فيك لا يحصى * بميزان ولا كيل
وأما دمع أجفاني * فلا تسأل عن السيل

وقال جلال الدين اسماعيل القوني

أقول ومدمعي قد حال بيني * وبين أحبتي يوم العتاب
رددتم سائل الاجفان نهراً * تعثر وهو يجري في الثياب

وقال شهاب الدين محمود

يا بدر في وجه من أشبهت طلعته * لا فيك يحلو لي التعذيب والسهر
يا روضة طالما أمطرتها سحراً * دمعي فأصبح في أرجائها نهرا

وقال ايضاً

أحبابنا إن نأت بي عن دياركمو * داراً وفارقت أوطانا وأوطارا
فإن لي نصب عيني من جمالكمو * روضاً نضيراً ومن عينيّ أنهارا

وقال ايضاً

سخوا بروحي وشحوا بالوداع على * عيني فما زوّدوها منهمو نظرا

ونم قلبي إلى طرفي بما كتموه * عنه فسار على آثارهم وجرى
بانوا فصوّح نبت الروض حين نأوا * هذا وقد خلفوا دمعي به غُدُرا

وقال ايضاً

عن قريب الدار إلا في الكرى * فاعذرا قلبي إذا ما انفطرا
لاتلوماني إذا أجرت لظى * حُرقي من ماء عيني نهرا
فالذي قد راعني اليأس به * يقتضي أكثر مما قد جرى

وقال ابن سناء الملك

عوضني بالبعد عن قربه * ومن رقادي معه بالسهر
انا من ذكراه في جنة * ومن دموعي بعده في نهر

وقلت أنا في ذلك

خذ لطرفي من السهاد أمانه * إن رأيت الحمى فهذا أمانه
ثم قل إن رأيت أحمر دمعي * قد جرى سابقاً يكف عنانه
لاتخل مدمعي وفي لغرامي * إن هذا الوفاء عين الخيانه
راح يجري على صفائر خدي * فهو يحكي نهراً وشاذروانه
قد رأينا الدموع تجري ولكن * ما رأينا السحائب الهتانه

﴿الباب الثالث والعشرون﴾

في انه كالبحر

قال ابن الساعاتي

وما قطع الطيف الزيارة عن قلى * ولكن دمعي لايخاض له شط
فلا تعذلوني في البكاء فلم تزل * لكل هضيم الكشح من أدمعي قسط

وقال ابن قزل

أخضر العارضين بتّ بعينيه * كلما لا أستطيع اصطبارا
من دموع العيون ألقيت في اليم * وآنست من ضلوعي نارا

وقال أيضاً

غرق النوم في بحار دموعي * رحم الله سلوتي وهجوعي
وأتى الطيف زائراً فرآني * بين بحري مدامعي ونجيعي

وقال ابن نفاذه

وفاض دمعي ففاق السحب وابله * شوقاً وأودع جسمي ذكركم وصبا
لو حل نوح بجفني خاف من غرق * أو الخليل بقلبي لاشتكى لهبا

وقال ابن قلاقس

وضيف طيف رده مدمعي * فساقه الفكر إلى خاطري
إن صد نيل الدمع عن سيله * فإنه جاء على الحاجر

وقال القاضي الفاضل

ولقد مررت بدار من أحببته * ليس التي للحب بين ضلوعي
فذكرت سبحي في بحار نداهمو * فوقفت أسبح في بحار دموعي

وقال الوأواء الدمشقي

يامن خلعت عذاري في هواه له * ومن تهتك ستري في محبته
علمت إنسان عيني أن يقوم فقد * جادت سباحته في ماء عبرته

وقال أيضاً مكرراً هذا المعنى

دمع غريب جرى لغربته * أفرده البين من أحبته
إنسان عيني لولا سباحته * مات غريقاً في لج دمعته

وقد أخذه برمته ابن المعتز لانه قال

وجفون عينك قد نثرن من البكا * فوق المدامع لؤلؤاً وعقيقاً

لو لم يكن إنسان عينك سابحاً * في ماء دمعته لمات غريقا

وقال الوأواء الدمشقي

وهاج لي الشوق أسى كامناً * فلم أزل أبكي على كل ميل

فكدت أن أغرق في دمعتي * وأجعل الذنب ليوم الرحيل

وقال الشريف البياضي

توهم إنساني وقد خاض أدمعي * إلى وجه أنْ في السباحة قد حذق

فلما رأى ماء الجمال بخده * وأقبل يبغي العوم في دمعه غرق

وقال جمال الدين بن مطروح

قيّدت قلبي في هوا * ه فخاف دمعي وانطلق

يامن يزاحم أدمعي * أخشى عليك من الغرق

وقال السراج الورّاق

تؤجج جمراً مهجتي دون مقلتي * فما العذر إن لم تتبع الشهب الحمرا

وما لمت دمعاً خاض في لجة الدجى * وخاف بأن يجتاب من أدمعي البحرا

وقال أيضاً

أذبته مني ولي نفس كما * تدريه إن كنت امرءاً مشتاقا

فجرت دموعي خيفة الإحراق من * نفسي إلى أن خافت الإغراقا

وقال أيضاً

قلت للأجفان لو ذقت الكرى * حيلة في الطيف قالت لا أذوق

أين للطيف طريق والكرى * ماله من لجج الدمع طروق

لي قلب في إسار الحب قد * يبتغي من شأنه دمعي الطليق

وقال شهاب الدين محمود

أسروا إلى ليلى سراهم فانجلوا * وبات كطرفي نجمه وهو حيران

كلانا غريق في الدموع وفي الدجى * كأن دموع العين والليل طوفان

وقال ناصر الدين بن النقيب

ليهن أحبابيَ نيل وفى * ومفرد وفيّ به مؤذنا

ما النيل الا أدمعي بعدهم * كلا ولا المفرد إلا أنا

وقال شرف الدين بن الفارض

لله أجفان عين فيك ساهرة * شوقا إليك وقلب بالغرام شجي

وأدمع هملت لولا التنفس من * نار الجوى لم أكد أنجو من اللجج

وقلت أنا في ذلك

ياوحشتا من جيرة مذ نأوا * علوّ قدري في الهوى انحطا

حكت دموعي البحر من بعدهم * لما رأت منزلهم شطا

وقلت أيضاً

أيا وحشتا في ليل شوقي لنوركم * ويا فرحتا لو كان في النوم يطرق

وهيهات لو زار الخيال منعته * مخافة أن تجري دموعي فيغرق

﴿الباب الرابع والعشرون﴾

(في أنه قرّح الجفون وخدد الخدود)

قال مهيار الديلمي

لعلك في الارسال للدمع لائم * وقد عطف الناس المطيّ الجوانحا

نعم قد تخرّجت الدموع عليهمو * عذاباً وأقرحت العيون الصحائحا

وقال آخر

قلبي وطرفي منزلان لأنه * قمر وتلك منازل الأقمار

ياساكناً جفني القريح وليته * يرعى لجاري الدمع حق الجار

وقال شرف الدين بن الفارض

أروح بقلب بالصبابة هائم * وأغدو بطرف بالكآبة هامي

طريح جوى حب جريح جوارح * قريح جفون بالدوام دوامي

وقال شهاب الدين الشاغوري

شؤون دمعي ليس الصبر من شاني * سحى دماً لا تشحي بالدم القاني

فما أرى قادماً الا أراق دماً * بكاي حزناً ففي خدي خدان

وقال شهاب الدين محمود

صريب سبوا نومي فلم تدر مقلتي * كما سلبوا قلبي ولم تشعر الأعضا

وطلقت نومي والجفون حوامل * فمن أجل ذا في الصحو أبقت لها فرضا

وقلت أنا في ذلك

سنت السهاد بمنع الكرى * فأظهرت في حاله بدعتين

وصيرت تكرار دمعي على * خدودي من فوقها فرض عين

وقلت أيضاً

مذ سل سيف الجفن خدت وجنتي * عيني بحمر دموعها والبيض

يا طرفه المسنون كف مدامعي * لك واجب عن خديَ المفروض

وقلت أيضاً

ياغزالا فيه من الغصن ميل * وقضيباً فيه من الظبي نُفره

لك عين سوداء قد جعلت في * صحن خدي من دمع عيني نَقره

﴿الباب الخامس والعشرون﴾

(في أنه أذهب العين)

قال ابن نقاده

خفيت نحولا لا تراني عذلي * فلي ولسري عنهم وفي الهوى كتم

دموع ولا عين سقام ولا حشى * غرام ولا قلب نحول ولا جسم

وقال أيضاً

وناظر كان يجري دمعه دررا * فأذهب العين لما صار مرجانا

ما خلت أن جفوني مجريات دمي * من حيث إن لها بالدمع إدمانا

وقال أيضاً

أجرى دموعي اشتعال النار في كبدي * ولم تكن تتبع الأمواه نيران

لكنه آية نوحية ظهرت * فالقلب تنورها والدمع طوفان

والعين نضضها دمعي وأذهبها * بكاؤها ولآلي الدمع مرجان

وقال ابن سناء الملك

بكى ناظري بالنور من بعد دمعه * عليك وهذا حسبه فيك لا حسبي

ووالله ما وفاك حقك مدمعي * على أنه قد أنبت الأرض بالعشب

وقال أبو تمام الطائي

لست أبكي ذهاب عينيَ عني * غير أني أبكي لئلا أراكا

أخذه من ابن جني النحوي وكان أعور فقد قال

صدودك عني ولا ذنب لي * دليل على نية فاسده

فقد وحياتك مما بكيت * خشيت على عينيَ الواحده

ولولا مخافة أن لا أراك * لما كان في تركها فائده

وقال الباخزري

عجبت من دمعتي وعيني * من قبل بيني وبعد بيني

تبكي بعين بغير دمع * فصار دمعي بغير عين

أخذه الجلال بن صفار فقال

أبكي وتبكي الحمام لكن * شتان ما بينهما وبيني

تبكي بعين بغير دمع * أبكي بدمع بغير عين

﴿ الباب السادس والعشرون ﴾

(في أنه ذوب النفس)

ما أحسن قول أبي الطيب

أدمعي أم هي نفس جرت * وجوى أم هو نار ملهبه

هتكت مني أمارات البكا * ستر أسباب الهوى المحتجبه

وقال أيضاً

سائل شموساً طلعت في الثرى * وضمها مذ غربت مغرب

كم كبد في جسد حرّقت * ومهجة في دمعة تسكب

وقال أيضاً

إذا شاقني تذكار خدّ مورّد * أراقت جفوني دمعهن موردا

فلا تحسبوا ماء دموعي لبينكم * فقلبي بنار الهجر ذاب مصعدا

وقال ابن سناء الملك

أبكي فتجرى مهجتي في عبرتي * فكأنما أجريته أجراني

وتجمّ أنفاسي ولما يجها * دمع هو البحران بل بحران

وقال الوأواء الدمشقي

أري الغيّ رشداً في هواك وإنني * لأقنع بالشكوى الى غير مشتكي

وماذ كرتك النفس إلا تصاعدت * الى العين فانهلت مع الدمع بالبكا

وقال أيضاً

وسماء العيون إذ ذاك تسقي * بسحاب الجفون روض الخدود

وقال الارجاني

تراح بأنفاس إذا ما ذكرتها * وتمطر وجداً بالدموع السواكب

وليس بجار مدمع العين بعدكم * بشيء سوى قلب من الشوق ذائب

وقال السراج الوراق

ولم أنس يوم البين للبين وقفة * أتت دفعة فيها الدموع الهوامع

وفي الكلة الحمراء وسمراء ودّعت * فسالت نفوس أرسلتها المدامع

وقال السراج أيضاً يرثي

فواعجباً من واثق بحياته * وجيش المنايا للرزايا منازله

إذا بلّ من داء به ظن أنه * نجا وبه الداء الذي هو قاتله

ودمعي من جفني بنفسي سائل * على من مضى فليتق الله سائله

وقال شهاب الدين محمود

قد أبى الحظ أن يكون بصدع البين * عود إليه يشعب صدعه

فأنا الآن بين شوق أذاب القلب * مني فصار في العين دمعه

وسهاد رأى الرقاد يريني * طيفهم في الكرى فبادر منعه

وقلت أنا في ذلك

ولما بكت عيني نواك تعلمت * دموع سحاب المزن كيف تصوب

وإن جف دمعي ذاب قلبي أدمعاً * فلله قلب عاد وهو قليب

وقلت أيضاً

ابيضت العين التي قد رأى * سوادها ذا خدك الأحمرا

وذاب قلبي فجرى أدمعاً * تغسل من جفني بقايا الكرى

﴿ الباب السابع والعشرون ﴾

(في طلبه من الرفاق وعاريته للعشاق)

قال مهيار الديلمي

يامعيرا أجفانه أنا أغنى ✽ بجفوني الغزار أن أستعيرا
دمع عيني بالسفح خلّ لدار ✽ لا يرى أهلها دما محظورا

وقال الشريف الرضى

ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ✽ عند بعض الظبي وتلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبـ ✽ ـل أعير الدموع للعشاق

وقال ابن المعلم

أقيموا بها ساعة للبكا ✽ وقلّ لها أن يقيموا سنينا
وإن سمحت بالدموع العيو ✽ ن منكم وإلا استعيروا عيونا

وقال صردر

وعين إلى الأطلال يرجى سحابها ✽ إذا لوعة الاحشاء هبّ زفيرها
أكلفها هطلا على كل منزل ✽ فلو أنها أرض افاضت بحورها
وما تجمع العين التوسم والبكا ✽ فياليت أدري مقلة أستعيرها

وقال عمارة اليمني

بكيت بالدر تيجانا لملك صبا ✽ مضى فدعني أبك التاج بالدرر
منذا يعيرك أجفانا لنوقعها ✽ في قبضة الظالمين الدمع والسهر

وقال العباس ابن الاحنف

نزف البكاء دموع عينك فاستعر ✽ عينا يعينك دمعها المدرار
منذا يعيرك عينه تبكى بها ✽ أرأيت عينا للبكا تعار

وقال

حي كثيب الرمل رمل الحمى ✽ وقف وسلم لي على لعلع
واسمع حديثا قد روته الصبا ✽ يسنده عن بانة الأجرع
وابك فما في العين من فضلة ✽ وتب فدتك النفس عن دامع

وقلت أنا في ذلك

ياصاحبيّ اسعداني بالدموع فقد ✽ انفقت دمعي على ماناابني سرفا
وأوقفاني على تلك الربوع فإن ✽ قضيت قولا قضيت الحق وانصرفا

﴿ الباب الثامن والعشرون ﴾

(في عدمه وجفافه)

قال ابن الخياط

وكنت إذا ما اشتقت عوّلت في البكا ✽ على لجة إنسان عين غريقها
فلم يبق لي من ذلك الحق رشحة ✽ ومن كبدي الحراء إلا خفوقها
فياليتني أبقى لي الهجر عبرة ✽ فأقضى بها حق النوى أو أريقها

وقال ابن حيوس

هو ذاك ربع العامرية فاربع ✽ وأسأل مصيفا عافيا عن مربع
واستسق للدمن الخوالي بالحمى ✽ غر السحائب واعتذر عن أدمعي
فلقد فنين أمام دان هاجر ✽ في قربه ووراء ناء مزمع

وقال السراج الوراق

لما رأت عيني سطو ✽ رك عاودت طيب الهجوع
وغدت مآقيها تقو ✽ ل مع السلامة يادموعي

وقال أيضاً

ولما وقفنا للوداع عشية * تعانق حتى دمع عيني ودمعها
فليت النوى أبقى لدمعي بقية * ليبكي بها من بعد عزة ربعها

وقال شهاب الدين محمود

قاتل الله بريقاً بالحمى * أنفد الادمع واستسقى الغماما
غار من برق الثنايا فسقى * وجنة الصب ولم يسق البشاما

وقلت أنا في ذلك

أقول والدمع قد غاضت جواهره * ولم تلح في سما خدي كواكبه
لو كان غيثاً وجفن العين يسفحه * من بعد بعدك لانجابت سحائبه

﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾

﴿ في الاعتذار عن البكاء ﴾

قال بعض الشعراء

قالوا أرقد مذ غبنا فقلت لهم * نعم وأشفق من دمعي على بصري
ماحق طرف هداني نحو حسنكمو * أني أعذبه بالدمع والسهر

وقال الارجاني

سأضمر في الاحشاء عنكم تحرقا * وأظهر للواشين عنكم تجلدا
وأمنع عيني اليوم أن تكثر البكا * لتسلم لي حتى أراكم بها غدا

وقال مهذب الدين بن القيسراني

جرد البعد من جفوني سيوفا * ردها قرب داركم في الغمود
كان دمعي سقيط طل فلما * أشرقت شمسه ارتقي في صعود

وقال موسى بن سعيد المغربي

نهيت دموعي عند الوداع * ففاضت فظنوه شيئاً يريب

وما لي أشغل عيني بما * يكون حجاباً لوجه الحبيب

﴿ الباب الثلاثون ﴾

﴿ في الافتخار به ﴾

قال ابن المعتز

ياجفون السحاب دمعك يفني * عن قليل وما لدمعي فناء
أنا أبكي هوى وتبكين كرهاً * ودموعي دم ودمعك ماء

وقال ابن المعلم

إليك عن كل قلب في أماكنه * ساه وعن دمع كل في ماقيه
ما واجد الصبر في المعنى كفاقده * وجامد الدمع في المعنى كجاريه

﴿ الباب الحادي والثلاثون ﴾

﴿ في الضحك بدلا من البكاء ﴾

قال بعض الشعراء

ولربما ابتسم الكريم على الاذى * وفؤاده من حره يتأوه

وقال الكلابي

أبدى الخلائق للاعداء طيبها * مني وأقسر نفسي غير مقسور
وأترك الامر إلا في تاهبه * حياً وأضحك منه غير ميسور

وقلت أنا في ذلك

رحت يوم الفراق أضحك حزناً * ولفيض السرور يبكي المروع
وكذا في اللقاء أبكي هناء * ولفرط السرور تهمى الدموع

﴿ الباب الثاني والثلاثون ﴾

﴿ في البكاء بدلا من الضحك ﴾

قال بعضهم

كذبت مقلتي فيمْ قذفوها * شهدتْ في الهوى شهادة زور
لا تظنوا دموعها رسل حزن * قد تكون الدموع رسل السرور

وقال العفيف التلمساني

أنا منكمو في روضة وربيع * مادمت أشهد حسنكم بجميعي
وأنا الطروب وإن بكيت فربما * بوصالكم أجري السرور دموعي

وقال آخر في وصف شمعة

وصفراء مثل التبر مثلي جليدة * على نوب الأيام والعيشة الضنك
فلو أنطقت يوماً لقالت أظنكم * تخالون أني من حذار الردي أبكي
فلا تحسبوا دمعي لوجد وجدته * فقد تدمع العينان من شدة الضحك

وقال آخر

عظم السرور وزاد حتى أنه * من عظم ما قد سرني أبكاني
يا عين صار الدمع عندك عادة * تبكين في فرح وفي أحزان

وقال الأسعد بن مماتي

ماصرت أجسر أن أبكي لفرقتهم * لأنهم زعموا أن البكا فرح

وقال ابن دريد

تبسم المزن فانهلت مدامعه * وأضحك الروض دمع الضاحك الباكي
وغازل الشمس نور ظل يلحظها * بعين مستعبر بالدمع ضحاك

﴿ الباب الثالث والثلاثون ﴾

﴿ في أنه تبسم ﴾

قال الرمادي

ولم أر أحلى من تبسم أعين * غداة النوى عن لؤلؤ كان كامناً

وقال بعضهم

ولما قضى بالدمع من سر وجدنا * الى كاشحينا ما القلوب كواتم
أمرنا بإمساك الدموع جفوننا * ليسجي بما نطوي عذول ولائم
أري دمعنا يجري مخافة شامت * فنظمه بين المحاجر ناظم
وراق الهوي منا عيوناً كريمة * وتبسم حتى ما تروق المباسم

وقال ابن سناء الملك من هذا المعنى

رأيت طرفك يوم البين حين همى * ذا الدمع ثغراً وتكحيل الجفون لمى
أكفف ملامك عني حين لمته * فما تشككت أني قد رأيت فما

وقال ابن ظافر

متلونين على شواهد حبهم * فالعين تقطرهم بذي ألوان
ولو أنه ماء لقالوا دمعه * ثغر وجفناه به شفتان

وتشبيه الدموع باللؤلؤ أكثر من أن يحصى ومنه قول القائل

ولما وقفنا للوداع وطرفها * وطرفي يبثان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤاً رطباً ففاضت مدامعي * عقيقاً فصار الكل في نحرها عقدا

وقال عبد الله بن القطان

شكوت إليه جفوته * ومن خاف الصدود شكا
فأجرى في العقيق الدرّ * واستبقاه فامتسكا
فقلت مخاطباً نفسي * أرقّ للوعتي فبكى
فقالت ما بكت عينا * ه لكن ثغره ضحكا

وقال أبو محمد الحسن بن محمد الرمي

وفي عيني كما في فيك منه * ترى هذا وذا نظماً ونثرا

فثغرك لو يذوب لكان دمعاً * ودمعي لو تجمد كان ثغرا

وقال عفيف الدين التلمساني

رأت دموعي فقالت عينك ابتسمت * عن لؤلؤ بسلوك الجفن جذلان
وغالطتني في جعل البكا ضحكا * واستخونت أينا يا ميّ خوان

وقلت

بكى المحبوب لي لما استمعنا * وكان هواء فرقته تنسم
غلطت فما بكى أثراً لبعدي * ولكن ثغر ناظره تبسم

وقلت مضمناً

بمقلة محبوبي دموع تحيرت * دلالا على صب غدا وهو مغرم
فشبهت عينيه سيوفا وقد غدت * من التيه في أغمادها تتبسم

وقلت مهتدماً قول أبي الطيب

ايا دمعاً به طاب اكتئابي * ولذّ لي التعشق والغرام
لقد حسنت بك اللوعات حتى * كأنك في فم الجفن ابتسام

﴿ الباب الرابع والثلاثون ﴾

في بكاء المحبوب

مهيار الديلمي

ظل من العيش نعمنا به * لكنه ظل مع الصحب زال
بكى وتبكى غير ان الاسى * دموعه غير دموع الدلال

وقال آخر

كأنما ادمعه ودمعي * وقد بدت منهم طرائق
رشح مدام على بهار * ونثر طل على شقائق

وقال التهامي

لم أنسه يشكو الفراق بأدمع * ما اعتدن في الخد الأسيل مسيلا
فرأيت سيف اللحظ ليس بمغمد * من تحت أدمعه ولا مسلولا

وقال أيضاً

وراعها حرّ أنفاسي فقلت لها * هواي نار وأنفاسي من الشرر
فزاد در الثنايا در أدمعها * فالتف منتظم منه بمنتثر

وقال أيضاً

حدّر الدمع كحلها فوق خد * كان طرساً في الحسن والدمع سطرا
إن يوم الفراق غير حميد * رد جزع العيون بالدمع درا

وكرره أيضاً فقال

ويقصر ليلي ان ألمت لأنها * صباح وهل ليل بقي مع الفجر
وقد كانت الاجفان للجزع معدناً * فصارت لفيض الدمع من صدف البحر

وقال التهامي أيضاً

وملن الي الوداع بكل جفن * بفيض الدمع كالقرح الجمام
جرت عبراتهن على عبير * كما اصطفق الحمام على المدام

وقال أيضاً

عاجلتنا بفراقهن فجاءة * قبل الفراق وناحت الغربان
وسفحن للبين المدامع فالتقى * دران در مدامع وجمان

وقال أيضا

ولم أنسها يوم التقى در دمعها * ودر الثنايا قدها وقوامها
وقد بسمت عن ثغرها فكأنه * قلائد در في العقيق انتظامها
وقد نثرت در الكلام بعينها * ولذّا بسمعي عتبها وملامها

فلم أدر أي الدر أنفس قيمة * أدمعها أم ثغرها أم كلاهما

وقال أيضا

فرح الدمع خدها فرأينا * قهوة شعشعت بماء قراح

وقال آخر وهو ابن أبي حصينة

ولما وقفنا للوداع وقلبها * وقلبي يبثان الصبابة والوجدا
بكت لؤلؤا رطبا ففاضت مدامعي * عقيقا فصار الكل في نحرها عقدا

وقال آخر

لما وقفنا للوداع وصارما * كنا نظن من النوى تحقيقا
نثروا على ورق الشقائق لؤلؤا * ونثرن من فوق النهار عقيقا

وقال ابن سناء الملك

وإني لأبكي وهي تبكي تطربا * جعلتك من هذا التطرب في حل
إذا استحسنوا في وردة دمعة الحيا * فما نظروا في خدها دمعة الذل

وقال الوار الدمشقي

تصدت لنا ما بين إعراض زاهد * على حذر منها وإقبال راغب
وقد حليت أجفانها من دموعها * بأحسن مما حليت في الترائب

وقال أيضا

اجرى دموعا كنثر الدر أهملها * من نرجسيه على ياقوت وجنته
فحدرت مقلتي ذوب العقيق على * خد حكى ذهبا منه لفرقته

وقال ايضا

قالت وقد فتكت فينا لواحظه * قوموا انظروا كيف فعل الظبي بالاسد
وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

وقال ايضا

جعلت تشتكي الفراق وفي أجفـ * ـانها عقد لؤلؤ منثور
وكأن الكحل السحيق مع الدمـ * ـع على خدها بقايا سطور

وقال ايضا

تصدت لناو البين عنها يصدها * بإقبال ودّ دون إعراض لوم
وقد حليت أجفانها من دموعها * كما حليت ليلا سماء بأنجم

وقال ابن الساعاتي

وباك أسى خدّ له تحت دمعه * كوجنة كأس زينتها فواقع
وما كنت أدرى أن سيف لحاظه * إذا كلّ حدا أرهفته المدامع

وقال ابن وضاح

بكت يوم جاء البين سحا ووابلا * وسوّغت الايام بعد تلاقيا
فقلت لها إذ أضحك الوصل ثغرها * أأنبت ذاك القطر هذا الأقاحيا

وقال السراج الوراق

لو ترى موقفنا والدمع من * مقلة العشاق والمعشوق واحد
وعقود الجيد والجفن معاً * قد تلاقى ذائب منها وجامد

وقال ناصر الدين النقيب

قلت وقد أسبل من لحاظه * در دموع وفؤادى ذاهل
واعجباً من نرجس في روضة * يقطر منه الماء وهو ذابل

وقال شهاب الدين محمود

فرني ورق لما أكابده وقد * قرّت بيوم البين أدمع حسّدى
وأسال فوق أسيل خد أحمر * دمعاً تحدّر من كحيل اسود
فكأنه درّ على ياقوتة * حمراء أوطل على غصن ندى

وقلت أنا في ذلك

لاتحسبوا أن حبيبي بكى * لي رحمة يا بعد ما تحسبون
لم يبك لي من رقة إنما * أراد أن يسقي سيوف الجفون

وقلت أيضاً

تحير الدمع يوم بين * في جفن أحوى أغن أحور
كأن في فيه عقد در * فقلت ذا سيفك المجوهر

وقلت أيضاً

أيا باكياً بالدموع التي * جرت عند ملاح ضري وحال
أتوهمني أنها رحمة * وما هي إلا دموع الدلال

وقلت أيضاً

شكوت حتى لان بعد قسوة * ورحت أبكي وهو لي يساعد
وقال ها نحن سواء في البكا * لا يا حبيبي ما بكانا واحد
لا يستوي دمع على جمر الغضا * إذا جرى ودمع عين بارد

وقلت أيضاً

بكيت والمحبوب في مجلس * والحسن والحزن لنا غيّرا
فاحمرّ دمع سال في خده * واصفرّ دمع فوق خدي جرى

﴿الباب الخامس والثلاثون﴾

﴿في بكا العدو وغيره رحمة﴾

قال الوأواء الدمشقي

أيا هذه إن السحاب الذي ترى * بكت لبكائي رحمة وهي لا تدري
ولو لم تجد وجدي إذاً ما تشبهت * بروحي التي تفني ودمعي الذي يجري

قلت حذف النون من ترين على لغة من يقول

أبيت أسرى وتبيتي تدلكي • البيت وقد نطق النبي صلى الله عليه وسلم بهذه اللغة فقال عليه السلام لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا الحديث • وما أحسن قول البحتري وما ألطفه

وقفت في الروض أبكي فقد مشبهه * حتى بكت بدموعي أعين الزهر
لو لم أعرها دموع العين تسفحها * لرحمتي لاستعارتها من المطر

وقال الوأواء الدمشقي أيضا وظرف

قد بكى لي مما بكيت العذول * ورثى لي مما نحلت النحول
كلما قلت قد تسليت عنه * قال صبري وهمت فيما تقول

وقال خالد الكاتب

ظفر الشوق بقلب دنف * فيك والسقم بجسم ناحل
وبكى العاذل لي من رحمة * فبكائي من بكاء العاذل

وقال العباس بن الاحنف

وندمان تفرّغ من لجين * على طود من الأطواد عالي
بكى لما رأى شوقي وحزني * ومعذور لعمرك من بكى لي

وقال تقي الدين السروجي

سألتك وقفة قدر التشاكي * أبث اليك ما بي من هواك
ونظرة مشفق في حال صب * لرحمة حاله تبكي البواكي

وقلت أنا في ذلك

أيها المعرض الذي ما أراه * رقّ يوما ولا رثى لانتحالي
كنت أبكي من العدوّ فلما * زادني الضرّ في هواك بكى لي

وقلت أيضا

وما برحت عيني الي أن رأيتها * وقد وجدت في حبكم عدم الكرى

وزاد البكا عن حاجتي لتوجعي * فأبكي على من قد بكاني من الورى

الباب السادس والثلاثون

في مفردات ما يتعلق به

قال الوأواء الدمشقي

علقت ركائب حسنه * بعقولنا عند المغيب
وتظلمت وجناتنا * بيد الدموع من النحيب

وقال أيضاً

ثم ألقت ذوايباً مثل نايات زنامية بلا أنقاب
وتولت ملطومة الخد بالدمع وعادت كالشمس عند الذهاب

وقال الشريف البياضي

لقد مد الفراق إلى جفوني * أكف الدمع فاستلبت رقادي
كأن العين تشرب من دموعي * فتنبت أرضها شوك القتاد

ومثله قول المغربي إبراهيم

كم راع دمعي غداة البين من رشاء * وفى له الحسن لما خانني جلدي
لو لم يدم مطر الأجفان ما نبتت * قتادة الشوق بين القلب والكبد

وقال ابن سنا الملك أيضاً

ضلالي في تعشقه رشادي * وقتلي في محبته شهاده
فنار القلب تخبر عن شهاب * ودمع العين تروي عن قتاده

وقال ابن الرومي وهو معنى غريب لم أره لغيره

هدته من الأشواق نار دخانها * هموم عليها صبغة الليل تنفض
وواراه للعشاق دمع تفطرت * مرائرنا مما به فهو عرمض

وإراه نظر من طرف خفي الى قول أبي الطيب

تعود أن لا يقضم الحب خيله * إذا الهام لم ترفع جيوب الملائق
ولا ترد الغدران إلا وماؤها * من الدم كالريحان تحت الشقائق

وتسلق عليه ونقل المعنى الى ما أراد وقال البدر يوسف الذهبي

فعد الجفون برقدة فإلى متى * نشكو تعاقب أدمع وسهاد
لا تلتقي الأجفان فيك كأنما * اهداب عند الغمض شوك قتاد

وقال أيضاً

أخفيت في حبيه فيض مدامع * خوف الرقيب لظى غرام مسعرا
وكذلك السيف المهند ماؤه * من ناره في جسمه لن يظهرا

وما أحسن قول القائل

شقت عليك يد الأسى * ثوب الدموع إلى الذبول

وقال عماد الدين السمرباوي

قال لي صاحبي دموعك تجري * من عذاب الهوى وفيك سكون
قلت قلبي يذوب وهو جليد * ولذوب الجليد تجرى العيون

وقال الخفاجي

أطلت الليالي حتى ظننـ * ـت بانك بنت بأسحارها
وغادر قلبي رقيب الجفون * فباعد ما بين أشفارها

وقال أبو غانم معروف القصري

لا غرو أن تأسى على ملك مضى * أذرت مدامعها عليه عيون
ولئن بكيت وأنت طود للنهى * فلقد تسيل من الجبال عيون

وقال شهاب الدين بن دمرطاش

روى دمع عيني عن غرامي فأشكلا * ولكنه راوي الحديث مسلسلا

وأسنده عن واقدى أضالعي * فأضحى صحيحاً في الغرام معللا

وقال آخر

لأعذبن العين غير مفكر * فيها جرت بالدمع او سالت دما
هي أوقعتني في حبائل فتنة * لو لم تورطني لكنت مسلماً
سفكت دمي فلأسفحن دموعها * وهي التي ابتدأت فكانت أظلما

وقال شرف الدين البوصيري مضمناً

وأصبحت أيمات محصناتهمو * وأيماتهمو وهي المثاكيل
لا يمسك الدمع من حزن عيونهمو * الا كما يمسك الماء الغرابيل

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر

يادمعي الساعي لنا في الهوى * أجر فهل ساع وما يجري
وأنت ياقلب الذى قد خرجت * مثل الصبر عن أمرى
إنسان عيني إن غدا خاسراً * للدمع فالإنسان في خسر

وقال ابن النقيب

ياويح صب اطاع حكم هوى * وفيه صار الفائق الرائق
سلوه في الهوى مسئلة * ودمع عينه جعفر الصادق

وقال الحقاجي

أنفقت بعد أبي العلا مداماً * حبست ذخيرتنا على الانفاق
وبكيتها وجفونها موجودة * مثل الحمام ينوح بالأطواق

وقال شمس الدين محمد بن التلمساني

عن لي دمية ولاح هلالا * وانثني صعدة وفر غزالا
فتذللت حين دل ورخصت * دموعي في حبه فتغالى

وقال ابن عبد الظاهر

كان ظني أن يفضح الغصن بالقد * وإن الزلال بالريق يزرى
فرأيت الأغصان ذلا لديه * واقفات والعين للدمع تذرى
وهو لما ثني العنان عن النهر * غدا في ركابه وهو يجري

﴿الباب السابع والثلاثون في استعارة البكا لغير الانسان﴾

أحسن الاستعارات مانطق به القرآن الكريم في قوله تعالى فما بكت عليهم السماء والارض قال الواحدى رحمه الله في البسيط روى أنس كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول مامن عبد ألا له في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله فاذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية • قال وذلك لانهم كانوا يعملون على الارض عملا صالحاً فيبكي عليهم وإذا لم يصعد إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح تبكي عليهم وهذا قول أكبر المفسرين انتهي * وقال الكواشي وغيره وفي الحديث مامن مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه الا بكت عليه السماء والارض وعن على رضي الله عنه إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الارض ومصعد عمله من السماء * وقال عطاء : بكاء السماء حمرة أطرافها • وقال السدي لما قتل الحسين بكت عليه السماء أربعين يوما وبكاؤها حمرتها ويجوز أن يكون فما بكت عليهم أهل السماء ولا أهل الارض فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسئل القرية أي أهل القرية وقال بعضهم يجوز أن يكون للسما والارض بكاء حقيقة ويعلمه الله ومن يشاء من عباده كما أن لهما تسبيحاً انتهى قلت هذا ماتعلق بالآية من حيث التفسير وأما مايتعلق بها من حيث البلاغة مما له تعلق بعلم البيان فهو حسن الاستعارة وهذا الذى يؤيد ترجمة هذا الباب والكلام

على هذه الآية الكريمة من هذه الحيثية هو لب العربية وطراز التفسير فاقول اعلم ان هذه الاستعارة تسمى التهكمية وهي أحد أقسام الاستعارة لان هؤلاء الذين أخبر الله عنهم بأنهم تركوا عدة جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كانوا يعتقدون في أنفسهم لو توفهم بدنياهم وما ملكوا من خيراتها ولجبروتهم وتعاظمهم وعزهم أنهم لو ماتوا لخربت السموات والارض عليهم وأظلم الوجود وكسفت الشمس أسفاً عليهم وحزناً على ماهو الجادة في اصطلاح الشعراء إذا رثوا عظيماً وأرادوا تهويل مصابه وتعظيم الخطب فيه فنطق القرآن الكريم بهذا اللفظ في حقهم تهكماً بهم وسخريةً فقال تعالى فما بكت عليهم السماء والارض يعني أنهم كانوا أهلا لذلك ولكن مافعلت السماء والارض فى حقهم من بعدهم ما كانوا له أهلا واستحقاراً لهم وعدم التفات إلى شأنهم وأنهم كانوا أقل من ذلك وفي القرآن الكريم عدة آيات من هذا الضرب منها قوله تعالى حكاية عن شعيب «إنك لأنت الحليم الرشيد» تدل القرائن على أنه أتى بهذا اللفظ بدل السفيه الغوي وقوله تعالى «فبشرهم بعذاب أليم» تدل القرائن أنه أتي بهذا اللفظ بدل أنذرهم أو أوعدهم وقوله تعالى «ذق إنك أنت العزيز الكريم» تدل القرائن أنه أتي بهذا اللفظ بدل المهان او الذليل الحقير ولم يسمع في الشعر بمثل أبيات ابن الذروي في أحدب قيل إنها في القاضي الفاضل رحمه الله فإنه أجاد فى التلاعب بضروب الكلام وحسن التشبيه وهى مشهورة قال في آخرها

وإذا لم يكن من الهجر بد * فعسى ان تزورنا فى الخيال

وأبيات ابن عنين في القاضى الفاضل أيضاً من هذا الباب وأولها

حاشا لعبد الرحيم سيدنا الفا * ضل مما تقوله السفل

ومما جاء في الشعر من استعارة البكا لغير الإنسان قول ابن قلاقس

له العلاء خصوصاً غير مشترك * لكن نداه لكل الناس مشترك
تبكي صوارمه يوم الوغا بدم * وذلك الدمع للدنيا به ضحك

وقال ايضاً

وكل غصن فيه زهر ناجم * كأنه للعين نجم زاهر
مخضرة كأنها زمرد * قد رصعت خلاله الجواهر
ومقلة النرجس من دمع الندي * سكري وثغر الأقحوان فاغر

وقال ابن الخياط الدمشقي

سأبكي والقوافي مسعداتي * بندب من ثنائك أو مناحي
إذا ماخانني دمع بليد * بكيت بأدمع الشعرا الفصاح

وقال الشاعر الرستمي

مررنا بأكناف العقيق فأعشبت * أباطح من أجفاننا ومسائل
وكادت تناجينا الديار صبابة * وتبكى كما تبكي عليها المنازل
فمن واقف في جفنه الدمع واقف * ومن سائل في جفنه الدمع سائل

وقال الوأواء الدمشقي

وليل طويل كان لما قرنته * برؤية من أهوى قصير الجوانب
كواكبه تبكي عليه كأنما * ثكلن الدجى أوذقن هجر الحبائب

وقال أيضاً

ويوم دجن أراق الغيم دمعته * كأنما شمسه مكحولة بعمي
تململت سحبه من طول ماسحبت * وهمهم الرعد منها فيه حين همى
بكى عليه الندى ليلا فعبّس لى * ما كان لى في نهار منه مبتسما

وقال أيضاً

في رياض تريك بالليل منها * سرجا من شقائق النعمان
كتبته أيدى السحاب بأقـــلام دموع على طروس المعاني

وقال الحظيرى الوراق

أقول والليل في امتداد * وأدمع الغيث في انسفاح
أظن ليلى بغير شك * قد بات يبكي من الصباح

وقال ابن أحمد يس يصف الحرب

وباكية بعيون الجراح * إذا أضحكته ثغور الأسل
لبست الغمام لها شرة * وحررت بارقها المشتعل

وقال أيضاً

نثر الجوّ على الترب برد * أيّ در لنحور لو جمد
ذوبتـه من سماء أدمع * فوق أرض تتلقاه بخد

وقال ابن أبي الاصبع وهو من أحسن تخيل وقفت عليه

رأيت بنيه إذ تبسم أدمعاً * فقلت رثى لي إذ بكي فمه حزناً
أجاد له في النظم شاعر ثغره * ولكنه من مقلتي سرق المعني

وقال شهاب الدين بن دمرطاش

ما أبطأت أخبار من أحببته * عن مسمعى بقدومه ورجوعه
ألا جرى قلمى إليـه حافياً * وشكى إليه تشوّقى بدموعه

وقال الموفق ابن عبدالله الطيب

ولما نأت عن روض نعمان عربه * وشطت عن الوادي العقيق دارها
جرت بعدهم عين الغدير وأقسمت * غراساً بهم أن لا يقرّ قرارها

وقال ابراهيم النظام

ذكرتك والراح في راحتي * فشبت المدام بدمع غزير

فإن تنفد الدمع نار الأسى * بكتك الحشا بدموع الضمير

وقال محيي الدين محمد بن تميم في الناعورة

وناعورة شبهتها إذ رأيتها * وما زال فكري بالغرائب يسمح
تطايرتها مخضرّة كل ريشة * لها تحتها عين من الدمع تسفح

وقال شهاب الدين بن دمرتاش

يقول ليَ الدولاب راضِ حبيبك الـ * ملول بما يهوى من الخير والنفع
فإنيَ من عود خلقت وهـا أنا * إذا مال عني الغصن أسقيه من دمعي

وقال بعض المغاربه

لله دولاب يفيض بجدول * في روضة قد أينعت أفنانا
باتت تطارحها الحمائم شجوها * فتجيبها وترجّع الألحانا
فكأنه دنف يدور بمعهد * يبكي ويسأل فيـه عمن بانا
ضاقت مجارى جفنه عن دمعه * فتفتحت أضلاعـه أجفانا

أخذه الزين الجوبان فنقله الي الراووق

ولما حكي الراووق في العين شكله * وقد علق العنقود في سالف الدهر
تذكر عهـداً بالكروم فكله * عيون على أيام عصر الصبا تجري

وقال آخر في الناعوره

أبدت لنا بالعذر ناعورة * أدمعها في غاية السكب
أقول لما ضاع قلبي وقد * ضعفت من نوحي ومن ندبي
جعلت جسمى كله أعينا * تدور في الماء على قلبي

وقال ابن الساعاتي في الراووق

بكى الراووق مرجاناً نثيراً * ونظّم لؤلؤا ضحك المزاج
وشمس الدجن ترشف من رضاب الـــغوادى كل معسول المجاج

أخذ الثاني من قول القائل

باكر إلي اللذات واركب لها ❊ نجائب اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ❊ ريق الغوادي من ثغور الأقاح

وقال أبو بكر بن عبد المجيد بن أفلح

أنظر إلى حسن الربيع فقطره ❊ يحكي على الاغصان درا نابتا
وكأن غيم الجوّ يسكب دمعه ❊ من حزنه والروض يضحك شامتا

وقال أبو تمام

رُبًى شفعت ريح الصبا لرياضها ❊ إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأن السحاب الغرّ غيبن تحتها ❊ حبيباً فما ترقا لهن مدامع

والى هنا انتهى الكتاب بحمد الله تعالى منقولا عن نسخة
كتبت في رابع ربيع الاول من سنة سبع والف
وهي من مكتبة عزتلو حضرة عبد الرحمن بيك
أحمد أباظه وأخيه حضرة نجاتي بيك أباظه
أكثر الله تعالى من أمثالهما
في مصر ممن يقوم بنشر
العلوم والمعارف
آمين

(تم)

فهرست

صحيفة

صحيفه

صحيفه

تمت





كتاب

دعوة الأطباء

على مذهب كليلة ودمنة

تصنيف

ابي الحسن المختار بن الحسن بن بطلان الطبيب

عُني بطبعه وتصحيحه

الدكتور بشارة زلزل

طبع بالمطبعة الخديوية بالاسكندرية سنة ١٩٠١

مقدمة

اما بعد الحمد لله تعالى فهذه رسالة تشهد لمصنفها بالفضل الباهر كما يشهد النور للمصباح الزاهر. وتخبر عن ادبه الوافر كما يخبر النسيم عن شذا الروض العاطر. عثرتُ عليها في خزانة كتبي وقد توارت بالحجاب. فوجدتها آيةً في الحسن يعتبر بها ذووا الالباب واثراً من احسن الآثار القديمة لا تعادله قيمة. بل درّة يتيمةً لم تزل مكنونة في الصدف. وهي مما لا يُظفرَ بهِ الا في نوادر التحف فآثرت ان اتحف بها القرآء من ابنآء هذه اللغة رجآء ان يتدبروا بما اشتملت عليه من الحكم والنصائح والفوائد مسبوكةً في قالب الفكاهة قلائدَ من عقيان ومنظومةً في سلك الفصاحة عقوداً من جمان وفي كلام مصنفها عنها ما يغني عن زيادة البيان قال،، هذه رسالة دعوة الاطبآء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزحٍ يبسم عن جدّ وباطلٍ ينطق عن حقّ وخير القول ما اغنى جِدُّه والهى هزله صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان من امثال الحكمآء وكلام البلغآء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقتهُ وينقاد المتعلم بسهلها لتسهيل غرضهِ فيقرب عليه تناوله ويظهر للقارئ فضل الاطبآء المهرة وعجز المتخرقين بهذه الصناعة،،

وقد صدرتها بترجمة المصنف نقلاً عن كتاب عيون الانبآء في طبقات الاطبآء بياناً لفضله وتعريفاً له باصلهِ وفصلهِ ولم اتصدَّ لتغيير شيء مما جآء في هذه الرسالة الا ما اقتضاه التصحيح والتهذيب تفادياً من الفاظٍ وعبارات لا يألفها ذوق الادبآء من ابنآء هذا العصر وعلقتُ شرحاً على ما كان منها عويص الكلام ليعمّ نفعها ويزدان بحلية الكمال طبعها والله المسئول ان ينفع بها المطالعين وهو حسبنا ونعم الوكيل

بشارة زلزل



ترجمة المصنف نقلاً عن عيون الانباء في طبقات الاطباء

لابن ابي أُصيبعة

,,ابن بطلان'' هو ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصراني من اهل بغداد وكان قد اشتغل على ابي الفرج عبدالله بن الطيب وتتلمذ له واتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها ولازم ايضاً ابا الحسن ثابتاً بن ابرهيم بن زهرون الحرّاني الطبيب واشتغل عليه وانتفع به في صناعة الطب وفي مزاولة اعمالها. وكان ابن بطلان معاصراً لعلي ابن رضوان الطبيب المصري وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ولم يكن احد منهما يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً الا ويردُّ الآخر عليه ويسفهُ رأيهُ فيهِ وقد رأيت اشياءَ من المراسلات التي كانت فيما بينهما ووقائع احدهما بالآخر. وسافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر قصداً منه الى مشاهدة عليّ بن رضوان والاجتماع به. وكان سفرهُ من بغداد في سنة ٤٣٩ ولما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدة واحسن اليه معز الدولة ثمال ابن صالح بها واكرمه اكراماً كثيراً وكان دخوله الفسطاط في مستهل جمادى الآخرة من سنة ٤٤١ واقام بها ثلاث سنين

وذلك في دولة المستنصر بالله من الخلفاء المصريين وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة. وقد تضمن كثيراً من هذه الاشياء كتاب ألفهُ ابن بطلان بعد خروجه من ديار مصر واجتماعه بابن رضوان ولابن رضوان كتابٌ في الرد عليه وكان ابن بطلان اعذب الفاظاً واكثر ظرفاً واميز في الادب وما يتعلق به ومما يدل على ذلك ما ذكرهُ في رسالته التي وسمها ,,بدعوة الاطباء'' وكان ابن رضوان اسود اللون ولم يكن بجميل الصورة ولهُ مقالةٌ في ذلك يردُّ فيها على من عيرَّه بقبح الخلقة وقد بيّن فيها بزعمه ان الطبيب الفاضل لا يجب ان يكون وجههُ جميلاً. وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في عليّ بن رضوان من هذا القبيل واشباهه ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وسمها بوقعة الاطباء

فلما تبدّى للقوابل وجههُ   نكصنَ على اعقابهنَّ من الندم

وكان يلقبه بتمساح الجن وسافر ابن بطلان من ديار مصر الى القسطنطينية واقام بها سنة وعرضت في زمنه اوباء كثيرة ,,ونقلت'' من خطهِ فيما ذكرهُ من ذلك ما هذا مثاله قال ,,ومن مشاهير الاوباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الآثاري في الجوزاء من سنة ٤٤٦ فان في تلك السنة دُفن في كنيسة توما بعد

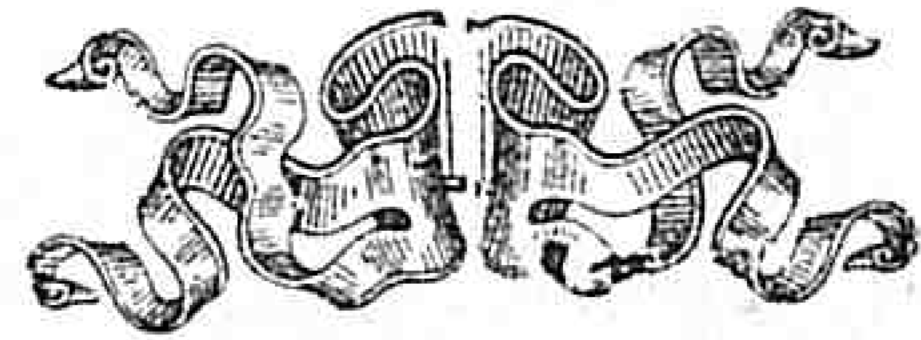
ان امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربع عشرة الف نسمة في الخريف فلما توسط الصيف في سنة ٤٤٧ لم يوفِ النيل فمات في الفسطاط والشام اكثر اهلها وجميع الغربآء الاَّ من شاء الله وانتقل الوبآء الى العراق فاتى على اكثر اهله واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية واتصل ذلك بها الى سنة ٤٥٤ وعرض للناس في اكثر البلاد قروح سوداوية واورام الطحال وتغير ترتيب نوائب الحميات واضطرب نظام البحارين فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة... وبعد ذلك كلام على ما كانوا يعتقدون من تأثير الاجرام في حدوث الاوبئة الى ان نقل اسماء جملة من مشاهير العلماء الذين فقدوا بالاوبآء العظيمة في زمانه في مدة بضع عشرة سنة منهم الأجل المرتضى والشيخ ابو الحسن البصري واقضى القضاة الماوردي وابن الطيب الطبري ومهيار الشاعر وابو العلاء المعري وابو الحسن الصابيء وابو الفتح النيسابوري . وصاعد الطبيب وابو الفرج عبدالله ابن الطيب ,,اقول'' ولابن بطلان اشعارٌ كثيرة ونوادر ظريفة وقد ضمن منها اشيآء في رسائلهِ التي وسمها بدعوة الاطباء وفي غيرها من كتبهِ وتوفي ولم يتخذ امرأةً ولا خلف ولداً ولذلك يقول من ابيات

ولا احدٌ ان متُّ يبكي لميتتي سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

ولابن بطلان من الكتب كناش الاديرة والرهبان . كتاب شرآء العبيد وتقليب المماليك والجواري . كتاب تقويم الصحة . مقالة في شرب الدوآء المسهل . مقالة في كيفية دخول الغذآء في البدن وهضمه وخروج فضلاتهِ وسقي الادوية المسهلة وتركها . مقالة الى عليّ ابن رضوان عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١ جواباً عما كتبه اليه . مقالة في علة نقل الاطباء المهرة تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة الى التدبير المبرّد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدمآء في الكنانيش والاقراباذينات وتدرجهم في ذلك من العراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧ الى سنة ٤٥٥ وصنف ابن بطلان هذه المقالة بانطاكية في سنة ٤٥٥ وكان في ذلك الوقت قد أُهّل لبنآء بيمارستان انطاكية . مقالة في الاعتراض على من قال ان الفرخ احرّ من الفرّوج بطريق منطقية الفها بالقاهرة في سنة ٤٤١ . كتاب المدخل الى الطب . كتاب دعوة الاطبآء الفها للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان ونقلتُ من خط ابن بطلان وهو يقول في آخرها: فرغت من نسخها انا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية في آخر ايلول سنة خمس وستين وثلاثماية والف

(١٣٦٥) هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الاسلامي من
سنة ٤٥٠. كتاب وقعة الاطباء . كتاب دعوة
القسوس . مقالة في مداواة
صبي عرضت له حصاة

م



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة دعوة الاطباء على مذهب كايلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جد وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما اغنى جده والهى هزله ، صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان (١) من امثال الحكمآء وكلام البلغآء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد

(١) هو ابو نصر احمد بن مروان بن دوستك الكردى الحميدى الملقب صاحب الدولة نصر الدين صاحب ميافارقين وديار بكر ملك البلاد بعد ان قتل اخوه ابو سعيد منصور بن مروان فى قلعة الهتاج ليلة الخميس خامس جمادى الاولى سنة ٤٠١ وكان رجلاً مسعوداً عالى الهمة حسن السياسية كثير الحزم قضى من اللذات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه وحكى ابن الازرق الفارقى فى تاريخه انه لم ينقل ان نصر الدولة صادر احداً فى ايامه سوى شخص واحد قص" قصته ....عاش ٧٧ سنة وكانت امارته ٥٥ سنه

نقلا عن ابن خلكان

المتعلم بسهلها الى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ،ويظهر للقارىء فضل الاطباء المهرة وعجز الممخرقين بهذه الصناعة وهي اثنا عشر قسماً

الاول منها في فاتحة الكتاب ومدح بغداد وذم ميافارقين لما فيها من الكساد. الثاني في ذكر مجالس الطعام وايراد الحجج التي تحمي عن الاكل فيما يقدم من الالوان. الثالث في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ما جرى من المسائل الرابع في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله الخامس في سؤال الكحال عما لايسعه جهله السادس في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع .السابع في امتحان الفاصد بما يحتاج الى معرفته من المنافع .الثامن في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية التاسع في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى .العاشر في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف له . الحادي عشر في تهاون العامة بالصناعة الطبية والرد عليهم . الثاني عشر في خاتمة الكتاب وذكر سبب

انقطاع الزيادة والاجتناب ونسأل الله ان يوفقنا لدرك الاغراض الصحيحة ،والالفاظ الفصيحة ، ليكون ما نأتي به مالكاً لرضى من حث على نظم منتثره وجمع منتشره ، انه جواد مجيد قريب مجيب .

الاول في فاتحة الكتاب

قال بعضهم لما دخلت ميافارقين سألت عمن بها من المتطببين. فارشدت الى دكةٍ بالعطارين عليها شيخ من ابناء السبعين. مرهف الشمايل حلو الدعابة عذب الفكاهة حسن المعارضة متميز عن اضرابه متشبث باذيال الادب ذو براعة في صناعة الطب فملت نحوهُ مسلماً فرد عليَّ السلام. واوسع لي المكان وتلقاني بالاكرام والاعظام . وقال من انت قلت غريب رمت بي الاقدار الى هذه الديار. قال وما صناعتك قلت طبيب .قال انفع الصنائع، واربح البضائع ، ومن اين اقبلت قلت من بغداد. قال بغداد سرة الدنيا وقطب الارض

وعرصة الادب ومعدن الفضل ودار السلام وحضرة الامام وقبة الاسلام وانشد

احبُّ الحلولَ بتلك الطلولِ   وجرَّ الذيول بذاك المقام

دخلتها قديماً لطلب العلم وزمانها كالربيع الممرع وايامها كالاعياد والجمع ، وترابها اثمد تكتحل به الاحداق . وحصاها در تقلد به الاعناق . وبضائع العلماء قائمة المواسم والاسواق ولقيت بها ابن الخمار وابن عبدان ونظيف بن يمن القيس وابن نكس وابا الوفاء المهندس . قلت له لِمَ رحلت عنها أملت المقام بها فانشد

لعمركَ ما فارقتها عن قلًى بها   واني بشطَّيْ جانبيها لعارفُ

قلت فكيف سمحت نفسك بمفارقة هؤلاء الفضلاء وهم كانوا لك الغرض الاقصى ، فقال والله يا سيدي ما صعدت الى هذه البلد وقد بقي من القوم احد قلت ثم ماذا قال

ثم انقضت تلك السنون واهلها   فكأنها وكأنهم احلامُ

ويعزُّ عليَّ ما فعل الدهر باولئك الانجم الزهر فقد فقد والله العلم بفقدهم ومات الفضل بموتهم ، ولعلهم ياسيدي لو عاشوا الى زماننا هذا لماتوا قبل اوانهم قل الطالب وزهد الراغب وصارت الكتب تباع على العطارين للحوائج وعلى الذهبيين للسفاتج وعلى الملاحين للمزاود هذه والله صناعة دثرت وخمدت نارها وطفيت وصار المتعرض لها غرضه التكسب لا التطبب وقد قيل انه بالحكمة تطبُّ الابدان وبالدراهم تمرض الحكماء فاذا رأيت الطبيب يجر الداء الى نفسه فمتى يداوي غيره شعر

وهل يرجى لذي سقمٍ شفاء   اذا ما كان سقمهُ الطبيبُ

ثم قال لي فانت لَمَ لم تقم ببغداد فقلت شعر

تقيم الرجالُ الاغنياء بارضهم   وترمي النوى بالمعسرين المراميا

اما سمعت قول الشاعر

بغداد دارٌ لاهل المال طيبةٌ   وللمفاليس دارُ الضنكِ والضيقِ

ظللتُ حيرانَ امشي في ازقتها   كأني مصحفٌ في بيتِ زنديق

قال صدقتَ ولكن عرفني لمَ قصدت هذه الديار قلتُ لزيارة غمر الزعفران ونيتى الارتسام بالطب ان طابت لي هذه البلاد. فاضطرب لعزيمتي وقال هيهات يا هذا لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراهُ ، خاب والله سعيك ، وكبا زندك ، وليتني كنت مثلك خالي المذار فاهرب من هذه الديار ، فما يتأتى لي بها مقام لانى وزدت اليها وبها قوم يحسن عليهم الثنآء ويقبح عند تقريظهم الاستثنآء ، ان اجتمعوا حسبتهم جوهراً منظوماً ، واذا تفرقوا خلتهم لوءلوءاً منثوراً

شعر

من تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدهم   مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت فما فعل الدهر بهم قال ماتوا والله هم واولادهم وغلمانهم ولكن بعد ما اتعبوا خاطري واسهروا ناظري في علاجهم الى ان قضى الله بموتهم فلله درهم وسقى صوب الغمام

قبورهم فانهم كانوا كفوني مؤونة الزمان مدة حياتهم وكنت في تضاعيف برهم لا اخلو من صبية تفطم اوغلام يختن او مفصود اول فصادة او مريض ادخله الحمام دع هدايا الاعياد والنواريز وما يتحصل من زبون الدكان فانه ما كان يموت لي مريض الا وقد مرض لي عوضه اثنان فانا في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل كأني قرواش بن المقلد او ملك ميافارقين وآمد . واليوم اذا انقطع الوتر فصدنا عرقين بدانق . ولولا ان عندي بقيةً من موسم سنة الخوانيق ارمق بها والا كنت من الهالكين. واظرف من هذا باسره انه كان في كل خريف تكثر الامراض . وفي كل خمس سنين يعرض وبآء وموت . فمنذ يوم ملك بن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة وصحت الاجساد وانكشف الوبآء عن هذه البلاد وانقطعت علة الخوانيق . وكانت قل ما فارقت الحلوق . وبطلت

الامراض الخريفية وكان موسماً مالوفاً معروفاً فصرنا لا نرى مريضاً الا في كل حين ولا نشاهد جنازة الا في كل زمان بعيد ولا نسمع صراخاً الا في كل دهر مديد حتى كأن اقبال الامير قد عصم الابدان من الاسقام وحصن الاعضاء من الآلام او كانه من بين آل مروان قد اخذ للخلائق من الدهر الامان. فما في الناس الا من ينشد فيه شعر الحسن بن هانىء :

علقتُ بحبلٍ من حبالِ محمدٍ ... أَمنتُ بهِ من طارقِ الحدثانِ
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحهِ ... فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو قيلَ للايام ما اسمي مادرت ... واين مكاني ما عرفنَ مكاني

يا سيدي ما اسعده على نفسه والناس . وما أثقل رجله علينا منذ يوم ولي ديارنا ما يفتكر احد فينا ولا يحتاج الينا ولا يلتفت نحونا بعد ان كان الطبيب في هذه البلد اعزّ من جبهة الاسد . اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والامصار. واشتغل اكثرهم

بالزروعات وسوق العجل والفدان . ونقل الجبصين من رؤوس الجبال الى البلدان. وربما يلقاني البطال منهم فاسكن منه لوعتهُ ويقول ربما عاد ذلك الزمان   شعر

عسى الايام ان يرجعنَ قوماً ... كما كانوا على اقصى المرادِ

يا سيدي عن اي شيء اخبرك من تلك الايام . والله لقد كانت تخرج الجنائز الى المقابر بالثياب الديباج كأنها زهر البستان ولقد عدّ في يوم من ايام الوباء ما قد خرج من باب واحد من الجنائز فكان ماتي جنازةٍ ممن كنت اطببهُ انا سوى من كان يطببهُ هذا الطبيب الذي في جواري وكانت تقف لي كل يوم على باب داري خمسون بغلة من بغال الجند والكتاب سوى رسل التجار ومن تلك السنة صرت اتيهَ من عمارة بن حمزة واعزّ من عمرو بن معدي كرب فمن انا بذلك الموسم وانشد

قد ذقتُ منهُ ما ليس يقلعهُ ... ابو الحسين القلاّع من ضرمي

يا اخي اين كنت واهل هذه البلاد لا ترى فيهم صحيح

المزاج ولا مستغنياً عن التداوي والعلاج . والجنائز تجلى كالعرائس وتحط على المقابر كالنجوم الزواهر . واصوات الصوائح في المآتم والنوائح كترنم المزاهر . واصطخاب الآلات والمزامر . ومغسلوا الموتى لا يوصل اليهم الا بالملاطفات . والاطباء يتزاحمون على دكاكينهم بالمهاري والبغلات اليوم وحقك الناس متشاغلون بتصفية القناني . والاقداح واختيار الملاهي والغواني . والضرب على المثالث والمثاني والغناء بشعر الحسن بن هاني :

قد علقنا من الامير حبالاً   أمنتنا طوارقَ الحدثانِ

يا سيدي اي شيء تعمل في هذا البلد والله اني ابقى اليوم والشهر لا يسألني انسان حاجة ولا تجتاز بي جنازة . واذا سهل الله وجاءنا مريض كان كما قال المثل اذا كسد اصحاب القلانس جاءهم زبون معوجوا الرؤوس . وقد والله ياسيدي سئمت نفسي هذا البلد وملني اهله . لان الماء اذا

وقف ظهر نتنه . واذا كثر لبثه ظهر خبثه . ولقد حدثتني نفسي دفعات بالخروج منه ثم اقول الى اين اخرج ولمن أقصد واين اتغرب وما بقي اقل مما مضى ومع اليوم غدا . وما يقعدني الا الالف . والزمان كلما مر جاء الى خلف . كلُّ هذا غرضه ان يبغض لي المقام . ثم قال حدثني ما تعمل في عمر الزعفران . قلت يا سيدي سمعت جالينوس يقول ان قياس طب الهياكل الى طبنا كقياس طبنا الى طب الطرقات . وانا رجل ضعيف المعدة ناقص الشهوة . وما ابقيت دواءً الا شربته وما نفعني وقد وصف لي ان في هذا العمر رجلاً من فضلاء الرهبان الذين رأوا الدنيا بعين الحقيقة فاطرحوها عن خبرة بها فانا امضي للقائه والتبرك بدعائه . فضحك الشيخ مني حيناً وقال ما اشبه هذا منك الا برجل رمدت عيناه فلقيه صديق له فقال له اری وجع عينيك قد طال فبماذا تعالجهما قال بدعاء الوالدة فقال له لو اضفتَ اليه قليل انذروت لكان اسرع في الاجابة .

وكذلك انت لواقتضت عن دعآء الرهبان بمعجون الزاهر ان كان ابلغ في تقوية المعدة وتنبيه الشهوة . وهذا دوآء عندي عملتهُ لنفسي وانا اواسيك منهُ بما تنتفع به . هات عرفني كيف هضم معدتك للطعام وكم مقدار غذآئك في هذه الايام . قلت اما شهوتي فعلى غاية التقصير وغذآءي نزر يسير . فلما نظر الشيخ مني الى ضعف المعدة وقلة الشهوة قال أتقوم الى البيت يافديتك لنأكل شيئاً ونتحدث فقد آنست بك لانك لست من اهل هذا البلد فتخرج حديثنا الى احد . وقلما آنستُ بانسان . وما انا مع الاخوان والاصحاب . الا كلمع السراب .

عدوكَ من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان الدآء اكثر ما تراهُ يكونُ من الطعام او الشرابِ

فتمنعت وحلفت لهُ اني قد اكلت فالحّ عليَّ فقمت الى دارهِ وجلسنا ساعة نتحدث واذا الغلام قد اتى بطبق عليه منديل وفوقهُ خبز وخل وبقل فلما وضعه بين ايدينا قال :

وما الخصبُ للاضياف ان تكثر القرى ٭ ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ
أُضاحك ضيفي قبل انزال رحلهِ ٭ فيخصب عندي والمحلُّ جديبُ

ثم قال يا سيدي نحتاج ان نعتذر فالعامة تقول اذا طرقت فما حضر واذا دعيت فلا تذر، ولكن الايام طوال .واخذ رغيفاً وقال ، رحم الله العجوز لقد كانت لها عناية حسنة بالخبز وهي علمت هذا الغلام يخبز هذا الخبز كل يا سيدي فانه مغسول الحنطة، مختمر العجين . معتدل الملح خانجي الظهر . مورد الوجه . علك المضغ . سريع الهضم ملائم الجسم ثم اخذ طاقة هندبآء وقال اعلم يا سيدي ان الهندبآء انواع اجودها الرقيقة فانها خير من غيرها واصلح في اصلاح الكبد واسرع في تفتيح السدد وكثيراً ما سقي مآؤها مع الراوند انظر ياسيدي الى عرض ورقها وصفآء خضرتها وتطم عذوبة طعمها ورطوبتها وبردها لا سيما اذا اكلت فخيرٌ ان تؤكل مع هذا الخل الثقيف انظر اليه فما معولي في دفع الصفرآء الا عليه . ولكن لا حيا الله هذا

الغلام فانه غلط منذ ايام وقدم اليَّ منهُ شيئاً قليل المزاج فاكلت منه شيئاً على اغترارٍ بهِ فما ان حصل منه يسير على لساني حتى طار الى حلقي ورأسي فبادر رعافي وسالت دموعي واتصل بي السعال وبقيت متألماً عدة ايام. ثم قال كل منهُ واحذرهُ. فلما هممت بالاكل قال ألست على النية في الحمية قلت لعلي اختار يوماً لذلك. قال اعظم من الذنب اليأس من الرحمة واشد من الخطيئة المماطلة بالتوبة وشرٌّ من المرض التسويف بالحمية. وقد قيل ان الشفيع المتخلف عدو طالب الحاجة والطبيب المتجم رسول ملك الموت والمريض المخلط كدودة القز التي كلما ازدادت نسجاً ازدادت من الحيوة بعداً قلت يا سيدي انا والله كاره للحمية فقال لعمري ان الحمية صعبة ولكن افضل الاعمال ما اكرهت عليهِ النفوس وفيثاغورس يقول من ساس معدتهُ فقد قرب جميع الاعضاء من الاعتدال وانت تحكم الصناعة ما كنت اظنك تحتاج الى بعض هذا فانة قبيح

بالطبيب ان يرى مخلطاً كما انه قبيح بالفقيه ان يكون فاسقاً فاستخر الله وامض العزيمة في الحمية وانظر الى الغذاء تصورته اذا استحال في غدهِ فما احسن ما قال سقراط وقد اجتاز على كساح قد اخرج من حشٍ كساحةً (١) يا اهل اثينا هذا الذي كنتم تغلقون عليه ابوابكم وتقيمون لحفظه الخزان وكانت شهواتكم تستخدم عقولكم في اعداده اليوم نفوسكم أنفة منه وطباعكم نافرة عنه. وحواسكم مع هذا ايضاً تروم مثل ما كان هذا عنه. ثم قال كل وتدبر بما قد سمعت فان هذه النصيحة متلقاة بالتحية وهذه الموعظة موشحة بالحكمة. فلما بدأت بالاكل أمسك يدي وقال اسمع كلاماً ينفعك فيما شكوت ويقرب عليك صحتك اعلم ان مداواة الامراض ضبط الشفتين والرفق باليدين واخذ المريض نفسه بموجب العقل لا بد واعي الهوى والجهل فان

(١) الكساحه ما يكسح من زبالة ونحوها والحش البستان ويكنى به عن المستراح

العقل يلتمس من الاغذية انفعها والهوى يطلب من الاطعمة
اشهاها والذها وقلما يجتمع في الشيء النفع واللذاذة
فان النفع قلما يكون في الغذآء واللذاذة قل ما توجد في
الدوآء فاياك ان تتلذذ بحلاوة الغذآء فتتنغص بمرارة الدوآء
وانشد

فان المرَّ حين يسرُّ حلوٌ ... وان الحلوَ حين يضرُّ مرُّ
فخذ مرًّا تصادف منهُ نفعًا ... ولا تعدلْ الى حلوٍ يضرُّ

واياك ان تؤثر لذة عاجلة فانها على المرء مضرة آجلة لاسيما
وانت مريض وقد امتلاءت من الغذآء. قلت يا سيدي قد
انهضم وانا مشتهٍ للطعام فقال جوع كذاب وشهوة كالسراب
وانشد

وللهضوم مواقيتٌ مقدرةٌ ... وكلُّ شيءٍ لهُ حدٌّ وميزانُ
فلا تكن عجلاً في ما تحاولهُ ... فليس يحمدُ قبل النضج بحرانُ

قلت فما رأيك في التقدير قال الراي التوقف فان الدآء
الدوي ادخال الطعام على الطعام وهو الذي افنى البرية

وقتل السباع في البرية فان التخمة اذا بقيت اتلفت واذا
تحللت ضعفت وبقراط يقول لا تغترَّ بامرٍ جرى على غير
القياس مثل جوع يجدهُ المريض قبل النقاهة. قلت يا سيدي
اما تعلم ان القدمآء يقولون ان القوة للمريض كالزاد للمسافر
والمرض كالمسافة ولهذا يجب ان لا يهمل الطبيب امر
القوة خوفاً من سقوطها قبل منتهى المرض. قال وما علمت
ان بقراط يقول ان الابدان غير النقية كلما غذوتها زدتها
شرًّا قلت صدقت ولكن القدمآء ايضاً يقولون ملْ مع
المريض في بعض شهواتهِ فان الطعام الشهيَّ وان ضرَّ خير
من غير الشهي وان نفع. قال الشيخ هذا صحيح الا ان
القدمآء ايضاً يذكرون انَّ الابدان المملوءة بالفضول تحيل
الاغذية وان كانت جيدةً الى طباعها. قلت وقد قالوا ايضاً
اطرح العلاج بالدوآء ما امكن التدبير بالغذآء. قال الشيخ
الذي اعلم انك رجل معدتك رديئة واحشاؤك ليست
نقية ولا آمن عليك ان دنوت من الطعام ان تقع في بلية

قلت يا سيدي انا آكل واستعين بالله . قال الشيخ لا حول ولا قوة الا بالله . اذا انقضت المدة كان الحيف في المعدة فاضربت عن كلامه ثم هممت بالاكل فقال الشيخ مهلاً مهلاً اعلم شفاك الله ان صورة العلم عند العقل كصورة الغذاء عند الجسم الا ان برداءة الغذاء يهلك الجسم ويهبط هوَ والنفس الى اسفل السافلين وبحقيقة العلم تصفو النفس وتستصحب معها الجسم الى عليين ومقر الروحانيين ومقام العز ومعدن البهاء والفوز . والحكيم بقراط يقول ليس بالخبز يحي الانسان بل بكل كلمة طيبة وسقراط يقول ان احببت ان تأكل فلا تاكل حتى تأكل . وافلاطون يقول آكل لأعيش لا أعيش لآكل فاياك ان تهجم على الاكل لكن تأنّ وتمهل وكن كالخياط الفارة (١) الذي يقدر الف مرة حتى يقطع فما في العجلة خيرٌ وخذ بقول الاول

قد يدركُ المتأني حسن حاجتهِ   وقد يكونُ مع المستعجلِ الزللُ

(١) الفاره الحاذق والماهر النشيط

قلت له ولمَ لا آخذ بقول الثاني

وربما فات قوماً جلُّ امرهمِ   من التأني وكان الحزمُ لو عجلوا

قال فاذا عزمت على الاكل فصغر اللقم وقطعها بالثنايا وكسرها بالانياب واطحنها بالاضراس وقلبها باللسان وابلع سحيقها واعد الى طحن الاضراس جريشها وقدّم البقول على الثرايد (١) واذا اكتفيت بالثرايد فلا تمدل الى التوابل (٢)

وانشد

فالنفسُ راغبةٌ اذا رغّبتها   واذا تردُّ الى قليلٍ تقنعِ

واياك واللحمان فسقراط يقول لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان وجالينوس يقول اجهل الناس من ملأ بطنه من كلما يجدهُ . واعتمد على مقاومة الصفراء بالاشياء الحامضة والبلغم بالطعوم المالحة والسوداء بالثرائد الدسمة . واعلم ان الصفراء كالصبي الصغير ترضيهِ الثمرة وتسخطه الكلمة

(١) جمع ثريدة وهي فتات الخبز في المرق
(٢) جمع تابل وهي ابزار الطعام اى مايطيب به الغذاء من الاشياء اليابسة كالفلفل والكمون

والسوداء كالثور يسوقه الصبي والمرأة واذا غضب لم يضبط
والبلغم كالسبع ان قُتل والا قَتل فاقهر البلغم قهرك عدوك
واخضع للصفراء خضوعك لمن فوقك وسالم الدم مسالمتك
صديقك وجاهد السوداء مجاهدتك عدوك واختصر
يا سيدي من كثرة الالوان فان الالوان المختلفة الطباع
تحتار المعدة في هضمها وتعجز القوة عن احالتها ولا تأكل
ما يكدُّ اسنانك في مضغه فتعجز معدتك عن هضمه .
واجعل يا سيدي ما يرد الحشى اثلاثاً ثلثاً طعاماً وثلثاً شراباً
وثلثاً نفساً واختصر من الغذاء فما يساوي الدنيا التردد
الى بيت الخلاء وقلل من شرب الماء البارد في تضاعيف
الغذاء وغلب العقل على الهوى فانهُ قلَّ من غلب هواهُ على
عقله فلم يعطب وقل من حرض على النساء فلم يفتضح
وقل من ابتلي بوزراء السوء فلم يهلك وقل من اكثر من
الطعام والشراب فلم يسقم وجعل الشيخ يمرُّ في ضرب
من هذا الفن ليشغلني عن الاكل فلما اطال كلامه واتسع

في الهذيان ميدانهُ اضربت عن كلامهِ صفحاً واقبلت على
الاكل فامعنت في الخل والبقل وهو لا يستزيد اداماً ولا
يستدعي طعاماً حتى خيل لهُ انني قد شبعت وتصور انني
من الخل والبقل قنعت فقال لغلامه ارفع هذا عنا وقرب
الشواء منا . فقدم الغلام حملاً مشوياً فمددت يدي الى
الاكتاف فقال اياك واياها فانها تقبل من القلب الفضلات
فملت نحو الزَّور فقال لا تتعرض له فانه بطيء الهضم فمددت
الى الكلى فقال هذه معدن البول ومائية الدم فاومأتُ الى
الافخاذ فقال انها مجاورة للمعى والبراز فاستأذنته في الالية
فقال الله في نفسك فانها وخمة رديئة تميت الشهوة
وتحدث الهيضة فقلت فعلى ماذا اعتمد قال على الاطراف
من العضد فهي الطف ما في الخروف لاسيما من هذا
الرضيع المعلوف فاومأت الى اخذ طرف كان قريباً مني
فقال تأخذ من الاطراف الموءخرة والمقاديم اشرف وتأخذ
اليمنى منها واليسرى الطف لقربها من القلب والحرارة

الغريزية وبعدها من الزبل والفضلات الردية خذ ما
اعطيك وتجنب ما سواهُ فانه يؤذيك . ثم فرك احد
الاطراف اليابسة وقال هاك هذه اليمنى فان الاعتماد كان
عليها في الرعي والسعي فهام نحوها يا ابن اخي فاخذتها
ثم قال لغلامه ارفعه عني عسى ان نكفى غائلته ونأمن
رداءته وبليته فلبلوغ الشهوات قرائن مهلكات وعوارض
مؤلمات فربَّ اكلة قد حرمت اكلات وهات ما عندك
فقدم مضيرةً (١) بلحم بقر فبدأت آكل فقال اعلم وفقك
الله ان الآكل يستمري الاطعمة الموافقة له ولا يستمري
الاطعمة المخالفة لطبعه وهذه مضيرة بلحم بقر والقدماء
ينهون عنها لمن به ما بك وعن الجمع بين لحم البقر واللبن
كما ينهون عن الجمع بينه وبين السمك وهذه والله معدن
المفاصل والنقرس واللقوة والقولنج والفالج فالله الله ان
تحملك الشهوة على الاستضرار بهذه المضيرة . ثم قال

(١) قال الفيروزابادى المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير اى الحامض

لغلامه ارفعها عنا ففي رفعها الخيرة لنا فاني لا آمن ان
ينقاد بزمام الهوى الى مناخ الشهوة فيقع من هذه المضيرة
في امراض صعبة فرفعت . وقدمت ارزة بلبن قد عملت
تحت الحمل فتصورت انه لا شيء يرجى بعدها فدعت الضرورة
الى الشبع منها فحين رآني فيها ممعناً وعلى اكلها مقبلاً تبين
الغضب في وجهه فاوما الى الغلام برفع الطبق فظن الغلام
انه يستدعي منه الحلواء فقدم جاماً فيه فالوذج صبيغ اللون
محكم العقد فازداد غضبهُ وكاد يملأ الجام بتسكاب دموعه
وقال اعوذ بالله من سوء ما جرت به المقادير اعلم يا سيدي
انه ليس الآمر بالخير باسعد من المطيع له ولا الناصح اولى
بالنصيحة من المنصوح له فاسمع نصيحتي واعلم ان الحلواء
مضرة بالاسنان مبثرة للفم واللسان لا سيما اذا اتبعت بالماء
البارد فان المأمون شكا وجع اسنانه الى طبيبه جبريل فقال
له يا امير المؤمنين امتنع عن الماء البارد بعد الرطب (١)

(١) نضيج البسر الواحدة رطبه

والسكر فقال ويحك يا جبريل لولاهما لما اردتك واي لذة تبقى للسان اذا امتنع الانسان من الماء البارد والحلواء وخالف جبريل فيما وصف فكان من اسنانه ما قد عرف وانا استنزلك عن هذا الجام فان العاقل لا يؤثر اللذة على الصحة فعرفني على ما عزمت . قلت على الاكل والاتكال على الله فقال كأنك ان تركت الحلواء لا تتكل على الله ثم قال اعلم ان الطبيب واسطة بين الله والمريض والوسط فيه ما في الطرفين ففيه من صفات الله تعالى رحمة ومنحة ومن المريض سؤال ورغبة ففرضهُ العافية ودأبهُ اهداء النصيحة والتوصل الى صلاح كل نسمة وانشد

لو غضبت روحٌ على جسمها   أصلح بين الروح والجسمِ
كأنهُ من لطفِ افكارهِ   يجولُ بين اللحم والعظمِ

فلا تسيء فيَّ الظن وتنسبني في هذا القول والفعل الى البخل فانه لا بد من النصيحة لك فلا يثقل ذلك عليك فبالله اني اشتهي كثيراً اللون اللذيذ واوثره ثم اخاف

غائلته فانهي نفسي عنهُ وربما غلبتني الشهوة فلا ازال اذكر نفسي بالآلام والاوجاع واحضر بين يدي آلات العلاج ثم قال لغلامهِ ارفع الحلواء وهات ما عندك فما شككت الا انهُ جام آخر ولون قد تأخر واذا طبق فيهِ كلبتا (١) الاضراس ومكاوي الطحال والراس والنشاب (٢) وصنانير السبل والظفرة وزراقات القولنج وقاثاطير التبويل وملزم البواسير ومخرط المناخير ورصاص التنقيل (٣) ومنجل الثآليل ومخالب التشمير ومحك الجرب ومنشار القطع ومهت (٤) القدح ومجرفة الاذن ومقص السلع وخشبة

(١) الكلبتان بلفظ التثنية الة من حديد يأخذ بها الحداد الحديد المحمى والكلاب حديدة معطوفة الراس جمعة كلاليب

(٢) النشاب من النشوبه وهى ما يعلق به الشيء الواحدة نشابه

(٣) كسر العظام حتى يخرج منها فراشها والفراش جمع فراشة وهى كل عظيم رقيق

(٤) الة البهت اى الكسر والفت. والقدح عملية فى العين لاستخراج الماء الازرق

الكتف وحمال الورك ومفتاح الرحم ونوار النسا (١) ومكمدة الحشا ومقدح الشوصة (٢) ودرج المكاحل ومرهمدان (٣) المراهم ودست المباضع فلما نظرت اليها تنغصت بالاكل وتصورت البلاء والسقم فقال لي يا سيدي يجب على الانسان الشكر لله تعالى على الصحة وان يسأله دوام العافية اليس هذا جميعه لاجل الاكل والمضغ أعد لهذا الجسد وانشد

كم دخلت أكلة حشى شره   فاخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام اذا   كان هلاك النفوس بالمعد

ثم قال لغلامه اعفنا من الطعام واعدل بنا الى الطشت والاشنان (٤) فغسلنا ايدينا واخذ مخدة واتكأ وقال هات يا سيدي تحدث فان ابا علي كان ينشدنا دائماً

(١) النسا بالالف المقصورة عصب الورك • والنوار الة يغرز بها
(٢) الشوصه نوع من ذات الجنب
(٣) لعلها فارسية ويراد بها وعاء توضع فيه آنيه المراهم
(٤) الاشنان (يوناني) الحرض وهو الذى تغسل به الثياب ويسمى بالغاسول قال ابن البيطار عن البكرى هو نبات لا ورق له وله اغصان دقاق فيها شبيه بالعقد

ولقد سئمت مآربي   فكأن اطيبها خبيث
الا الحديث فانه   مثل اسمه ابداً حديث

وبدأ الشيخ يتعمد للحديث ويتشجع ويتكلف للنشاط ويتصنع وانشد

وتجلدي للشامتين أريهم   اني لريب الدهر لا أتضعضع

فقلت يا سيدي قد تعلقت بذلك المعجون ما دمت على الحمية فاسألك أن تعرفني متى آخذه وكم مقدار ما اتناول منه. فقال ما هذا حجر يحتاج قبل الطحن الى النقر ولا انت الى ما يقطع بعض شهوتك احوج منك الى ما يقوي معدتك فاعرض عن هذا وهات حدثني اي شيء تحفظ من النوادر قلت اخبار ابي نواس قال ومن الشعر قلت قصيدة في التطفل قال ومن الابيات في الامثال السائرة قلت قول الشاعر :

نزوركم لا نعنيكم بزورتكم   ان الكريم اذا لم يستزر زارا
يقرب الشوق داراً وهي نازحة   من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

قال فاي شيء عانيت من المهن قلت الطبيخ قال فما الذي قرأت من الطب قلت تدبير الناقه قال فما العلة التي أدتك الى ضعف المعدة قلت الشهوة الكاذبة قال فاي شيء أخرجك من بغداد قلت كان بها غلاء ولحقني بها ضرٌّ فاغتاظ ونهض وكان متكئاً فجلس وانشد

بذا قضت الايامُ ما بين اهلها   مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

قلت يا سيدي اذا آيستني من الدواء أفتأذن لي ان اسألك عن شيء مما اجدهُ قال قل وارجو ان يكون سؤالاً مباركاً قلت ما السبب في اني لا اقدر على شرب الشراب ولا يلائم معدتي في حال من الاحوال فاعجبهُ ما سمع من قولي وقال هذه عادة ظريفة ان تكون المعدة قويةً على الاكل وعن الشراب ضعيفة

القسم الثالث

﴿في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ماجرى من المسائل﴾

فلما آنس الى قولي ضحك واعتقد ان باطن هذا القول

كظاهره فقال لغلامه هات نبيذاً فاحضر طبقاً ونقلاً وخمراً فاخذ القدح وغسلهُ وقال انظر حسن هذا القدح فانه حصل لي من نهب قصر الامارة ايام الفتنة وكان عندي احسن منهُ ولقلة المعيشة في هذه الشتوة احتجت فبعتهُ وقال

وقد تخرجُ الحاجاتُ يا أُمَّ مالكٍ   كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنينِ

ولكن ايام المشمش لا بدَّ ان تأتي ونردَّ عوضهُ لاسيما وشتاؤنا كان كثير الجنائب(١) والمطر وربيعنا هذا شديد الاختلاف والتغير واظنها ان شاء الله سنة وبائية ثم ملأ قدحهُ وقال هذه الخمرة التي كنا زماناً نشتهيها وبقراط يقول انها تسكن العطش وتشفي من الم الجوع وفيها عشر منافع خمسٌ منها تتعلق بالجسد وخمسٌ بالنفس فاما التي تتعلق بالجسم فانها تجيد الهضم وتدر البول وتحسن اللون وتطيب النكهة وتزيد في القوة واما التي تتعلق بالنفس فانها تسرُّ النفس وتقرب الامل وتشجع القلب وتحسن الخلق وتقاوم

(١) جمع جنوب وهي ريح تخالف الشمال

البخل ثم شرب وقال لغلامه امضِ الى تلميذي ابي جابر الفاصد وادعهُ ومعهُ عودهُ وجز بصديقينا ابي ايوب الكحال وابي سالم الجرائحي وقل لابي موسى الصيدلاني بحياتي عليك الا جملتنا في هذا اليوم من احد زبونك فما كانت هنيهة حتى حضر القوم فسلموا فرددنا عليهم السلام وسألوا عني فاخبرهم بحالي ثم بدأ القوم يشكون مايقاسونهُ من المعيشة ويتذاكرون ما بقي من الصيدلة فرأيت قوماً قد لاذوا بالادب الا ان السوقية عليهم اغلب فسكتوا ساعة ثم اخذوا في الكلام في مسئلة فقال الشيخ اليوم خمرٌ وغداً امر ما فينا اليوم قرآءة ولا تدريس لان العلم الدائم يكدّ النفوس وجالينوس يقول ان العلمآء محتاجون الى ان يتركوا التفكر وقتاً ما لئلا ينهك قواهم واجسامهم فان الاجسام آلة القوى والافعال ثم ملأ القدح وقال لتلميذه اعلم ان القدمآء يقولون ان العود مبني على الطبائع الاربع وان الضرب من المغني يجري مجرى المبضع من

الفاصد والاوتار كالعروق ووجه العود كالاعصاب فاياك ان تضرب ضرباً يقع ايقاعهُ خارج الاوتار واعتمد ما سمعت مني وهات غنني بشعر ابي نوءاس في استاذنا جبريل الطبيب فضرب الغلام واندفع يغني منشداً

سألتُ اخي ابا عيسى / وجبريلُ لهُ الفضلُ
فقلتُ الراحُ تعجبني / فقال كثيرُها قتلُ
فقلتُ لهُ فقدّرها / فقال وقولهُ الفصلُ
وجدتُ طبائع الانسا م / نِ اربعةً هي الاصلُ
فاربعةٌ لاربعةٍ / لكلّ طبيعةٍ رطلُ

ثم بسطهُ

اعدلا بي عن دارسات الطلولِ / وقفا بي في المربع المجهولِ
واسقياني على تصاخبِ اوتارٍ م / جرى بينهنّ خفق الطبولِ
ثم جسّ الاوتار وياكَ بلطفٍ / جسَّ بقراط نابضاتِ العليلِ

فطربوا وشربوا كلهم الا انا فلما آيستُ من الشراب بدأتُ اعمل في اكل النقل فقلت له ان انفع الانقال لي ما هو يا سيدي فقال ان المتوكل سأل جبريل عن انفع الانقال

فقال له نقل ابي نوأس يا امير المؤمنين فقال وما هو قال

مالي في الناس كلهم مثلُ   مآيَ خمرٌ ونقليَ القبلُ

هذا قاله جبريل للمتوكل وهو صحيح ما به ما بك قلت
صدقت الا ان هذا يصفه جبريل للمتوكل وفي مقاصيره
اثنتا عشرة الف جارية فانا يا سيدي على ما اعتمد في هذا
النقل أعلى الشيخ ابي ايوب الكحال ام على ابي سالم الجرائحي
فغاظه هذا القول مني وقال أليس ذكرت انك طبيب
قلت بلى ثم قال اي شيء تعاني من اجزاء الطب قلت
الطبائع

القسم الرابع

﴿ في اختبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله ﴾

قال أسألك عن مسئلة قلت افعل فبدأ وانشد :

أعذني ربِّ من حَصَرٍ وعيٍّ   ومن نفسٍ اعالجها علاجا
ومن زلّات نفسي فاغتفرها   فاني لا اطيقُ لها لجاجا

ثم عاد وقال اسألك عن مسئلة قلتُ افعل فقال الشيخ لا

تظن اني اسألك لمَ صار الحبشة والصقالبة وبلادهم مختلفة
وطبائعهم متضادة يغتذي كل منهم بالاغذية الحارة اليابسة
ويشربون الخمور ويتغلفون بالمسك والعنبر ووجب ان
يجرى الامر فيهم على خلاف ذلك التدبير فهذا مما لا
اسألك عنه لانه مقول بالجواب ان الحبشة
يستعملونه غذاء والصقالبة يأخذونه دواء لئلا يلزم ان
تستعمل انت مثل ذلك في الصيف والشتاء ولا اسألك ايضاً
عن الخنزير وهو من اعدل الحيوان وغذاؤه يجب ان يكون
اعدل النبات ونراه يغتذي باخبث فضلات الانسان لان
هذا من المسطور المذكور ولا اسألك ايضاً عن القدماء لمَ
قسموا البلغم من طعومه ولمَ جعلوا الزجاجي والمسيخ احد
اقسامه وليس له طعم كاحد اصنافه ولمَ قالوا ايضاً انه بارد
وهو أحرّ من الدم في الهضم الثالث ولا اسألك عن الولادة
هل هي طبيعية وقد جمعت اجناس الامراض الثلاثة ام
هي ليست بطبيعية وهي اصل الافعال الطبيعية والانسانية

لكني اسألك واقول لك ربما نام الانسان وهو حاقن فرأى
كأنهُ يبول فلا يبول فانتبه وقد حفزهُ البول للخروج
فنهض وبال قلت نعم قال فما الذي منع البول من الخروج
مع حدته وامهلهُ الى الانتباه على كثرته قلت لا اعلم قال
فمن لا يتأتى له الكلام في بوله يهجم على انقال الناس ويأكلها
ثم التفت الى الحاضرين وقال صدق انهُ لا يعلم لان البطنة
تذهب الفطنة. والله لو اكل ما اكله بقراط لاضحى يعتقد
ان القوة العقلية في المعدة. ثم قال لي يا مبارك الناصية اذا
لم يتشاغل الطبيب بمسائل الاطباء وتواريخ القدماء والبحث
عن غوامض الكتب البقراطية وتفاسير الست عشرية
وعلل البحارين الشمسية والقمرية وعن النماء وهل هو من
خواص الاعضاء المتشابهة الاجزاء ام الآلية وعن النبض
غير المنتظم في نبضة واحدة وفي نبضات كثيرة والا
فبماذا يشغل نفسهُ أبأخبار المخنثين والمغنين وطيب لحن ابن
شريح وترنم معبد ونوادر بدعة الكبيرة واهزاج سريرة

الراقصة وايقاع مزاحم الرقاص ؟ واذا لم يرُض نفسهُ في
كتب النسخ والدساتير وتحرير الادوية على موجب القوانين
والا فبأي شيء يعتني؟ أبكتابة رقعة تتعلق بالعاشق والمعشوق
ووصف القدود والخدود والعيون وكسر الجفون والجبين
والانين وفرقة القرين ولوعة الحزين وطيب التلاق وشكوى
الفراق وحلاوة الوصل ومرارة البين وما لحق قيساً مع
لبنى والمجنون بليلى وجميل ببثينة قلت يا سيدي لست
طبائعياً قال فانت ماذا قلت انا كحال فقال هذا شيء يتعلق
بشيخنا ابي ايوب

القسم الخامس

في سؤال الكحال عما لا يسعه جهلهُ

فقال لابي ايوب اشرب هذا القدح واسأله ثم
اخذ القدح وتأملهُ ورفعهُ وقال هذه والله كما قال الشاعر

وكأنَّ الزجاجَ قطرةُ ماءٍ   جمدت والعقارَ شعلةُ نارِ

هات بالله يا سيدي غنِّ صوت استاذنا ابي اسرائيل الكحال

فاندفع وغنّى

قالوا اشتكت عينه فقلتُ لهم   من شدّةِ القتلِ مسّها الوَصبُ
حمرتها من دماء من قتلت   والدمُ في النصلِ شاهدٌ عجبُ

ثم هزجه

مريضُ الجفونِ بلا علةٍ   ومكتحلُ الطرفِ لم يكتحلْ
شكا حسنهُ قبحَ افعالهِ   فأثّرَ في وجنتيهِ الخجلْ

فشربت الجماعة كلهم دوني ثم قال لي ابو ايوب لو ان رجلاً برخشياً «١» كحل عين حمارك على غير علم منك فاعماها وادعى ان بها سدة ثم شارطك على برءها فكحلها بدواء عاد بصرها به أتعرف الدواء الذي ينقي طبقات العين ورطوباتها ويمنع النظر بها والدواء الذي يزيل ذلك الداء في الحال عنها فقلت لا فقال صاحب الدار يا أرمد البصيرة اعتقدت انه يسألك عن الظفرة متى تكون مرضاً ومتى تكون سبباً او عن جالينوس لمَ ذمّ العين الصغيرة ومدح

(١) اى من الغوغاء وهم اخلاط الناس

الحدقة الضيقة اللهم غفراً يا سيدي في اي شيء افنيت ايام الحداثة اظنك قضيت الزمان في محبة الصبوح والغبوق ومعاشرة الاخوان وتحديد القيان ومعرفة اسماء الخمر وتعديل نايات الطبل وتعبئة المجالس واصلاح المشام وتفريع الاترنج وحشو التفاح وترتيب الاوتار وشد ازيرة «١» العيدان على مقادير الالحان واصلاح الطبقات في ثقيل الاول وخفيفه والرمل وخفيفه والهزج بالوسطى والسبابة والبنصر . يا سيدي ما هذا والله مما ينفع الطبيب في طبهِ ولا المريض المسكين في ازالة مرضهِ قلتُ ما انا كحال قال اراك تدعي صناعة وتجحد اخرى كأنك تقدم غضارةً «٢» وتبعد اخرى هات عرفني اي شيء انت قلت انا جرائحي قال هذا شيء يتعلق بالشيخ ابي سالم

(١) جمع زير وهو الدقيق من الاوتار
«٢» الغضارة القصعة الكبيرة

القسم السادس

في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع

ثم قال لابي سالم اشرب هذا الدور واسأله ثم التفت الى الساقي وقال لهُ ناولهُ فاعطى لابي سالم فشرب وانشدوا

جدْ بماء المزن والعنبِ ... كاشفات الهمّ والكُرَبِ
قهوةٌ لو انها انتسبت ... ساجلت قحطانَ في النسبِ
فهي تكسو كفَّ شاربها ... دستبانات من الذهبِ

فملأ الساقي القدح واعطاهُ فقال لابي جابر غنِّ لي صوت استاذنا ابي الحسين بن نفاح فاندفع يغني :

كلُّ جريحٍ ترجى سلامتهُ ... الا فؤاداً دهتهُ عيناها
تبلُّ خديَّ كلما ابتسمت ... من مطرٍ برقهُ ثناياها

فشربوا ثم ملاءوا الاقداح فهزجهُ

تأوُّهي من حرِّ نار الهوى ... قُتِلت حتى لم يجد مقتلا
تأوُّهي من جسدي كلهِ ... فصل مني مفصلاً مفصلا
ارى المعافى يعذلُ المبتلى ... يا رب ذا العاذلُ ما يبتلى

فشربت الجماعة ثم اومأ اليَّ وقال يحتاج الجرائحي ان يكون عالماً بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها ليجتنب في فتح المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاوتار والالياف ثم قال كيف معرفتك بالتشريح قلت على غاية الكمال قال كم هي الياف المعدة قلت ثلثة قال وما هي قلت واحد موضوع طولاً به تجذب الغذاء وآخر يمضي عرضاً بهِ تمسك الغذاء وآخر وراباً بهِ تدفع الغذاء . قال فان قال قائل لا بل الدفع بالموضوع عرضاً والمسك بالموضوع طولاً والجذب بالماضي وراباً بماذا تجيبهُ أترى هذا مما يقوم لك عليه برهان او تظهر لك صحتهُ من العقل و التأثير قلت لا فقال صاحب الدار انا والله نظامه . من أكل ذلك الاكل لا يجيب عن هذه المسائل. ثمَّ قال ابو سالم أحسبك انك اعتقدت انني اسألك عن الجراحات المدورة في المفاصل المتحركة لمَ لا تلتحم بسرعة وعن علة الضرس النابت في سن الشيخوخة وعن الفرق في البنية بين الاناث والذكور ما هذه

مسائل تضيق افاضل العلماء عن جوابها ثم التفت الى الحاضرين وقال قد حصلنا من هذه الصناعة على تدوير العمامة وتحرير الشابورة «١» وسعة الدرّاعة وعظم الخاتم والفشر عند العامة اذا غاب الفضلاء وقول السوقة يا فلان أما ترى ذا؟ من اين مثل هذا؟ ومن يسمع من غيره هكذا؟ لاسيما اذا اخذ الكتاب بيده وفتل شاربه وامال رأسه واومأ بيده عند قراءته فمن الحواريون في اقامة الموتى وابراء الزمنى؟ ومن بقراط في طبه؟ وارشيميدس في حيله؟ واقليدس في هندسته؟ واذا فاتحته بالعلم وجدته عارياً مما انحله عاطلاً مما تحلى به وانتمى اليه وعول في المعيشة عليه: فهو كما قال الشاعر

فاذا ساجلته في علمه   قال علمي يا خليلي في سفط
في كراريس جياداً حكمت   وبخط اي خط اي خط

«١» لعلها السابورة بالسين من شابور وهى كورة فى بلاد فارس ينسب اليها السابرى وهو ثوب رقيق جداً. وتحرير بمعنى ضبط

فاذا قلت له هات اذاً   حك لحييه جميعاً وامتخط
واذا أخبر عن شيء ترى   فاتحاً فكاً ومنه قد خلط

لاسيما الواحد منهم اذا شد العضد وفصد ومسح الميل وكحل ونظر الى القارورة وحرك رأسه فقد وفى الصناعة حقها وعرف علمها وعملها وقال لقد احكمتها والصواب التشاغل بعلم غيرها وينسى «قول بقراط العمر قصير والصناعة طويلة» هذا والساعات طائرة والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق والاوطار في الايام تجتمع وتفترق والنفوس على قوانينها تذوب وتحترق. فان اتفق لهذا الجاهل ان يحضر مع طبيب قد اسهر ليله وكد نفسه فيما يحتاج اليه في مناظرته لم يحصل منه على اكثر من المهاترة والمكابرة والاعتضاد (١) عليه بالنساء والعامة والشناعة الى المريض برقاع الاصدقاء الى ان يصرف ذلك الطبيب

(١) الاستعانه. ما ابدع ما وصف به الممخرقين بصناعة الطب المعروفين عندنا بالدجالين «وسيأتي الكلام عليهم فى التكملة»

ثم لا يزال معه في طبه ماضياً على سننه الى ان ينبت المرعى على تربته فاذا سئل عنه بعد موته قال ما كان يمكن ان يعيش لان المرض كان مهلكاً والقوة ساقطة وما على الطبيب الا الاجتهاد وليس في قوة الصناعة شفاء كل مريض ولو كان كل مريض اذا استطب برأ لما مات احد ولكن الآجال مقسومة فما الحيلة ولا حيلة في الموت ولا قدرة لنا ان نزيد في الاجل ولعمري انه كان حرًّا ويعز عليّ والله فقده ولكن الانبياء ماتوا وما يبقى احد ويخرج لهم في فتاوي احمد بن حنبل ويستطرد بمخالفة المريض وغلط الطبيب الاول فان سئل عما تجدد له تنهد وانشد

أخنى عليه الذي أخنى على لَبَدِ (١)

وان قُدر ان يتأتّى له برؤ قال لقد خلصته من فك الاسد ورددته من شفير القبر ويرى انه حلّ العصابة

(١) لبد آخر نسور لقمان والشعر للنابغة وصدر البيت
أضحت خلاء وأضحى اهلها احتملوا

من لحيته ونزع يد الغاسل من يده وجذب ناصيته من منكر ونكير وقد بدأ بمسائلته ثم قال مالي اراك مطرقاً ملياً قلت لاني لست جرائحياً فاغتاظ من تنقلي في الصنائع وقال .

اظنّك من بقيةِ قوم موسى فهم لا يصبرون على طعامِ

قلت ياسيدي عادتي اغتذي ثلث دفعات في اليوم قال دع هذا عنك فما هذا اردت هات عرفني اي شيءٍ انت قلت فاصد

القسم السابع

﴿ في امتحان الفاصد في ما يحتاج الى معرفته من المنافع ﴾

قال هذا شيء يتعلق بفتانا ابي جابر فالنوبة معه فقال ابو جابر لصاحب الدار يأستاذ اسألك ان تنوب عني في مسائلته وانا اعوضك عن ذلك بان اغني لك شعر شاجي لما اهدت جاريتها للمتوكل يوم فصاده قال افعل فاندفع الغلام وغنى .

فصدتَ عرقاً تبتغي صحةً البسكَ اللهُ به العافيه
فاشرب بهذا الكأس ياسيدي مستمعاً من هذهِ الجاريه
واجعل لمن اهداكها زورةً تحظى بها في الليلة التاليه

فصاح وطرب وشرب ثم ملأوا الاقداح فهزجه

ويحَ الطبيبِ الذي جَسّت يداهُ يدكْ ما كانَ اخبرهُ فيما بهِ اعتمدك
لوأنَّ الحاظهُ كانت مباضعهُ وقد نحاكَ بهامن رقّةٍ فصدك

فصاح وطرب وشرب وملأوا الاقداح فلما شربوا سكتت الجماعة فقال الشيخ كان لملوك اليونان عادة وذلك انهم لا يعلمون صناعةً لانسان الا بعد تأمل مولدهِ لان المطبوع في كل امرئ هو الذي يكون دليل ذلك الشيء قوياً في مولدهِ والذين لا مولد لهم يدخلونهم الى بيت فيه صور الصنائع فما تحركت اليهِ طباعهم ومالت نحوهُ نفوسهم واشرأبت اليهِ قلوبهم اخذوهم بتعلمهِ لقولهِ « وكل امرئ يصبو الى ما يجانس » وجالينوس يستدل على همة الصبي من لعبهِ مع اقرانهِ في الملعب وهل يؤثر ان

يكون ملكاً عليهم او خادماً لهم فان الشخص تسمو نفسه في ذلك الوقت بحسب الغالب عليه في طباعهِ اذا كانت الرويةُ (١) مغمورة بالطباع الحيواني ولمافسد هذا النظام صار كل عطار يتصدّى لنظر القوارير (٢) والكلام على الطبائع وتنفيق ما كسد عندهُ من الحوائج ولاسيما اذا اضاف الى طبهِ قرطاساً فيه نشادر وخضاب وغسول وكليكان (٣) وحب العروس (٤) وان شمشآء تحلف السكينة بالمصحف ان ليس في العالم احسن من طبهِ وهو مع هذا ربما طبخ مآء الشعير وانكبَّ على نفخ الدخان ولا يعلم المسكين ان الفاصد يحتاج ان يعنى بعينيهِ بمداومة الاكحال الجالية وشرب الحبوب المنقية .

(١) الروية النظر فى الامور بعد الرؤية وقبل العزيمه

(٢) جمع قارورة ويراد بها الوعاء المستعمل لفحص البول قال بعضهم يمدح ابن قرة الطبيب

مثلت له قارورتى فراى بها ما اكتن بين جوانحى وشغافى

(٣) من انواع الكراث (٤) هو الكبابة نبات عطرى

تالله انني ما اعلم من المرحومُ آلفاصد المدفوع الى ما ليس من عمله ِام المفصود المغرور الذي يوقع يدهُ بيدهِ فيتحكم في عرقهِ وَعضدهِ ، ثم قال لي اسألك قلتُ سل عما بدالك قال . لا تظن انني اسألك عن العلة التى من اجلها صار بعض العروق يفصد طولاً وبعضها عرضاً وبعضها وربأً فذلك معروف ولا اسألك ايضاً لِمَ صار منفعة فصد الأسيلم (١) في بعض الامراض اكثر من الباسليق (٢) وهو طرفهُ وشعبةٌ منهُ ولا عن الشروط التي تلزم الفاصد وقت فصادهِ وقبلهُ وبعدهُ ولا عن العروق التي حصلت معرفتها بالقياس والعروق التي عُرفت بالتجربة والتي أدركت على جهة الوحي في المنام فذلك مما يعرفه فأر البيمارستان ولا اسألك عن عرق الجبهة اين يطلب في الصبيان وعرق اليافوخ اين

(١) وريد بين الخنصر والبنصر

(٢) وريد فى ثنية المرفق يستعمل الفصد فيه عادة

يوجد في الرجال ولا اسألك، عن الدم الاحمر الذي اذا طرح عليه المآء اسودَّ والاسود احمرَّ بل اسألك عن العلة التي من اجلها يكره الاستفراغ بالفصد في امتلآء القمر و الدم من استهلالهِ الى ابدارهِ في ابدان الحيوان اغزرُ منهُ في زمان محاقهِ أتعلم ذلك قلت لا . قال أَفتعرف الفوائد الثلث في شدّ العضد قبل الفصاد قلت لا قال . ألا تعرف اول مَن نبهَ على الفصاد واختيارهِ لمداواة الامراض قلت لا . قال فانت من عمرك تنتهك اعراض الموائد وتحبب الناس بالاكل وتأكل وتنام وتتلوى في المسائل كانك عرق زوّال (١) تحت مبضعِ مصدَّء وقد حصلنا من هذا الفصد معكم على شق العروق واخذ الفضة وشهادة العامة ان فلاناً يفصد جيداً ويدهُ خفيفة والواحد منكم لا يعلم انه إن ضرب شرياناً نزف الدم الذي يتبعهُ الموت وان ضرب عصباً

(١) الذى يتحول

ابطل الحركة والحس وشنج اليد وان ضرب عضلة جذب المواد الخبيثة الى العضو * بطلت والله هذه الصناعة وصار الحذق في الفصد مسك العضد وغوص الشد وعصر العروق حتى يهراق الدم وعصّ (١) العصابة وتربيع الرفادة وترك المبضع تحت العمامة فما يعرفون غير اهراق الدماء واخذ الكراء فلو ان انساناً ضاعت حمارته او وقعت دراعته (٢) لما اشرتم عليه الا بفصده واهراق دمه ثم قال لي ارني مباضعك فاخرجت اليه دست المباضع فتأمله وقال اين المدورات والشفرات والمزويات (٣) والحربات واين فأس الجبهة وصنارة الصدغ والدواء القاطع للدم قلت ما معي من هذا كله شيء قال فأرني لطف اناملك فلما اخرجت يدي قال ما هذه انامل تصلح

(١) اى شدها
(٢) الدراعة جبه من صوف
(٣) المزويات اى ذوات الزاويه

لجس العروق ولا هذا زند يقدح جواب هذه المسائل قلت لست فاصداً قال فانت ماذا قلت صيدلاني

القسم الثامن

في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية

قال هذا يلزم شيخنا ابا موسى فقال لابي موسى اشرب هذا القدح واسأله فملأوا الاقداح ورفع ابو موسى قدحه وقال ما احسن ما قال فيها ابن المعتز

وراحٍ من الشمس مخلوقةٍ   بدت لك في قدحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنه راكدٌ   وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ

ثم التفت الى الغلام وقال بالله غنِّ صوت استاذنا احمد بن قرابة فاندفع يغني

لما لممتُ باصحابي وقد هجعوا   حسبت حتى رحال القوم عطّارا
فقمتُ من ذا المحيا وانتبهتُ له   قالوا الحبيب الذي تهواه قد زارا
قلت انزلوا نعمت دارٌ بقربكمُ   اهلاً وسهلاً بكم من زائرٍ زارا

فلما شربوا قال ابو موسى لستُ اسألك عن

الادوية التي تستعمل لوقتها والتي تستعمل لشهرها والتي يؤمن استبقاؤها وان تقادم عهدها لأن هذا معروف ولا اسألك عن الدوآء التفه الذي اذا طرح على الخل حلا . ولا عن الدوآ الذي اذا طُرح على الحلو حمض ولا عن الشيء اليابس الذي اذا القي عليه الربوب اماعها ولا عن المائع الذي اذا طرح عليه المآء جمد فذاك معروف بل اسألك عن الحجر الذي اذا أدني الى ضوء السراج يضمحل . وعن البدور القمرية . وعن السنباذج (١) الصيني . والساذج (٢) الهندي والتوتيا الحشري (٣) وعن منابت العقار بحسب فصول الزمان أفتعرف ذلك قلت لا قال أفتعرف الحنظل قلت نعم قال

(١) حجر كانه مجتمع من رمل خشن معدنه فى جزائر بحر الصين

(٢) نبات شبيه بالناردين

(٣) لعله بالنسبه الى الحشر وهو النخالة او تحريف الحجرى

أفتعرف الانثى من الذكر قلت لا . قال أفتعرف ما منهُ دوآءٌ نافع فتأخذهُ وما منهُ سم قاتل فتطرحهُ . قلت لا قال أفتعرف الاسفنج ليس البحري ولكن النباتي قلت لا قال أفتعلم متى يؤخذ زبل الذئب وبعر الضب قلت لا . قال أفتعرف الشيء الذي تغير الطبيعة طعمهُ وتبقى عليه لونهُ والشيء الذي تغير لونهُ وتبقى طعمهُ والشيء الذي تغير طعمهُ ولونهُ وبالضد . قلت لا قال أفتعرف الحجر الذي يراه الناظر ابيض فاذا ادام النظر رآهُ احمر فاذا ادامهُ جداً رآهُ بنفسجياً فان زاد النظر رآهُ اسود مظلماً قلت لا قال أفتعرف الدوآء البسيط الذي يجد اللسان منهُ حلاوة ومرارة وحموضة وملوحة معاً قلت لا . قال الشيخ يايبروح صنمي (١) ما هذه من مقاماتك هذه من مقامات ديسقوريدس الذي قد بدلنا منهُ بقطاعي الشوك وباعة

(١) اليبروح اصل اللفاح البرى ويعرف عندهم باليبروح الصنمى لانه يشبه صورة الانسان

الفودنج (١) ها انتم تلعبون بمهج الناس . تعزّ عليّ هذه الصناعة قلّ الواصف لها وعدم العارف بها فتحامى التجار جلب العقار وبقينا من صناعة الصيدلة على البراني المصففة والصواني المزوقة والدكاكين المزخرفة والالواح المرندجة (٢) والموازين والمكاييل والمصافي والطباشير وصارت العناية كلها بالحناء الجيد وماء الورد الطيب والخضاب الحلك والغسول الاحمر والقلي والنوشادر والحارود (٣) ودخنة مريم وان تقول شمشاء العاتكة ما في الدنيا مثل دخنة ابي الحسين العطار وتقول عليا القابلة ومن اين مثل قشوته (٤) وتقول سكينة الماشطة ان

«١» نبات هو اللبلابه بعجميه الاندلس وعامه مصر تسميه فليه واهل الشام يسمونه الصفر .عن ابن البيطار

«٢» المدهونه بالاسود من اليرندج والارندج وهو السواد او الزاج

«٣» هو اسم الحيوان الذى خصاه الجندبادستر

«٤» قفه خوص لعطر المراة

عنده دهن العافية شيء ما في الدنيا مثله وتحلف ان ما في العالم مثل حوائجه لا سيما اذا قالت له كم ثمن خمس دراهم فشار فيعطيها ويزيدها ويحلف انه لا يأخذ ثمنه منها ويرسلها وقد جعلها شبكة من شباك المعيشة فلا يبقى حمام ولا مجلس قاضٍ ولا سوق غزلٍ ولا دكان قطان الا والحديث كله صفة ابي الحسين العطار . فلما استوفى كلامه عجزت عن الجواب ورأيت ان مسالمته من الصواب فقلت ياسيدي الحكماء يقولون ان لكل فضلٍ زكاة فزكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج وزكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم وزكاة البلاغة القيام بحجة من عجز عن حجته وزكاة الجاه ان يعين به من لا جاه له وزكاة العلم التعليم لمن قصر علمه واذا وجب على المال زكاة وهو ينقصه الانفاق فهي اوجب على العلم الذي يزيده الانفاق وقد قيل العلم كالشعر كلما حلقته كان اقوى لنمائه فان لم تحلقه فان له مقداراً محدوداً ان قصّ عاد اليه

وان تركك لم يزد عليه فهل لك ان تعرفني جواب هذه المسائل قال الشيخ من يمنع الحكمة طلابها كالذي يمنع الظمآن الماء البارد العذب ومن يعرض الحكمة على غير طلابها كالذي يعرض على الريان الماء الحار المالح وانا اعرفك جواب هذه المسائل بعد ان تعرفني اي شيء تنتحل من الصنائع فبالله اني اورد عليك كلاماً كالوشي المحبوك والذهب المسبوك قلت انا رجل جئت بكتب الى اهل هذه البلدة قال انت من طب الرقاع والرسائل والتفت الى القوم وقال هذا مثل فتانا قلت ومن هو

القسم التاسع

﴿ في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى ﴾

قال فتى حدث نشأ عندنا يعرف بخاروف ابي الوفا امسى في بعض الليالي معافى واصبح يدعى انه حكيم .

قالت له النفس كن طبيباً تقضي على الناس بالذهاب

تأخذ مال العليل قهراً ثم تؤاتيه (١) الى التراب

اعاذنا الله واياكم من سوء ما تجري به المقادير على يديه فهو الآن يلبس الدبيقي (٢) المقلم والمقصب المذهب والخواتيم اليشب والفيروزج ومع هذا فوالله انى ارحمه

وحسبك من حادث بامرئ ترى حاسديه له راحمينا

لان هذا اللباس يبغضه الى الناس ويحملهم على غيبته حتى يتكلموا فيه بما انا احلف انه لا يتجاسر عليه ولا يمد يده اليه ولكنه لا يرضى لنفسه ان يكون مثلنا نحن الاطباء الذين رضينا من الثياب ما ناب مناب الريش للطائر ومن الشماشك (٣) ما ناب للحيوان مناب الحافر هذا انفع وذاك اطيب ولكن اللعب الى آخره ياسيدي هذه عادة القدماء وزهاد الاطباء وكل ما لا يشبه اربابه

«١» تسوقه

«٢» بالنسبه الى دبيق بلد بمصر

«٣» جمع شمشك وهو من ملابس الرعاة

مسروق ونحن اعزك الله اصحاب ثروةٍ وعافية ما علينا .
من غيرنا ولكن اذا رأى البائس الفقير طبيباً كأنهُ وزير
فكيف يتجاسر عليه او يمد يدهُ اليهِ او يجسر يريهِ نفثهُ
وبولهُ وبرازهُ ولكن هو بعدُ حدثٌ ما يحسن يداري
عيشهُ ومن المعلوم ان ذا العقل لا تبطرهُ منزلة اصابها
وان عظم امرهُ كالجبل الذي لا يتزلزل وان اشتدت بهِ
الريح والسخيف تبطرهُ ادنى منزلةٍ كالحشيش الذي يحركهُ
ادنى ريح فان الادب يُذهب عن العاقل السكر ويزيد
الاحمق سكراً كالنهار يزيد كل ذي بصر بصراً ويزيد
الخفاش عماءً . بالله انني اعجب اذا قالوا ان فلاناً قد صار
طبيباً وكنت اعهده يُتيماً فلما ترعرع ماشى كسير وعوير (١)
فشهدا لهُ بالجندية والركوب والفروسية الى ان مضى على
ذلك برهةً فما احسستُ بشيء حتى تصدر بعمامة وصقل

«١» بصيغه التصغير كنايه عن قرين السوء يقال له كسير وعوير
وكل غير خير

اطرافهُ وقص اظفارهُ ووسع اردانهُ والتحق بالرؤساء
وانتمى الى خدمة الاولياء وبدأ يتعلم يكتب ويقرأ ويتسور
باخبار الاطباء ولعهدي بهِ يوماً وقد حكى لبعض الرؤساء
حكاية اساء فيها الرواية فقال ان بعض سراري الملوك
شكت الى جبريل بخراً كان بمولاها وان جبريل اشار
عليها ان تأمر الخياطين ان يفتقوا دروزها ويملئوها مسكاً
حتى اذا قرب مولاها منها تعتمد ان تشم الدروز
واذا قويت عليها الرائحة تواصل شم الدروز فكانت تجمع
الدرز والدرزين وتشمها فاندفع الناس يضحكون من
مخاطبته لصاحب المجلس بهذا ومن انهُ المسكين لا يعلم ان
التاء في الفعل المضارع تصلح للمؤنثة الغائبة والمذكر
الحاضر وشتان بين هذه الحكاية وبين ما جرى بين اسحق
بن حنين وبين القاسم بن سلام وزير المعتضد وذلك ان
القاسم بلغهُ ان ابا يعقوب اسحق شرب دواءً مسهلاً
فاحب مداعبتهُ وكان صديقاً لهُ فكتب اليهِ

أبنْ لي كيف امسيت وكم كان من الحالِ
وكم سارت بك الناقة م نحو المنزل الخالي

فكتب اليه اسحق

بخيرٍ كنتُ مسرورًا رخياً ناعمَ البالِ
واما السيرُ والناقة م ثم المربع الخالي
فإجلالك انسانيهِم ياغايةَ آمالي

وما ابعد شبه المسكين ايضاً ببعض ظراف الاطباء وقد انفذهُ صاحبهُ في جيش فلما عاد سألهُ عن الوقعة على جهة المداعبة فقال التقت الفئتان في موضع كرحبة البيمارستان فلو القي مبضع لما وقع الا على قيفال فما كانت الا هنيهة بمقياس عشر نبضات حتى بحرنا اعداءنا بحراناً مهلكاً وعدنا في صحة مطلقة باقبالك يامعتدل المزاج . ثم قال الشيخ يعزُّ عليَّ والله بهؤلاء الاطباء مات الناس وباد جهابذة الصنائع ونقاد العلوم فانقلعت عين الفضل ووهى عمودها وانكسر فقارها فلا حريم للحكمة الا مستباح

ولا جانب للفضل الا وهو منثلم فالمصيبة عامة والعزآء خاص لان المريض مستغيث والطبيب عاجز وبينهُ وبين مداواته سجافٌ قاطع مانع وهذا عيان يغني عن البرهان. ثم ملأوا الاقداح واستدعى ابو سالم كاساً كبيرةً فلما ملأها رفع بيدهِ وقال ما احسن ما قال فيها ابو نواس

في كؤوسٍ كأنهنَّ نجومٌ باديات بروجها أيدينا
طالعاتٌ مع السقاة علينا فاذا ما غربن يغربن فينا

ثم قال لابي جابر ياولدي غنِّ احد اصواتي فاندفع وغنى

عينُ الزمان اصابتنا فلا نظرَت وعذبت بعذاب الهجر ألوانا
قد كنتُ أشفق من دمعي على بصري فاليومَ كلُّ عزيزٍ بعدكم هانا

فطربوا وصاحوا وشربوا وملأوا الاقداح واقترح صاحب الدار على الصبي فغناهُ .

مرضتْ فجئتُ اعودُها فتزمت فهيَ الصحيحةُ والمريضُ العائدُ
واللهِ لوْ قستِ القلوبُ كقلبها ما رقَّ للولدِ الضعيفِ الوالدُ

فشربوا وحيّ بعضهم بعضاً واكثروا من الثناء على صاحب الدعوة فلما سكتوا قلت ياسيدي من هذا الطبيب الذي هذه صفاته فضحك وقال صبيٌّ كنت اعرفهُ ببغداد وهو اذا مصّ الثماد (١) ناب عندهُ مناب الماء الغزير اليوم قد تعلم يأكل الباقلى المقشر والباذنجان المقمع فهو كما قال الاول

كأنّ الفتى لم يعرَ يوماً اذا اكتسى ... ولم يكُ صعلوكاً اذا ما تموّلا
ولم يكُ في بؤسٍ اذا باتَ ليلهُ ... يناجي غزالاً ساجيَ الطرفِ اكحلا

غير انهُ قد دخل فيما ليس من عملهِ وتصدى لمقعد ليس من اهله فالنعمة نافرة عنهُ والرئاسة غريبة منهُ وانشد

نعمةُ اللهِ لا تعابُ ولكن ... ربما استقبحت على أقوامِ

فواصلتهُ ظناً بان الزمان يصلحه فوجدتهُ يتوصل الى الكسب بكل وجهٍ ويتحيل في جذب الدرهم بكل ضرب فهو مع الجند في فن ومع التجار في فن يصف للشباب

(١) الماء القليل

سنوناً للفم وللنساء دواءً للسمن وللمشائخ جلاءً للعين وللعجائز خضاباً للشعر وهو تارة يتطبب وتارة يتنجم وتارة يدلل ويسمسر واذا دخل في شيء يحلّ ويربط ويحسن البحث ادعى انه عبدالله بن هلال ومع هذا يتجر في الاكفان ويستعمل التوابيت ويكري ثياب الجنائز ويرابي النوائح ويغمز الى اصحاب المواريث واذا دخل لقوم داراً فارقها بخزي وابقى بعدها عاراً سعادتهُ بمناحس المرضى ومناحسهُ بسلامتهم من يدهِ الشلاء فاعداؤه جميع الامم واصدقاؤه الحفارون والرخم .

قد عوّد الطير عاداتٍ وثقنَ بها ... فهنَّ يتبعنَهُ في كلّ مرتحلِ

واذا حضر ايام الربيع اجتمع مع عطار لهُ وشارطه على نصف اثمان الادوية ويمضي هو فيقصد الرؤساء في دورهم ويلقى التجار في دكاكينهم ويهدد الناس في الربيع بهجوم الحرّ وفي الخريف بورود الشتاء ويلقى هنداً فيقول لها ياستي اراكِ قد تغيرتِ والله ان عيناً اصابتك ثم يقول لها ياستي

لعن الله الدنيا ما تساوي العين لحظة عين وينشد

انما دنيايَ نفسي فاذا ذهبتْ نفسي فلاعاشَ احد
ليتَ ان الشمسَ بعدي غربت ثمَّ لم تطلعْ على اهل بلد

ياستي تقبلين مني فتقول له نعم يابي ولا اخالفك فيقول الصواب ان تشربي ماء الجبن فانه يخصب الجسم ويسمن الهزال ويبيض اللون ويحمر الوجه ويرق البشرة ويشهي الاكل ويجيد الاستمرآء ويطيب النهكة ويزيل الكلف ولا يبرح حتى يكتب لها ادويةً غريبة . ويقول امضوا الى فلان العطار وهو والله غشٌ صعب السكة ولكن حوائجهُ جيدة فلا تفكري في الثمن . ويقول للغلام سيستأمر عليك عشرين درهماً وينقصك خمسة اجتهد في عشرة ان باعك وما اظن فليست بغالية والا فاعمل برأيك ولا ترجع الا بقضآء حاجة لان القمر غداً في العقرب . وصبحهُ عني وقل انا اعوضك في شربة أخرى ويجوز ان لا تربح علينا في هذه فانها لصديق . فان مضى

الغلام واخذها من غيرهِ فانك تراهُ كالاسد الذي قد فاتتهُ الفريسة وهو جائع لانهُ يتأملها ويقول اين الاهليلج الاسود والترنجبين الابيض والامير باريس (١) الحديث الاحمر. ملتم والله الى الرخص اما تعلمون ان الحكمآء يقولون اذا كان الطبيب حاذقاً والمريض موافقاً والصيدلانيُّ صادقاً فما اقلَّ لبث العلة . لا والله لا غطيتُ الحق بغشوة ولا قبلت على الطب رشوة ولا استعملت الا حوائج جيدة ان اردتم من ينصحكم والا فما تتقون ممن يغشكم . كل هذا يفعلهُ وهو يشكو البطالة وضيق المعيشة فقلت قد شغلت قلبي بهذا الرجل فقال والله ما ذكرت من اموره الا احسنها وانشد

وأعرضُ عن اشيآء لو شئتُ قلتها ولو قلتها لم ابقِ للصلح موضعا

ولولا انني لا اوثر الشر لجازيتهُ على قبيح ما فعلهُ معي في هذه الايام. قلت وما الذي فعل بك قال

(١) هو البرباريس

نشرب هذا الدور واعرفك فملأوا الاقداح واندفع الغلام وغنى

جسَّ الطبيبُ يدي جهلاً فقلتُ لهُ اليكَ عني فهذا يومُ بحراني
فقال لي ما الذي تشكو فقلتُ لهُ اشكو اليكَ هوىً من بعض جيراني
فقام يعجب من قولي وقالَ لهم انسانُ سوء فداووهُ بانسانِ

ثم هزجه

وما بكَ علةٌ تشكى لطبٍّ ولكن المليحَ لهُ دلالُ

القسم العاشر

﴿ في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف لهُ ﴾

فلما شربوا قال الشيخ اسمع ياسيدي حديثهُ . كان لي مريض يهمني امرهُ فكنتُ ألازمهُ واساهرهُ وارصد الطبيعة في افعالها واراعي انذاراتها وبحارينها واقايس بين قويها وضعيفها وبين العلامات الرديئة عليها والجيدة لها واقابل بين القوارير وانظر بين رسوب هذه مع رسوب هذه وقوام هذه مع قوام هذه ولون هذه مع لون

هذه لأعلم آخر الابتداء والتزيد واول الانتهاء والانحطاط في المرض خوفاً من استعمال دواء في غير وقتهِ فاكون في طريقةٍ والطبيعة في اخرى فيتطرق عليَّ ما تطرق على قلاع الاضراس من قلع الضرس الصحيح وترك السقيم وكنت اراعي الادوية والاشربة والاضمدة وصلاح الاهوية لان الطبيب اذا دخل على المريض يحتاج ان يكون كالشجاع الذي يدخل الحرب وقد اعد جميع ما يقيهِ ويقاتل بهِ فانه لا يعلم اي خصم يثور اليه وباي سلاح يأتيهِ وباي حيلة يأخذهُ . وكذلك الطبيب يحتاج اذا دخل على المريض ان يكون عارفاً بتركيب البدن ومزاج اعضائهِ والامراض الحادثة فيها واسبابها واعراضها وعلاجاتها والادوية النافعة فيها والاعتياض عما لا يوجد منها والوجه في استخراجها وطرق مداواتها ليساوي بين الامراض والادوية في كمياتها ويخالف بينها وبين كيفياتها فما زال يثقل على المريض بسؤال العواد ورقاع الاصدقاء

حتى صرفني واستطبه فوالله لقد وجدت بذلك راحة واستراح مني خدامه والصيادلة وبالله انني ما احسده لكن ان قلت لك انني لست مغتاظاً منه فلا تصدقني لان المثل يقول اشد الناس غماً الذي نزل غيره في المكان الذي هو احق به منه ولكن اعلم ان هذا داء قد بلي به الاخوان من قديم الزمان فان السبب الذي به يدرك العاجز بغيته هو السبب الذي يحول بين الحازم وطلبته على انه قد قيل ان طيب النفس حسن الانصراف عما لا سبيل اليه فاحق ما صبر عليه ما لا يوجد الى تغييره سبيل وقد فقد الصبر

ومن اين لي صبر وفي كل ساعة   ارى حسناتي في موازين اعدائي

الساعة انا اصدق ان هذا الطبيب الجديد مثل طبيب سنه خمس وتسعون سنة وهو ما دبر قط مريضاً بهذا التدبير او عرف هذه القوانين او جرب هذه الامراض او رقم هذا البرد او جهز هذا العلاج للمرضى او ظن به انه مما تعامل

به الاطباء او سمع به او عمله او خطر بباله حتى انه يستعمله فان انا اعتقدت هذا فاني اظلمه وقد بلغني ان هذا الدجال غير هذا التدبير بعدي ولم يمض على قانوني واراد ان يظهر صنعة أخرى تودي بحياة المريض ولكن لا يصلح لاصحاب هذا الزمان الامثلة لانه متمحل وبلغني انه لا يكلم احداً الا بالميزان. اين هو منا نحن الذين نعتقد في المرضى انهم اولادنا واخواننا بالله لو انك شاهدتني في صلاتي لرأيت منظراً عجيباً فان الناس كما قد علمت واحد يسأل في صلاته سعة الرزق وآخر خاتمة خير وانا امد يدي واسأل في رسوب ابيض ونفث املس وعرق كثير وبول غزير ومجلس كبير واقول في تهجدي يارب عبدك فلان هي ليلة بحرانه جد عليه بعرقة وفلان به نقرس جد عليه بنومة. قلت ياسيدي سل الله ان يرزقك ما يغنيك عن هذا فضحك الشيخ وقال ماكان مثلك الا مثل من ضربه القولنج فبقي طول ليلته يسأل الله سبحانه ان يفرج عنه بريح

فلم يكن فلما آيس من الحياة قال يارب ارزقني الجنة فقيل
له انت طول الليلة تسأله في ريح ما أجابك أتسأله في جنة
عرضها السموات والارض ولكن كان يجب ان تشير علي
بهذا لو كان دعاءي مستجاباً والله ما دعوت لاحد قط فافلح
وان الذي دعوت له بالاسهال قد ضربه القوانج والذي
سألت له في عرقة الحمى عليه مطبقة وسبب ذلك ان
القوم لا يعطوننا شيئاً بنصيحة ونحن لا ندعو لهم بنية
خالصة نعوذ بالله من كساد الاطباء ونفاق المرضى . على
ان لي مع هذا الوغد مقامات يعرفها واموراً لا ينكرها
من ذلك اني سألته يوماً على جهة المداعبة لِمَ صار سلح
الكلب ينفع في الدباغة وخثي البقر في القصارة وزبل الذئب
يحل الذبحة وبعر الضب يجلو اثر القرحة؟ فكاني القمته
بهذه المسائل نجواً ثم رأيت ان اغيظه بمسئلة أخرى فقلت
له لِمَ النجو عند الاستنجاء على ما به من الكراهة تتنظف
منه اليد بالماء ولما كان غذاء طيباً لا تزول عنها رائحته الا

بما فيه عطرية وجلاء كالسعد والاشنان ؟ قال لا اعلم قلت
لِمَ صار البول على الاكثر اذا برد ثخن وتكدر وكل
العصارات اذا بردت رقت وصفت ؟ فقاطعني ومضى يقرع
سنه على ما فات من زمانه ايام الحداثة حيث كان العود
رطباً والطين ليناً ويتأسف باسف الغلام الذي ذكره جالينوس
قلت وما قصة هذا الغلام ؟ فقال قال جالينوس ان الصبي
الذي يشغله حسنه عن العلم في ايام الحداثة اذا هجره
احباؤه وهو خالٍ من فضيلة قال ياليت حسني لم يكن
لي قلت ياسيدي هذا الذي بينكما لا ينصلح قال ليس كل
الامراض تستطب كم من مرة رام الرؤساء اتفاقنا وخلع
الورك مع ثلم الافريز (١) هيهات ان يعود الى ما كان عليه
وكم تجتهد المرضى في اصلاح ذات بيننا من غير علمٍ منهم
بباطن امرنا فيخيطون ناحية من الدمل فلا ينفع ذلك
الاجتهاد لان الذي بيننا جرحٌ له غوران لم يكشف لم يصل

(١) الافريز من الحائط طنفه وافريز الورك حافة الحق

اليه دوآء وربما التحم على فساد فيبقى قليلاً وينتقض والنكسة اشد من المرض فنبقى مدة متقاطعين ثم يعود كلانا على دغل منه

وكم من مرتدٍ (١) للصلح يوماً   فلم ينجح بذاك الارتيادِ
لانَّ الجرحَ يُنقَضُ بعد حينٍ   اذا كان البناآء على فسادِ

وكم اتغاضى على كثيرٍ من الاشياء واتناسى كلما جرى واقول لعل وعسى . وكم اتأَول واقول قد قال الاول

لعلَّ عتبَكَ محمودٌ عواقبُهُ   فربما صحّت الاجسامُ بالعللِ

فيرجع الى قبيحهِ الاول فاهجره فيعود معرضاً بالسلام ملتمساً للمودة ولا يعلم ان من الحمق التماس الاخوان بغير الوفاء ومودة النسآء بالغلاظة والجفاء

فأما ان تكونَ اخي بحقٍّ   فاعرف منكَ غثي من سميني
والا فاطّرحني واتخذني   عدواً اتقيك وتتقيني

فاسمع واسكت واتغافل عنه وانا اشتغل فلا اشعر

(١) اسم فاعل من ارتاد اى طلب

الا وقد ضربني في مفصل ولا يعلم ان الفأس تقطع الشجر فترجع وتنبت والمبضع يقطع اللحم فيندمل واللسان لا يندمل جرحه ولا يلتئم قرحه والنصل من النشاب يعقب (١) في الجوف ثم ينتزع واشباه النصال في القول اذا وصلت الى القلب لم تنتزع ولم تستخرج والكل حريق مطفئ للنار المآء وللسم الدوآء وللحزين الصبر وللعشق السلوة ونار الحقد لا تخبو وقد غرس هذا الرجل بيننا شجرة العداوة ولولا انه قليل الحيآء كثير العنآء لكان اشتغاله بنفسه وشروعه في مداواة مرضه انفع له فان المثل يقول اذا كان في جوارك جنازة وليس في ديارك دقيق وصبيانك جياع فلا تمضِ وتعزِّ جيرانك فمصيبتك اعظم من مصيبتهم قلت ياسيدي اي شيء فعل قال اضربْ عن هذا واستعذ بالله من مصائب الزمان والله لولا انه عندي كالولد ولا احب غيبته والا عرفتك من مقابحهِ ما لا يظن ولا يتوهم

(١) يلتوى

أنهُ يمنع الناس من مخالطته لكننا نقطع حديثهُ لئلا نكون كالمغتابين لهُ قلت ياسيدي حاشاك من الغيبة لكن بقي لي شيءٌ واحد اسألك عنهُ قال قل قلت على من قرأ هذا الفتى ؟ قال على اجلّ من وطئ الحصى ممن تعرض لعلوم القدماء لكن ماذا ينفع حضور العلة الفاعلة اذا لم توجد مادة قابلة كالكاتب على الماء كلما خط انمحى على انهُ والله قد تعب واتعب باكثاره القرآءة والدراسة لكن يجب ان تعلم ان مراتب المتخالفين في هذه الصناعة ثلاث واحد يقرأ كثيراً ولا ينطبع فيه كالناقه الذي يظن انهُ بكثرة الغذاء يخصب ولا يعلم انهُ بقبول الاعضاء للغذاء والتصاقه يسمن لا بكثرته فهو كلما اكل واكثر لم ينمِ جسدهُ ولم يتزيد وآخر يقرأ كثيراً ويفهم فهماً ردياً فهذا يجري مجرى المبطون الذي شأن غذآئه ان يستحيل ورماً فيه تضعف قواهُ وتثقل اعضآؤهُ . والجهال في هذه الرتبة اثنان واحد يعرف قدر رتبته ولا يتعدى وظيفتهُ لعلمه انهُ من المقصرين

فلا يتعدى وصف البزور والسكنجبين وآخر يزهو بجهله على غير علم كالوارم الذي يتظاهر بالشحم وهو لشدة ما يقاسيه في جهد   وانشد

وقد يلبس المرءُ خيرَ الثيابِ   ومن دونها حالةٌ مضنيه
كما يكتسي خدُّهُ حمرةً   وعلتها ورمٌ في الرئه

ولهذا قال جالينوس الجهل بالجهل جهلٌ مضاعف وهب سلمنا لهُ بالعلم ماذا ينفعهُ بلا عمل فانهُ يقال ليس شيءٌ اهلك للمريض من طبيب يحسن القول ولا يحسن العمل فان صاحب العمل وان قصر به القول في مستقبل الامر فسيبين فضلهُ عند الخبرة وعاقبة الامر وصاحب القول وان اعجب ببديهته وحسن صنعته لا يحمد غبَّ امره . وان الطبيب الذي يعول في مداواة الامراض والمرضى على تنميق الكلام واقامة المعاذير يريد هلاك المريض من دون التدبير السديد كالذي يشرب السم اتكالاً على ما عندهُ من الترياق . فقد بان ان حسن العلم لا يتمُّ الا بالعمل واذا

عرف المريض دواء مرضهِ عند ما كان صحيحاً ولم يتداوَ بهِ لم يغنه علمه بهِ في صحتهِ ولم يجد له راحة ولا خفاً وبالضد ثم التفت الى تلميذه وقال قد شغلنا عن لذتنا بنبذة من ذكرهِ هات قدحي فملأوا الاقداح واقترح على المغني

قالَ لي عاذلي ولم يدرِ ما بي   اتحبُّ الحياة ما عشتَ حقّاً
فتنفستُ ثم قلتُ لعمري   قد جرى في العروق عرقاً فعرقا
قد لعمري ملَّ الطبيب وملَّ م   الاهلُ مني مما اقاسي والقى
ليتني متُّ واسترحتُ فاني   ابداً ما حييتُ فيها مُلقىً (١)

فغنى وشربوا وطربوا وضرب الغلام هزجاً بهذه الابيات

يا ممرضي بمغيبهِ   ومعذبي برقيبهِ
يا مانعي بصدودهِ   حلوَ المنامِ وطيبهِ
لِمْ لا تجودُ لعاشقٍ   اسرفتَ في تعذيبهِ
اعيا الطبيبَ دآؤهُ   فبكتهُ عينُ طبيبهِ

فصاح صاحب الدار وقال هـذا وملحم الحروق

(١) اى لا يزال يلقاه مكروه

ومجرى الدم في العروق لو كتب بالإبر على البصر لروئي احسن منظر فنهضت الجماعة وشربت قياماً ساراً (١) لصاحب الدعوة . فتقدمت اليه منتهزاً للفرصة وقد هزته الاريحية وقلت هل لك ياسيدي ان تسقيني قدحاً ادفع عني بهِ ضرر المضيرة وتشركني والجماعة في هذه المسرة فقال ان كنتَ مستحقاً له قلتُ وبماذا اكون مستحقاً له قال بان تخبرني عقيب اي حركتي التنفس تشربهُ أَعقيب حركة الانبساط ام عقيب حركة الانقباض؟ فاذا شربتهُ اي حركة يتحرك القلب بعدها أضد ما قطعت عندها ام مثلها؟ فذهبت امسك نفسي لانظر ما هو الجواب وقال لي ما اشبه هذا منك الا بما حكاه ابن قتيبة في ادب الكاتب عن الذين لما سئلوا عن عدد الاسنان جعلوا ايديهم في افواههم ليعدوها ثم قال هذا

(١) السار المفرح ولعلها اللفظة التى طالما بحث عنها الادباء ليستعملوها فى التعبير عما يكون فى الولائم والمادب عند الشرب وقد استعمل بعضهم لفظة النخب فقال شرب نخبه والعامه تقول شرب سره

وما سألتك متى يكون نبض الجنين موافقاً لنبض الحامل ومتى لم يكن موافقاً ؟ ولا عن الانقباض أهو اقدم من الانبساط ؟ ولا عن العلة التي من اجلها اذا فتح الانسان شفتيه ونفخ نفخاً حاراً فاسخن الاشياء الباردة واذا ضمهما ونفخ نفخاً بارداً فبرد الاشياء الحارة ؟ ولا عن العلة في ان النفخ البارد يلهب النار الكثيرة ويطفيء النار القليلة ؟ ولِمَ صارت حركة الشرايين والقلب واحدة وحركتهما وحركة التنفس مختلفة ؟ ثم قال لي أتعلم شيئاً من ذلك قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانبساط بالذات ادخال الهواء البارد وبالعرض مصُّ الاشياء المايعة كالماء والشراب والمرق والنقاعة (١) والتنخع وشم الروائح الطيبة ؟ قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانقباض بالذات اخراج الهواء الحار واعداد هواء الترويح وبالعرض تصويت الحيوان والكلام والسعال والزمر والنفخ للنار والجشاء والبصاق والفواق

(١) النقاعه من كل شيء الماء الذى ينقع فيه

ودفع الروائح الكريهة والاستنثار (١) وبجميعها تم التثاؤب والضحك والبكاء والتنهد وتنفس الصعداء والتأفف والعطاس؟ قلت لا قال فاشرب قدحاً واحداً على جهة الرحمة لك فملأت قدحاً الى رأسه فقال جودتَ هذا كانه خط العلماء بلا هامش قلت ياسيدي هذا الى الخط المستقيم فاغتاظ وقال ياغبي المستدير لا يكون عليه خط مستقيم لكن اما دائرة او قوس واخذ القدح من يدي فشربه وقال مجالسة الجاهل حمى الروح وانشد

لا انسَ الا في مجالسَ تلتقي بفنائها الاشكال والنظراء
ان الجهولَ تضرُّني اخلاقُهُ ضررَ السعالِ لمن بهِ استسقاء

ومثل ذلك قول المتنبي

واحتمال الاذى ورؤية جانيه م غذاء تضوى بهِ الاجسامُ

وما احسن ما قال حكيم الفرس مقاطعة الجاهل توازي صلة العاقل. وبدأ وقد هزته الاريحية وقال أترى من لهذا

(١) الجذب

الامر بعدي ذهبت والله الصناعة البقراطية والعلوم الطبية وانقبضت اطرافها وتقطعت اهدابها فشخصها مأووف وطرفها مطروف وصار الطبيب اذا دخل على المريض فهو بين ان يفصده ان بعد عهده ويمنعه الفصد ان قرب عهده به ويسهله ان وقف طبعه ويحبسه ان سهل ويبرده ان سخن ويسخنه ان برد ويمنعه اذا رآه قلقاً ويبشر بصحته اذا رآه ساكناً هادئاً كل هذا لانه المسكين لا يعلم ان كثيراً ما يكون القلق اصلح من السكون والاختلاط اصلح من التيقظ وسواد الاطراف اجود من بياضها وان كثيراً ما يستعمل الطبيب الدوآء المسهل فيمن طبيعته ممسكة ليسهلها وان كثيراً ما يعالج الحار بالحار والبارد بالبارد ويستعمل مع المرضى ما يضعف الاحساس والقوة

القسم الحادي عشر

﴿ في استهانة العامة بالصناعة الطبية ﴾

ولولا عجز الاطبآء عن هذه الامور لما استهان الجمهور

بالصناعة الطبية واستدلوا على نقضها من اراجيز الشعرآء واقوال العامة فضربوا لها الامثال وسحبوا عليها اذيال المقال فواحد يقول

ما للطبيبِ يموتُ بالدآء الذي   قد كانَ يشفي غيرهُ فيما مضى
هلك المداوي والمداوَى والذي   جلب الدوآء وباعهُ ومن اشترى

وآخر ينشد

والناسُ يلحون الطبيبَ وانما   غلطُ الطبيبِ اصابةُ الاقدار

وآخر يجرد ويقول هذا كله هذيان والذي اعلم ان ابن ثلثين سنة لا يموت ابن عشرين ولا يعلم ان هذه قضية قد قتلت مئة الف قتيل وآخر يقول الموت سبيل لابدَّ منه وانما الطبيب مطيبٌ للقلوب وهذا كلهُ جواب لمن قال ان الطبيب ضامن درك الحيوة وان الطبيب يشفي سائر الامراض وآخر يقول مالي اعذب نفسي بالحمية ها فلان الطبيب ما يزداد بالحمية الاصفرة (١) ومرضاً ولا يعلم

(١) نحولاً

انه لو لم يحتمِ لمات وواحد يقول انا آكل واشرب واترك التداوي واتكل على الله وقائل ذلك اذا مرض له حمار قبل فيه بمشورة البيطار وكان يجب بحسب رايه ان يتركهُ ويتكل على الله . على ان الطبيب لا يامر بالتداوي وينهي عن التوكل على الله.وآخر يقول كم مرضت وبرأت بلا دواء ولا يعلم انه لو استطبَّ لكان اسرع في برءِه وانهُ سيأتي عليهِ وقت لا تفي فيهِ القوة لدفع المرض ولا يجد من الطبيب معاونة فيهلك . وآخر يقول كم قد تداريت واحتميت فلما خلطتُ برأتُ ولا يعلم ان التخليط صادف بالاتفاق فناء مادة المرض فبرأ وان اناساً كثيرين خلطوا قبل فناء هذه المادة فهلكوا   وانشد

عابَ الطبيبَ اناسٌ لاعقولَ لهم   وماعليهِ اذا عابوهُ من ضررِ
ماضرَّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ   ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصرِ

وهذه الطوائف الجاحدة لفضل صناعة الطب اذا سمعت

الطبيب يقول هذا الغذاء يضرُّ كذا يقولون كم قد اكلناهُ وما ضرنا وما يعلمون ان الطبيعة تحامي ما امكنها عن نفسها وتعجز عن المحاماة فتعطب ويقولون ما دام الانسان خبز عند الخباز فما يضرهُ شيء فاذا جاء ابوضابط ما ينفعهُ شيء ويسمون الخبز الحياة ومعطي الحياة الخباز ويكنون الموت ابا ضابط. واذا قيل لهم ان الترياق ينفع السموم قالوا ها الترياق وها الافعى من ادعى فليبرهن واذا ذكر النبض لهم قالوا هاتان امرأتان احداهما حامل والاخرى عاقر عرفونا احداهما من الاخرى من نبضهما يريدون من الطبيب اذ يعلم من كل شخص ما هو معلوم الله منهُ على الحد الذي لا مزيد فيهِ ولا نقص منهُ ولا يقنعون بما لاح لعينه وتجلى لبصيرتهِ لانهم لا يفهمون ان هذه الصناعة تجيء بالممكن واذا عضدت بالتوفيق كانت كالضروري فليس لان احكامها ليست مدركة ومحاطاً بها في كل شخص يجب ان تكون مرذولة ومطروحة بل

تكون متوسطة بين ادراك البغية وعدمها وليس لان بعض المرضى هلك لا ينبغي ان ينظر في الطب ولا بسبب ان بعض المرضى بريء بالطب وجب ان يعول عليها في البرء ابداً والحكمة توجب توسط هذا الامر حتى يشكر الله من ينجو او تسلم نفسه من الهلاك ولهذا استصحب بقراط القضاء والبتّ بما يؤول اليه امر المرضى . وان رأوا طبيباً يقرأ في كتاب قالوا له مستهزئين به أفي هذا دواء الموت؟ فاذا قال لا قالوا ما هذه الكتب الا خرافات صدرت من عجائز خرفات وما يزيد في أجل العالم علمه ولا ينقص في عمر الجاهل جهله وما الامر الا كما قال ابو غسان الطبيب

حكم كأس المنون ان يتساوى   في احتساها الغبيّ والالمعيّ
ويحلّ البليدُ تحتَ ثرى الارضِ   كما حلّ تحتها اللوذعيّ
أصبحا رمةً تزايلَ عنها   فصلها الجوهريّ والعرضيّ
وتلاشى كيانها الحيواني   وتوارى تقويمها المنطقيّ

وهذا الكلام من الايجاز على غاية الاضمحلال والفساد

فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجة في عدم البقاء والمراتب في الدار الاخرى والناس قد يتساوون في السفر الى المدينة ويتزينون اذا وصلوا الى المستقر بحسب المنزلة بما صحبهم من الذخائر والامتعة هذا بيان بحسب الاختصار وفيه كفاية . ويعظمون البيطرة على الطب لانسهم بالبهائم وشبههم بها وينظرون بالمحبرة (١) ويسمونها خرزة الشؤم ومحرفة (٢) الحرفة واذا رأوا طبيباً مكباً على العلم قالوا مقرون بالحذق ضيق الرفق (٣) واذا تكلم ودقق في مسألة قالوا سوداويّ اعتقاداً ان العلم يخرج الى الجنون فان لم يفهموا ما يقول قالوا هذه زندقة فان نظرهُ فريقٌ منهم انشد الفريق الآخر

وماتنفعُ الآدابُ والعلمُ والحجى   وصاحبها بعد الكمال يموتُ

(١) الدواة
(٢) الة الكسب
(٣) اى الانتفاع يقال ارتفقت به اى انتفعت به

ولا يقولون في الاغذية حارة وباردة لكن هذا
غذآء ميال يريدون مستحيلاً كالبطيخ وهذا بطبع الموت
اي انه بارد يابس ويسمون الرطب ليناً ويقولون ان
المشمش بطبع الحمى والبلوط قولنج وهذا كله قريب وانما
المصيبة العظمى اعتقادهم في الكافور والثلج انهما حاران
وفي الرازيانج(١) والحنآء انهما باردان وان ماء الشعير بطبع
الصفرآء كل هذا من عجز الاطبآء وقلة خبرتهم بكتب
القدمآء فانقرضت الصناعة ووهى نظام سلكها وأخلق
جديدها وتفرق ايدي سبا عديدها فهانت في النفوس
ودرست (٢) عند الناس وخلت من الفضلآء فصار الآن
يتعاطاها القوابل وقوام (٣) الهياكل ويعتادون (٤) في

(١) بقله وقيل هو الانيسون وقيل الشمر
(٢) ماتت
(٣) جمع قيم
(٤) اعتاد الشي انتابه اى صيره عادة لنفسه يقول انهم اتخذوا عادة لانفسهم ما يصفه الاطباء للمرضى

صفات الاطباء فذهب رونقها وأخلقت بهجتها وصارت
كالفضل الذي لا يحتاج اليه وبطل الطب البقراطي وظهر
طب لم يأمر الله سبحانه على السنة اصفيآئه بشيء منه .
فبينما هم في الكلام اذ طرق الباب مريض فاذن له
في الدخول فلما حضر سلم وجلس واستأذن في وصف ما
يجده فاذن له فقال ياسيدي اني اجد نشفاً في فمي ورياحاً
في أحشآءي واعتقالاً في طبعي وبصاقاً وبلاغم في معدتي
ورطوبات تسيل على مخدتي واذا شربت البارد ازداد
لهبا واذا شربت الحار سكن في الحال اكثر ما اجد ومع
هذا بينما تراني ضاحكاً حتى عدت باكياً . آمالي قصيرة
وافراحي يسيرة هضمي قليل وغذآئي كثير حشاي يحترق
وبولي ابيض يقق . واذا شكوت ما بي الى الاطبآء نسبني
بعضهم الى الكذب ولم يزدني آخرون على تحريك الرأس
والعجب . قال الشيخ هذا مما كنا فيه قد صدقت في
جميع ما ذكرت وهذا مرض ينفع فيه العلاج بالاشيآء

الحارة ولكل ما ذكرتَ اسبابٌ واضحة يحتاج شرحها الى زمان ممتد وتفريغ قلب وعقل جيد فعول على الحمية وعد اليَّ دفعة ثانية فودعنا وانصرف فاومأ الى تلميذه وقال غنِّ صوتاً فاندفع يغني

منّةٌ للكرى وطيفِ الخيالِ   جددتْ بيننا عهودَ الوصالِ
كانَ قد ساعد الرقيبُ بها لو م   لا فضولُ السوارِ والخلخالِ

فالتفت اليهِ مغضباً وقال اين تذهب بك ؟ أهذا من اقتراحات الاطبآء واصوات الحكمآء ؟ أما علمت انهُ قبيح بالمغنى ان يغني في تموز

قفي بالله يامطرُ   فكثرة ما يجي ضررُ

وقبيح ان يغني بالعشى

تصبح بوجه الراح والطالع السعدِ

وقبيح بانه يغني في العرس

احسن ما كان تفرقنا   فخاننا الدهر وما خنا

وقبيح ان يغني لشريف

الك عيدُ الصليبِ تلعبُ فيه   ولنا المهرجان والنيروزُ

ثم قال غنِّ احد اصواتي التي اقترحتها في مبدإِ سكري فاندفع وغنى بشعر العباس بن الاحنف

زعموا لي انها باتت تُحم   ابتلى الله بهذا من زعمْ
اشتكت مما بهِ كانت كما   يشتكى البدرُ اذا ماقيل تم
ليت بي شكواكِ ياسيدتي   فلكِ الاجرُ وان طال السقم

فشربوا وملأوا الاقداح فهزجه في شعره ايضاً

يا ايها المحمومُ نفسي فداكْ   مالي من الدنيا سرورٌ سواكْ
قد كان بي سقمٌ وقد زادني   سقمُك سقماً وبلاني بلاكْ
فليتني حُمّلتُ عنكَ الذي   تلقى لكي يجمعَ هذا وذاكْ

فطرب ابو ايوب الكحال وقال اسمعوا يا اخوان الصفآء وبقية العلمآء فوحق منشىء الطبائع ومبدىء البدائع لو كتب هذا بالمباضع في المسامع وقع اجل المواقع فشرب القوم وطربوا وزاد الشيخ في حد الانتشآء فلما دبت فيه حُميا الكأس وانتشرت منه في المفاصل والرأس

اخذ في هذيانه وبث اشجانه وقال ياخي قد تعبت في جمع العلم وكددت نفسي في قرآءة الكتب وما بلغت بصناعة الطب غرضي من الكسب وسبب ذلك ان مروءات الناس قد سقطت ونفوسهم قد خست وصغرت وقد مضى العمر وكبر السن وانا ماضٍ وما اخلف ولداً يحيي ذكري ولا حميماً يبكي على قبري وتمثل بقول الاول

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم اجدْ   سوى مجلسي في الطبِ والعلم والكتب

ثم ارخى عينيه ساعة بالبكآء وانصرف القوم

القسم الثاني عشر

(في خاتمة الكتاب وذكر سبب انقطاع الزيارة والاجتناب)

وبقي ابو جابر تلميذهُ فالتفت الى غلامهِ وقال اسقني قدحاً وقال غنني بقول الشاعر

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ   ميتةَ جالينوسَ في طبّهِ
وربما زادَ على عمرهِ   وزادَ في الامنِ على سربهِ

ثم مال على جنبهِ نائماً فنهضتُ على رجلي قائما

فلما هممتُ بالانصراف قال لي الغلام أتمضي ياسيدي وتتركني وهذا المسكين الذي قد كدَّ يومهُ وغنى حتى بحَّ حلقهُ جائعين. فقلتُ وما سبب جوعكما وفي الدار طعام فقال متى انصرفتَ لم اتجاسر على سقيهِ ولم اقدر على التعرض بهِ وان اقمت احتججتُ بك ودخلتُ انا وهذا الفتى في غمارك (١) فصغت نفسي الى اطعامهما وسقيهما غيضاً (٢) من شحهِ ومكافأة على بخلهِ فاعاد الحمل وقدم الطبق فلم نبق ولم نذر. وعدنا الى الفالوذج فاثنينا على بقيته وملنا نحو الشراب فشربنا فضلتهُ وغنى ذلك الفتى

نُبئتُ أن النارَ بعدكَ أُضرِمتْ   واستبَّ بعدكَ يا كليبُ المجلسُ
وتحدَّثوا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ   لو كنتَ شاهدهم بها لم ينبسوا

وطاب الوقت واتصل الشرب. بينا فبينما نحن على

(١) يقال دخلت في غمار الناس اى في زحمتهم وكثرتهم واصله من الغمر وهو الستر والتخفية

(٢) مصدر غاض الماء اى نقص وقل ونضب

هذه الحال اذ رفع الشيخ رأسهُ متيقظاً فلما رأى وقد تفرغ الجام من الحلوآء وابيضت عظام الشوآء قال ما هذا التبسط في منزلي والتحكم في مطعمي ومشربي . قلت تذكرتُ قولك قال وما هو قلت

أُضاحكَ ضيفي قبل إنزال رحلهِ فيخصبُ عندي والمحلُّ جذيب

قال الاشرار يتبعون مساوىء الناس كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة من البدن. قلت ياسيدي ما تناولنا منهُ الا القليل وكنا قادرين على الكثير . قال صدق افلاطون في قوله « لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم » أما تعلم ان كحل اصفهان يأتي على الجمال ويفنى بالاميال قلت ياسيدي انت دعوتني الى منزلك وعرضت عليّ طعامك وشرابك فما زرتُ مثقلاً ولا حضرتُ عندك متطفلاً قال قد فعلتَ ما هو اقبح من التطفيل واصعب من التثقيل لانك حرزتني (١) من نفسك

(١) اى جعلتنى احترز

وزعمت انك لا تقدر على شرب الشراب واراك تكرع منهُ بالارطال والاقداح والذنب لي في الاغترار بك والانخداع لك . ثم استوفى على نفسه اليمين انه لا يضيف غريباً بقية عمره ولا يأْذن لاحد في دخول منزلهِ فنهضتُ من عنده وغبتُ عنه عدة ايام وعاودت دارهُ فاذا بهِ مراعياً للطريق من شباك فلما نظرني صاح ياغلام احفظ الباب والمرق فقد ورد الغرار المملق (١) واخاف ان يلج الدار ويتسلق . فلما رأيتهُ بدأْتهُ بالسلام وغمرتهُ بالاعظام والاكرام فاعرض ولم يرد السلام فانشدت

كأنْ لم يكنْ بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

فقال الشيخ

بَلى نحن كنا اهلها فأَبادنا صروفُ الليالي والطبيبُ المسافرُ

ثم قاطعني واغلق باب الشباك فكان آخر عهدي به

(٢) من املق اى افتقر والغرار صيغة مبالغه من غره غروراً وغرة خدعه واطمعه بالباطل

قد وفينا بما ضمنا بقدر ما جادت بهِ القريحة وساعدت عليه العبارة وجعلنا الهزل طريقاً الى الجدّ اذا كان الانسان متردداً بين الحس والعقل. وقد ذكرنا اسماء غير دالة على اشخاص معروفين ليصل الفهم الى القارئ بهم على وجه المجاورة ووسعنا الكلام لان اللسان اذا وجد مسرحاً لم يقف الخاطر واذا أصاب سخاءً لم يكف على اننا لو اردنا فرش الكلام لتعرضنا لحدوث الملال والسآم. ونرجو ان يكون ما اتينا بهِ مدركاً لرضى من حث على نظم منتثره وجمع منتشره. والله نسأل ان يخرجنا من هذا الفناء المحشو بالعناء بعد العناء (١) الى حضرة القدس ومقر الانس مع مراد النفس في ملكوت السماء حيث لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب انهُ سميع مجيب

تمت الرسالة بحمد الله ومنهِ وحسبنا
الله ونعم الوكيل

---

(١) العناء الذل من عنا يعنو والعناء النصب

تكملة الحديث

في

الطب القديم والحديث

الدكتور بشارة زلزل

المقدمة

ترى أيها القارئ الالبيب أنّ هذا الكتاب وقد تمثّل لك في صورةٍ من حسن الطبع يرتاح اليها النظر . وتجمل بتصحيح عبارته وتهذيب بعض الفاظهِ على طريقةٍ لا يمجها الذوق ولا ينبو عنها البصر . حريٌّ بأن تحلّه محلّ القبول والاستحسان . وتفسح له من بصيرتك النقّادة مجال التروّي والامعان . وتتدّبر ما تضمنه من الحكَم الناصعة . وتعمل بنصائحهِ النافعة . وتستفيد من آدابهِ الرائعة . واذا شئت ان تعفيني من تنميق الكلام وتطريزه . في مدحهِ وتقريظه . تحاشياً من ترديد النغم الواحد لثقلهِ على السمع . وتنكبًا عن خطة التحدّي لانها صارت نافرةً على الطبع . فلستُ أُعفيك من ان ترجع معي القهقرى تسعةً من القرون . وقد تقلّص ظلُّ الدولة العربية عن بغداد دار العلوم والفنون . لترى كيف يكتب المصنف بلغة ذلك العصر . رواية كما نوّر الزّهر . موّهَ بها الجدَّ بالنكات الهزلية . وضمّنها من الحكم الفلسفية . والوصايا الصحية . والمسائل الطبية . ما يستفيد به كلّ انسان . فكأَنها تنطق بكل لسان . او كأَنهُ من ابنآء هذا الزمان . وقد التفَّ حواليهِ المنخرقون . وهو يحاول تقويم المنآد

واصلاح الشؤون

واذا كنت

لا ترى ,, الاوائلَ '' شيئاً وترى للأواخر التقديما

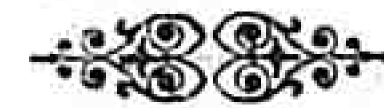
فلا يسعك ان تنكر

ان هذا القديمَ كان حديثاً وسيبقى هذا الحديثُ قديما

فربَّ قضيةٍ مسلمةٍ الآن . ستُنقَضُ في مستقبل الزمان .
لعدم تحققها بالبرهان . وثبوتها بالعيان . ولا مرآء في أنَّ العلم قد
وشجت لهذا العهد أعراقهُ في تربة التحقيق . واخضلّت اوراقهُ بعد
اذ سُقي بماء التمحيص والتدقيق . على ان فضل القدماء لا يُنكر
والاغضاء عن بيان فضلهم لا يُشكر . فنحن انما بنينا على اساسهم .
واهتدينا بنبراسهم . على ما سيتضح في هذه المقالة التي اقترحها عليَّ
بعض الاصحاب . فلم اجد ندحةً عن الاجابة رغبةً في تعميم
الفائدة للطلاب

وان تكن مُحكمات الشُّكل تمنعني ظهور جريٍ فلي فيهنَّ تَصهالُ

لكن رايتُ قبيحاً ان يُجادَ لنا وانا بقضاء الحقِّ بُخَّالُ



الفصل الاول

﴿ في مبداءِ علم الطب ﴾

خُلق الانسان محفوفاً بالاخطار والمهالك معرَّضاً للتأثر
بالفواعل الطبيعية مما يُحدث في بنيتهِ تغيراً تخرج بهِ عن خطة
النظام القائم بحفظها وتدبيرها وغاتها حريصاً على طلب النافع ودفع
الضارّ مولعاً بالبقاء مجتهداً في صيانة نفسهِ من العوارض التي
تطرأُ عليه محمولاً بالطبع على التوجع والتألم منقاداً بالضرورة
الى تجربة ما ظنهُ نافعاً لهُ فكان في مبداءِ امرهِ طبيب نفسهِ
ثمَّ لما كان اليفاً بالطبع مفطوراً على رقة العواطف والشفقة على
المصابين والمتألمين صار بعد ذلك طبيب غيرهِ فمبداءُ الطب اذاً
الميل الغريزيُّ في الانسان الى مزاولة الوسائط العلاجية واستعمالها
بمقتضى الشفقة والمناصحة وغايتهُ ,, شفاء الادواء احياناً وتخفيف
الآلام غالباً وتعزية المصاب دائماً '' [1]

فبناءً عليه يكون علم الطب موجوداً مع خلق الانسان لانهُ
ضروريٌّ في صلاحهِ فهو من شؤون الفطرة السليمة بدليل كونه

(1) Introduction du dictionaire de médecine et de thérapeutique médicale et chirurgicale, par E. Bouchut et A. Després

غريزيًا في الحيوان على ماثبت بالمشاهدات الكثيرة فترى السنانير اذا حصل لها وجعٌ في بطونها لحست الزيت من المصابيح وكذا تأكل العشب في الربيع وليس هو من اغذيتها فاذا اكلتهُ تقيأت والثعلب اذا ولد وخاف على اولادهِ من الذئب جعل حول وجارهِ من بصل العنصل فان الذئب اذا مشى على بصل العنصل اعتلَّ وربما مات قال الرازي ان طائراً كثير الغذاء بالسمك يأخذ من ماء البحر بمنقارهِ ويحقن بهِ نفسهُ اذا احتبس بطنهُ فيخرج منهُ الثفل ومنهُ تعلم الناس الحقنة [1] . ومن المقرر ان الانسان عوَّل في بدء امرهِ على التجربة لمداواة نفسهِ وعلاج ابناء جنسهِ وتوسع بذلك حتى صار مجموع النتائج المحصَّلة من هذا القبيل على توالي الايام وتعاقب العصور علماً واسع المجال بعيد المنال بما ضُمَّ اليه من المجرَّبات وما استنبط فيهِ من طرق الاستقراء والاستدلال [2]

ولما كثر الناس وانتشروا على وجه البسيطة وتفرقوا قبائل وشعوباً دعت الضرورة الى تخصيص فئة من كل قوم للسيطرة والزعامة محافظةً على النظام وتقريراً لاصول السياسة فنشأت مبادئ

(١) مقدمه كتاب الجوهر النفيس فى شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازى

(٢) الطيب • فى الطب والاطباء . للموءلف

الرئاسة [1] والانسان ميالٌ بالطبع الى الاستقلال لا ينقاد الى غيرهِ الا مُكرهاً مدفوعٌ بحكم الضرورة الى مغالبة الطوارئ الطبيعية ومنازعة امثالهِ ليتسنى لهُ البقاء مفطوراً على حب السلطة بما يتهيأ لهُ من الوسائط فلا بدع ان اعتصمت هذه الفئة بالقوة لتأييد رئاستها وتعلقت باسباب الاستبداد لتمكين سلطتها واتخذت من خوارق الطبيعة اسباباً تخلب عقول البسطاء للانقياد لها والتسليم لاحكامها وليس شيءٌ اقرب في اختلاب العقول وتقرير الصلة بين الخالق والمخلوق من صناعة الشفاء وعليه قولهم الطبيب واسطة بين الله والمرضى [2] فاختص الطبُّ بالكُهَّان من قديم الزمان وكانوا يستنزلونهُ وحياً على زعمهم ويتخذونهُ ذريعةً لاثبات دعوى المعجزات ويقتبسون نوره من وراء الطبيعة . وكانت العامة يُعظمونهم لما تخيَّلوا من كراماتهم ومقدرتهم التي تفوق طور العقول فانقادوا اليهم صاغرين ثم زاد وهمهم فألهوهم بعد موتهم وعبدوهم واقاموا لهم الهياكل والانصاب يقربون فيهـا القرابين والذبائح ويحرقون البخور ومن خالف الجمهور في اعتقاده عدُّوهُ مجرماً او كافراً فنكلوا بهِ تنكيلاً

(١) انظر مقدمه ابن خلدون

(٢) دعوة الاطباء صفحه ٣٢

وكانت الهياكل بمثابة بيوتٍ للمرضى يجتمعون اليها طلبا للشفآء وكان لسدَنتها السلطة على النفوس والاجساد لا يُعارضون في ما يعملون لانهم اتخذوا الوحي والالهام دريئة لهم فكانوا يعالجون بالعقاقير على سبيل التجربة كما يترآى لهم ويقيّدون ما تعاموهُ وجربوهُ على جدران الهياكل ليستفيد بهِ الخالف من ذريتهم لا يبحون سرَّهُ لسواهم ولايستعملهُ غيرهم . وهذا ما سماهُ جالينوس بطب الهياكل

وانحصر الطب في اليونان بآل اسقليبُس وهو عندهم إله الصحة والطب [1] نشأ القول بألوهيته في تساليا مسقط رأسه على ما ادَّعوا ولهم بشأنهِ قصصٌ خرافية نعدُّها من اساطير الاولين . وكان لهُ في ارغوليد من إليريا هيكلٌ كبير اقيم بجانبه بنآء فسيحٌ للمرضى . وكذلك كان لهُ في اثينا هيكل عظيم في سفح الاكروبول الجنوبي حيث وجد في انقاضهِ ادراجٌ اثريةٌ كُتب فيها شكر المرضى على شفآئه اياهم وصفات العلاج الذي استعمل لهم .واشتهرت ايضاً مدينة برغامس في آسيا الصغرى بعبادة اسقليبس وكانوا يصورونه قابضاً بيدهِ على عصى التفَّت عليها حيتان والى جانبه ديكٌ فالحية رمزٌ على تجدد الشباب لانها تنسلخ في بعض فصول

[1] Esculape, Æsculapius, ΑΣΚΛΗΠΙΟΣ voy. la Grande Encyclopédie

السنة . والعصى او الصولجان رمز على السلطة . وقال سقراط ان المرضى الذين كانوا ينالون منهُ نعمة الشفآء كانوا يقدمون لهُ ديكاً فالديك الذي يرى الى جانب صورتهِ يشير الى تقدمة الشكر على حصول البرء . قال ابن القُفّ [1] ان اسقليبس سُمي متألهًا لانهُ رُفع الى السمآء لشرف صناعتهِ بعد ان نشرها في الارض واودعها في اهلهِ ولم يخرجها منهم فكان اهلهُ من بعدهِ يعاهدون بعضهم بعضاً ان لا يمكّنوا احداً خارجاً عنهم ان يقف على شيء من علم هذه الصناعة بل كانوا يعلّمونها لاولادهم وكانت المواضع التي يُعلَّم فيها الطب ثلاثة احدها المدينة المعروفة برودُس والثاني مدينة قوس والثالث المدينة المعروفة بقيدوس . وان الاطبآء الذين كانوا في هذه المدن الثلاث كانوا ايضاً من آل اسقليبس . فلما مضى عدة قرون باد علم الطب من رودُس وانطفأ مصباحهُ من قيدوس ولم يبقَ من اهله في قوس الا نفر قليل فكادت هذهِ الصناعة يزول اسمها ويمحى رسمها لولا ان نبغ بقراط بن ارقليدس حفيد

(١) شرح فصول بقراط لابن القف : مجلد ضخم عليه خط المولف بالكلدانيه وفى اخره : بلغ قراءة على مصنفه فصح وكتبه العبد الفقير يعقوب النصرانى الملكى المذهب لنفسه ووافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب عشيه الخميس ثالث عشر شهر رمضان سنه ٦٨٣ هـ

بقراط الاول من آل اسقيليبس فعُني بجمع اصول الطب من الهياكل وتدوينها في الصحف وتعليمها للطلبة . ولكي يخرج نفسهُ من الاثم بنسخ عهد السلف كتب ميثاقًا على كل من يتلقى هذه الصناعة هذه صورتهُ ,, أُقسم بالله رب الحياة والموت وخالق الشفآء وواهب الصحة . وأُقسم باسقيليبس وباولياء الله جميعاً لأتخذنَّ المعلمين لي صناعة الطب بمنزلة آبآئي أبرُّ بهم وأُواسيهم وأصلهم عند الحاجة بمالي . واعتبر ابنآءهم بمثابة اخوةٍ لي واعلّمهم هذه الصناعة ان احتاجوا بدون اجرةٍ ولا شرط · واشرك بين اولادي واولاد معلميَّ وتلامذتي في جميع حقوق الصناعة · واحرص على نفع المرضى جهدي بما اتوصل اليه من التدبير . وامتنع عن اجرآء كلما يضرُّ فلا اعطي دوآء يسقط الحمل ولا اشير بهِ . واحفظ نفسي على الطهارة والزكاة · واصون ذاتي بالعفاف · ولا ابيح بالاسرار التي أُوتمن عليها ''

وذكر الشيرازي شارح ارجوزة الشيخ الرئيس ترجمة بقراط فقال ,, تفسير لفظة بقراط ماسك الارواح وانما كان اسمهُ الاول بقراطيس وكان سابع الاطبآء المشهورين من اليونان تعلم العلم من ابيهِ وجدّهِ وكانت صناعة الطب قبلهُ مخفيةً يدّخرها من يتعلمها وكانت في اهل بيت واحدٍ وهو اول من أحدث البيمارستان

وسماهُ اخشندوكين (١) ثم ان الذي جآء بعدهُ سماه بيمارستانًا لان لفظة البيمار المرضى وستان الموضع . قال جالينوس كان بقراط اماماً في علوم كثيرة منها علم النجوم والفلسفة والطبيعيات والالهيات ولم يكن لهُ رغبةٌ في الدنيا ولا في خدمة الملوك ولما سمع به ملك الفرس ازدشيرماه انفذ اليهِ مائة قنطار من الذهب على ان يتحوّل اليه فامتنع وأبى ان يقبلها وقال

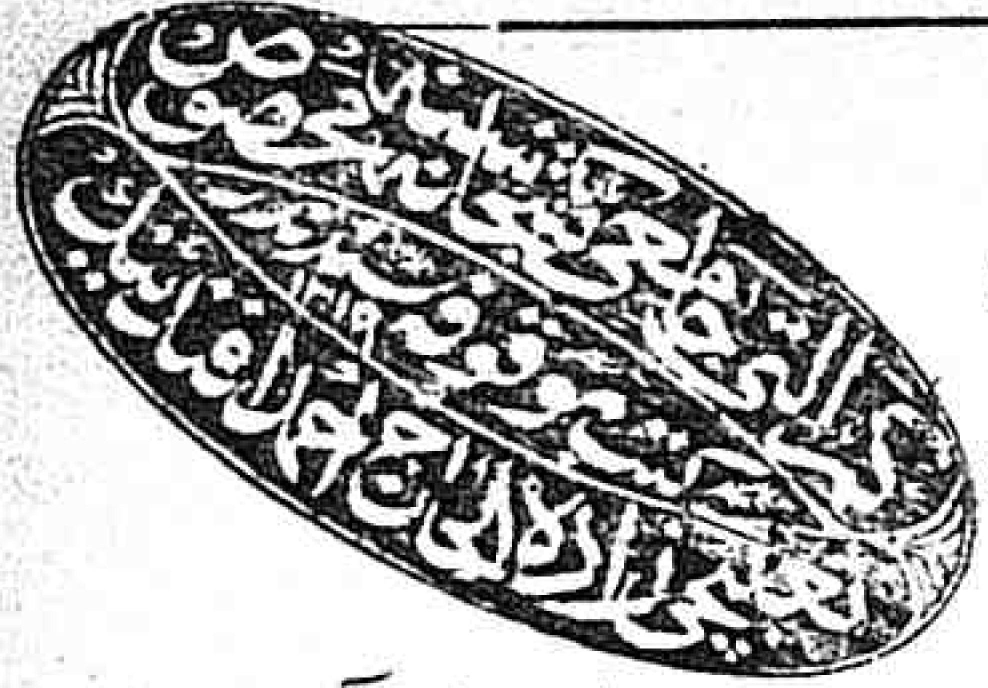
(١) وفى المقريزى اصدولين · «قال الجوهرى فى الصحاح» المارستان بيت المرضى معرب عن ابن السكيت · وذكر الاستاذ ابرهيم بن وصيف شاه فى كتاب اخبار مصر ان الملك مناقيوش بن اشمون احد ملوك القبط الاول بارض مصر اول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى · ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة اخميم وبنى سنتريه · وقال زاهد العلماء ابو سعيد منصور بن عيسى اول من اخترع المارستان واوجده بقراط ايوقليدس وذلك انه عمل بالقرب من داره فى موضع من بستان كان له موضعا مفرداً للمرضى · وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه اصدولين اى مجمع المرضى واول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٨ هـ وجعل فى المارستان الاطباء واجرى لهم الارزاق وامر بحبس المجذومين واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق · ويطلق العامه الان اسم المارستان على دار المجانين ويخصون دار المرضى بالمستشفى وهو مولد وربما قالوا اسبتال وهو فى الاصل دار الضيافه · لاتينى

لست أبيع الفضيلة بالمال . وكان مقبلاً على الاشغال وكان قليل الاكل كثير الصوم يقول انا آكل لأعيش لا أعيش لآكل . قال بعض القدماء كان لبقراط ثمانون مصنفاً في الطب ولما مات خلف ابنين وبنتاً . قيل كانت اعلم بالطب من اخويها ومن اقواله „كل مرض معروف السبب موجود الشفاء" ولد سنة ٤٦٠ ق م وتوفي على الارجح سنة ٣٧٧ ق م في لاريسا [1] وقد اقيم له نصب من حديد في اثينا كتب عليه „تذكار لبقراط المحسن الينا مخلصنا" ونسب اليه الذين جاءوا بعده مصنفات لم تكن له وحكوا عنه قصصاً عجيبة ولا يبعد ان يكون النساخ في عهد الدولة اللاغوسية قد نسبوا اليه من الكتب ما لفقوه طمعاً بالربح لان البطالسة كانوا يبذلون الاموال الطائلة في شراء الكتب النفيسة واستنساخها وترجمتها فكثر المحتالون حينئذٍ وراجت بضاعتهم في تزوير الكتب ونسبتها الى جهابذة المتقدمين

وقد عني ليتراي اخيراً بجمع مؤلفاته عن الاصل اليوناني وترجمها الى اللغة الفرنساوية في عشر مجلدات طبعت مع الاصل اليوناني في باريس سنة ١٨٣٩ — ٦١ [2]

(1) Hippocrate, Grande Encyclopédie

(2) Littré: Œuvres d'hyppocrate (Paris, 1839-61) 10 vol in-8 avec le texte grec et trad. francaise



الفصل الثاني

في الطب البقراطي

نبذة أُولى

جرى بقراط في وضعه قوانين الطب ومزاولة صناعة الشفاء على مبدإ الاختبار الشخصي والاستدلال العلمي فجمع بين التجربة والقياس وقرن العلم بالعمل . وكان سلفاؤه يعوّلون في تجاربهم على الإلهام ويهيمون في اودية الأوهام . فمهّد لخلفائه سبيل التحقيق وبقي مذهبه شائعاً وتعليمه راسخاً الى امدٍ غير بعيدٍ لان الفلاسفة الذين جاءوا بعده نسجوا على منواله ولم يغيروا من مبادئه شيئاً . على ان اكثرهم اعتمدوا على مصنفاته فتوسعوا في تفهم معانيها وعلّقوا عليها الشروح الطويلة وبعضهم تحرّى طريقته في وصف الامراض واسبابها واعراضها وعلاجها فرتبها على نسق يقرّبها من الفهم كما فعل اريسطو . ومنهم من تصدّى لتجربة العقاقير ومعرفة خواص الادوية فكشفوا كثيراً منها كما فعل دسقوريدس واندروماخس

وكانت اثينا لذلك العهد مهبط اسرار الحكمة ومجتمع الفلاسفة الذين اناروا بتعاليمهم اقطار العالم حتى بُنيت مدرسة الطب في الاسكندرية وأنشئت مكتبتها الشهيرة فتحول اليها كثيرٌ من فلاسفة

اليونان وبذل البطالسة جهدهم لترويج بضاعة العلم وجمع الكتب فازهر مصباح الحكمة فيها بعد ان خبا نورهُ في سائر مدن العالم ·

وقد امتازت مدرسة الطب في الاسكندرية بانها اول مدرسةٍ عني فيها بتشريح الجثث البشرية وأُجريت فيها التجارب العامية على الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضاء · ومن اساتذتها هيروفيلوس الخلقيدوني (1) تلميذ بركساغوراس من آل اسقيليبس وكان هذا من اطباء مدينة قوس جاء الاسكندرية في آخر حكم بطليموس فيلادلفوس واجتهد بمزاولة التشريح في مدرستها وكان يجلّ بقراط كثيراً ولكنهُ لم يقرّ لهُ ببلوغ غاية العلم كما كانوا يزعمون ولم يسلم لهُ بصحة ما ذكر عن اسباب الامراض وحقيقتها · وقد شهد جالينوس انهُ لم يكن لهُ في التشريح كفوءاً احد · فهو على الحقيقة مؤسس هذا العلم ولا يزال ذكرهُ مخلداً ما الف فيه كتاب

وكان ايرازستراتوس معاصراً لهيروفيلوس وزميلاً لهُ وهو من تلامذة مدرسة قيدوس الاَّ انهُ اتخذ خطةً مخالفة لمعاصريهِ وسابقيهِ فتحرّى نقض آرائهم زاعماً ان الشرايين لا تحمل الارواحا وان الدم الذي ينزف عند قطع احدها انما يتطرّق من الاوردة

(1) A. Laboulbène: La Revue scientifique tome XXX de la collection - 1882
Grande Encyclopédie: Ecole de médécine d'Alexandrie

ولم يعتدّ كثيراً باسباب الامراض العامة ولكنهُ علّق على الاعراض الاهمية الكبرى وزعم ان منشأ العلل خللٌ في الغذاء فكان يعوّل في العلاج على المسهلات

وممن نشأ في مدرسة الاسكندرية في ذلك الزمن فيلينوس وسرابيون (1) وكلاهما ذهبا الى انَّ العمدة في صناعة الطب انما هي التجربة وبنيا طريقتهما على ثلاث قواعد الاولى ان الفصاحة لا تجعل الانسان حاذقاً في فنّهِ والعامل بارعاً في صناعتهِ بل العمل والممارسة والثانية اذا عرفتَ الدواء فلا تهتمّ بمعرفة سبب الداء · والثالثة لا يُشفي العليل تنميق الكلام ولكن العلاج · وهذه القاعدة كانت كثيرة الاعتبار عند الاسكندرانيين · ونشأ على اثر ذلك مذاهب أُخر كثيرة اشارَ اليها جالينوس في مصنفاتهِ وذكر اصحابها وردَّ عليهم وفند مذاهبهم

اما مكتبة الاسكندرية فقد صرف البطالسة الاموال الطائلة بانشائها وجمعوا فيها الكتب التي استنسخوها باجور باهظة من جميع الجهات فكانت تشتمل على مئات الالوف من ادراج

(1) Philinus, de Cos; Sérapion, d'Alexandrie.

البَرْديّ المصرية والرقوق البرغامية [1] والكتب القيّمة في جميع العلوم واللغات . قيل انها كانت تشتمل على سبعماية الف مجلدٍ . واذا اعتبرتَ ان الطباعة لم تكن معروفةً حينئذٍ وان العلوم لم تكن منتشرة كما هي الآن وان طريقة نسخ الكتب لم تكن سهلة وقليلة الكلفة لم تجد مخرجاً للتعليل عن امكان جمع هذه الكتب الا بان المجلَّد الواحد انما كان مؤلفاً من بضعة صفائح كما زعم بعضهم [2] فقدَّرأنها لا تزيد على خمسين الف مجلدٍ بالنسبة الى الكتب المتداولة بين أيدينا . وقد حُرِق قسمٌ من هذه المكتبة سنة ٤٧ ق.م . اذ كان يوليوس قيصر يحاصر المدينة . قيل ان القسم الذي احترق حينئذٍ كان فيهِ اربعمائة الف مجلدٍ . فعوض عن هذا القسم بمكتبة سرابيون ومكتبة برغاموس وكانت تشتمل على مائتي الف مجلدٍ وهبها مرقس انطونيوس الروماني لكليوبترا ملكة مصر . وزعم ابو الفرج الطبيب المؤرخ ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية [1] ارسل

(١) البردى نبات له ساق هشة كان اهل مصر فى القديم يعملون منه القراطيس Papyrus . قيل ان ملوك مصر منعوا اخراج البردى من بلادهم فاستنبط اهل برغامس الرق يتخذونه من جلود المعزى وغيرها للكتابة بعد صقلها ولذلك سمى بالرق البرغامى (mambrana pergamena)

(2) A. Laboulbène; Revue scientifique 1883. tome: XXXII de la cellection P. 648
Grande Encyclopédie; Bibliothèque

الى عمر بن الخطاب يخبرهُ بالفتح ويستشيرهُ بأمر المكتبة فكتب اليهِ " ان كانت هذه الكتب مخالفةً لكتاب الله فلا حاجة لنا بها وان كانت موافقةً لهُ ففي كتاب الله غنىً عنها " فامر بحرقها وبقوا ستة اشهر يوقدون بها الافران . وسواء كانت هذه الرواية صحيحة او غير صحيحة فقد سبق بطاركة الاسكندرية الى تعطيل الموزايوم الشهير ونهب المكتبة مراراً منعاً للوثنيين واليهود من تعليم فلسفتهم . وقال كلوت بك [1] ما ملخصهُ : ان الكتب التي حُرقت بامر ابن العاص كان اكثرها من كتب الفلاسفة الجدلية والدينية اما مكتبة ارسطو ومصنفات بقراط وجالينوس وافلاطون فقد سلمت وبقيت وهى التي عُني الخلفاء بترجمتها الى العربية

وممن نبغوا في مدرسة الاسكندرية الفيلسوف الشهير كلوديوس جالينوس جاء اليها في مقتبل عمرهِ وقد أدبهُ الدرس وحنكتهُ التجارب وبقي اربع سنين يشتغل في التشريح ويتخرج في علم الطب حتى بلغ غايتهُ منها . وُلد في مدينة برغامس (من ميسيا في آسيا الصغرى) سنة ١٢٩ م على الاصح [3] وكان ابوه نيقور من اشراف هذه المدينة

(1) Aperçu général sur l'Egypte Par A.-B. Clot-Bey; tome II. p. 331

(2) La Revue scientifique ;1882. Travau de Daremberg sur Galien

(٣) جاء فى موسوعات العلوم الفرنسوية انه ولد سنة ١٣١م

واغنيائها وحكمائها فعني بتهذيبهِ وتعليمهِ حتى بلغ عمرهُ السنة الخامسة عشرة ثم سلمهُ الى الفلاسفة الافلاطونيين ليعلموهُ الفلسفة ولما صار عمرهُ ١٧ سنة رأى في الحلم ان يعلمهُ الطب . ومات ابوهُ وعمرهُ ٨١ سنة . ولما بلغ السنة العشرين جاء الى ازمير والف فيها ثلاث رسائل ثم جاء الى الاسكندرية وبقي فيها اربع سنين كما تقدم ثم آب الى موطنهِ يشتغل بالتطبيب حتى بلغ من العمر ٣٣ سنة فجاء الى رومة في بداية حكم مرقس اوريليوس قيصر وكان يلقي على العموم الدروس الطبية والفلسفية الى ان تفشى الطاعون سنة ١٦١ فارتحل عنها وقد عيب عليهِ ذلك . ثم طلبهُ الامبراطور صديقهُ الى رومة وأمرهُ ان يذهب مع الجيش في بعض حروبهِ فأبى زاعماً ان اسقليبس اوحى اليهِ في الحلم ان لا يترك رومة فرغب القيصر اليهِ بتعليم اولادهِ وكان يشتغل بالتآليف . وكثرت المشاحنات بينهُ وبين اطباء رومة فغالبهم وغلبهم ولم يسلم من نقدهِ احد الا انهُ كان يجلّ بقراط ويحترمهُ ويثني على هيروفيلوس لبراعتهِ بالتشريح . توفي وعمرهُ سبعون سنةً في مسقط رأسهِ برغامس

وكان الاطباء في زمن جالينوس مختلفين في الآراء والمذاهب ففريقٌ كان يعوّل على التجارب دون القياس . وفريقٌ كان

ينكر التجارب فلا يعرف للطب الا مزية العلم . وزعم قومٌ ان المرض انما يحدث في المادة المؤلف منها بدن الانسان وليس للطبيعة دخلٌ في اصلاح الخلل الحادث فيجب ان يقاوم بالعلاج الموافق لان التوقف مضرٌّ . وقال آخرون ان المرض ليس الا الخلل الحادث في الاخلاط او احدها تخرج بهِ عن حد الاعتدال والطبيعة انما تقتضي الموازنة فلذلك يقوم اصلاح الخلل بمساعدة الطبيعة والعبرة بالتوقف [1] . ومنهم قوم اعتمدوا على السفسطة والترّهات فسمي بعضهم بالمخرقين وآخرين بمنمقي العبارات والمشّارين والمقلّدين . قال الشيرازي لما ظهر جالينوس كانت صناعة الطب قد اندرست ومُحيت محاسنها وخُفي اكثرها فاحياها بعد موتها واظهرها بعد خفائها وحررها بعد تبديلها . صنف في اكثر فروع الطب كتباً كثيرة وشرح مصنفات بقراط في ١٥ كتاباً وحكى ترجمة حياتهِ في مقدمة كتاب عملهُ لقراءة كتبهِ . واكثر مصنفاتهِ تُرجمت الى العربية في القرن التاسع . ومنها ما فقد اصلهُ اليوناني وبقيت

(١) يراد بالتوقف expectation الوقت الذى يراقب فيه الطبيب فعل الطبيعة بدون مزاولة العلاج فى اول الامر ليتبين هل الطبيعه جاريه على خطه السلامه او مائلة الى حالة الخطر فيتدبر بما تقتضيه الاحوال

ترجمتهُ العربية ثم تُرجمت الى اللغات الاوروبية وطُبعت مراراً

قال ابو العلاء المعري

سُقياً ورعياً لجالينوس من رجُلٍ   ورهطِ بقراطَ غاضوا بعد او زادوا
فكلما أصَّلوهُ غير منتقضٍ   بهِ استغاثَ اولوا سُقمٍ وعُوَّادُ
كُتُبٌ لطافٌ عليهم خفَّ محملُها   لكنَّها في شفاءِ الداءِ أطوادُ

واشتدت في مدينة الاسكندرية المشاحات على العقائد الدينية بعد تملك الرومانيين وانتشار الديانة المسيحية وتباينت المنازع السياسية وكثرت الفتن بين أهليها لتبايُن المنازع واختلاف العقائد فاضطرَّ العلماءُ الى مهاجرتها فخبا نور العلم فيها ودُرست الصناعة الطبية واخنى الدهر على مكاتبها ومتاحفها فتفرقت ايدي سبا .

وكان الرومانيون متشاغلين بالسياسة والحروب فلم يعمر للعلم في ربوعهم منتدى ولم يذكر التاريخ عن اطبائهم الا افراداً اشهرهم بولس الايجيني من جزيرة ايجينا ويسمى بالقوابليّ لانهُ كان متضلعاً بعلم الولادة وامراض النساء فكانت القوابل يستشرنهُ . عاش في آخر القرن الرابع بعد المسيح . وترجم حنين بن اسحق بعض مؤلفاتهِ الى اللغة العربية . ونبغ في ذلك القرن القس هرون الاسكندري وهو اول طبيب وصف الجدري والف باليونانية مجموعةً تشتمل على ثلاثين كتاباً في الطب ترجمها الى اللغة

السريانية ماسرجيس اوماسرويه الاسرائيلي من بصرى بالاشتراك مع عالم آخر من الاسكندرية اسمه غوسيوس اوجاسيوس واخذ عنها الرازيُّ وعليُّ بن عباس وزعما ان اكثرها منقول عن كتب فلاسفة اليونان ولا سيما جالينوس . وهذه المجموعة اول الكتب التي حصل عليها العرب في علم الطب

ولا يسعنا ان ننتقل للكلام على اطباء العرب قبل ان نذكر شيئاً من ترجمة شيخ فلاسفة اليونان وامام الفلاسفة اجمالاً واعني بهِ ارسطو [1] . كان اوحد زمانهِ في الطب والفلسفة والطبيعيات وجميع العلوم وهو المشار اليه في كتبهم بالفيلسوف الاكبر والفيلسوف الاول اخذ عنهُ العرب الحكمة وترجموا مصنفاتهِ واشتغل كثير منهم بشرحها والتوسع في معانيها . وكان ابوهُ نيكوماخس Nicomaque طبيب ملك مكدونية امنتاس Amyntas الثاني ابي فيليبوس ابي الاسكندر الكبير وجدهُ كان طبيباً ايضاً من آل اسقيليبس فلا غرابة اذاً ان يكون الاسكندر العظيم تلميذاً لهذا الفيلسوف العظيم . وُلد سنة ٣٨٤ ق . م . وتُوفي سنة ٣٢٣ ق . م . ودخل مدرسة افلاطون في اثينا اذ كان عمره ١٨ سنة وبقي ملازماً لهُ عشرين سنة حتى توفي استاذهُ ٣٤٧ ق . م . فترك اثينا ثم عاد اليها يدرس الخطابة وسنة ٣٤٢

(1) Aristote; Grande Encyclopédie

دعاهُ الملك فيلبوس المقدوني لتهذيب ابنهِ الاسكندر وكان عمرهُ حينئذٍ ١٤ سنة فلم يفارقه حتى شرع بالفتوحات في آسيا سنة ٣٣٤ ق . م . ثم اشتغل بالتدريس والتصنيف قال الشيرازي انهُ صنف مائة وثمانية عشر كتاباً وهو اول من تكلم في صناعة البرهان وجعلها آلة العلوم النظرية ☆ وذكر الشيرازي من اطباء اليونان آخرين منهم روفس قال انهُ كان بعد بقراط بنحو مايتي سنة وكان من اجلّ علماء اليونان ذكرهُ جالينوس في عدة من كتبهِ واثنى عليهِ وعلى زهدهِ وعلى علمهِ صنف كتباً كثيرة وأفرد امراضاً كثيرة كلاًّ بتصنيف ومن كلامه "امتحن المرء في وقت غضبهِ لا في وقت رضاهُ" وقولهُ "خير الاشياء اجدُّها الا المودات" . ومنهم اريباسس قال انهُ كان طبيب ملوك زمانهِ انتهى اليهِ علم الطب بعد جالينوس وكان ماهراً في احوال النساء وكان على دين النصرانية واكثر تصنيفه الكنانيش . ومشيح بن الحكم كان طبيباً نصرانياً قيل انهُ ممن أخذ عنهُ الحارث بن كلدة وكان حسن العلاج والتصوير وكثيراً ما ينقل عنهُ الرازي في الحاوي ومن كلامه "انفع الاشياء موت الاشرار" وقال "سلوا القلوب عن المودات فانها شهود لا تقبل الرشى" وقيل لهُ ما اصعب شيء على الانسان قال "معرفة نفسه وكتم سرهِ"

الفصل الثالث

في اطباء العرب

نبذة اولى

في منشإِ الطب عند العرب

كانت العرب قبائل متفرقةً منتشرةً في شبه الجزيرة العربية تعتمد في معاشها على الانعام فتضرب في اكناف البادية طلباً لمواقع الغيث وانتجاعاً للكلإِ . وكانت كلُّ قبيلةٍ كثر عديدها او قلَّ مستقلةً بأمرها يجري افرادها على الفطرة السليمة في معاملة بعضهم البعض وينقادون لمشائخهم كما ينقاد الابناء للاباء . وكان دأبهم الغزو يتفاخرون به ويثأرون بعضهم بعضاً فلم تنفكَّ العداوة بينهم حتى جاء الاسلام فجمع شتيتهم وألف بين قلوبهم فصاروا أمةً اندفعت كالسيل المنهمر على مدن سوريا فاجتاحتها وتملكتها وتقدمت الى بلاد فارس من جهة اسيا والى مصر من جهة افريقيا ثم دخلت أوروبا وتملكت اسبانيا ولم تصدَّها جبال البرانس (1) عن التقدم حتى

(1) Pyrénées هكذا كتبها المورخون من العرب لا كما يكتبها المترجمون الآن راجع نفح الطيب

وقف في طريقها كارل مارتل [1] في سهل بواتياي [2] من فرنسا كما وقف سور الصين في سبيلها من جهة آسيا وقد استولت في الزمن القصير على ممالك القياصرة والاكاسرة ودخلت في حوزتها جميع المدن القديمة والامصار العظيمة الواقعة في اطراف المعمور من شواطيء بحر الظلمات [3] الى شواطيء الاوقيانوس الهندي ومن بحر الروم الى مجاهل افريقيا . وكل مملكة افتتحتها رسخ قدمها فيها ودان اهلوها لها واعتنقوا دينها الا الذين استأمنوا ودفعوا الجزية عن يد فانتشرت اللغة العربية الى اطراف المعمور وغلبت سائر اللغات في مواطنها الاصلية فجرت ذيل العفاء على السريانية والقبطية واليونانية والعبرانية والفارسية وغيرها [4] . وكان النصارى في تلك الايام دائبين على المشاحات في العقائد الدينية متشاغلين بالمماحكات في المنازع السياسية متهالكين في تقويض بنيان ممالكهم بالدسائس الداخلية والفتن الاهلية وقد اتخذ ملوك الروم قاعدة سياستهم ,, فرق فتملك ,, فساد الظلم ووقع الحيف واستبد القوي بالضعيف وتشتت الجمع وانقسموا فرقاً تمكنت منها اسباب العداوة

(1) Charles Martel (2) Poitier
(3) Atlantique (4) V. l'histoire génèrale des Arabes, par Sédillot

وكل فرقة قويت انتقمت من الاخرى ونكلت بها تنكيلاً ولذلك اضطر كل من جرى في عروقه دم الشرف والحرية الى ان يغادر موطنه ويهاجر الى حيث يرى له مأمناً ومرتفقاً فكان العلماء والحكماء اول من اتخذ هذا السبيل وهم حياة الامة فقصدوا بلاد الاكاسرة وغيرها من الاطراف الشاسعة هرباً من ظلم مضطهديهم وهرب كثير من علماء مدينة الاسكندرية الى اللاذقية وغيرها من مدن سوريا [1]

وكان النساطرة ممن ذاقوا البلاء من الروم اذى وشدة فلجأوا الى ظل الاكاسرة في العجم حيث اسسوا في مدينة الرها مدرسة ثم أنشئوا في مدينة جنديسابور مدرسة ومارستاناً واشتغل اساتذتها بترجمة كتب اليونان الى السريانية فتمهد للعرب بذلك سبيل طلب العلم

ولم تحفل الدولة الاموية في الشرق بعلم الطب والحكمة لتشاغلها بالفتوحات وتوطيد قواعد الملك . واول اطباء العرب الحارث بن كلدة اخذ الطب عن اساتذة مدرسة جنديسابور وطب بحضرة النبي وتوفي في بداية خلافة عثمان . وذكر الشيرازي الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي التميمي البصري

1 Laboulbène; la médécine chez les Arabes; Sédillot. ; histoire générale des Arabes

توفي سنة تسع وستين من الهجرة . وذكر بعضهم عبد الملك بن ابجر الكناني وكان طبيباً عربياً نصرانياً من حكمآء مدرسة الاسكندرية اسلم في ايام عبد العزيز بن مروان حاكم مصر سنة ٧٠ من الهجرة (٦٨٩ م) ويوحنا أو يحيي المعروف عند السريان بالنحوي (غراماطيقوس) كان يعقوبيّاً من حكمآء الاسكندرية . وفد على عمرو بن العاص وقد عرف مكانهُ من العلم فاكرمهُ وقرَّبهُ . وكأنَّ جد الدولة العربية في احيآء موات العلم ونشر صناعة الطب بقي مرتهناً الى ان تبوَّأ بنوا العباس عرش الخلافة وجعلوا بغداد عاصمة المملكة الاسلامية . أو كأنَّ الدولة العباسية آلت لتنهضنَّ بهذه الامة الى ذروة المجد فلم تجد مرقاةً لها افضل من العلم . فمنذ اختطَّ الخليفة المنصور مدينة بغداد سنة ٧٦٢ م ترك جرجس بن جبريل من ابنآء بختيشوع مدرسة جنديسابور واقام في بغداد وكان طبيب الخليفة وتوفي في ايامهِ وكان لهُ خبرة بتصوير العلل والعلاج فقط وهو الذي مهد الطريق لذويهِ بالحظوى لدى الخلفآء ورجال الدولة

وبنى هرون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيدليات واباح الانتفاع بها للعموم . وكان طبيبهُ جبريل بن عبدالله بن بختشوع وكان مكرماً لديه حظياً عندهُ وفي ايامه تُرجمت كتب الحكمة

والطب من السريانية واليونانية والهندية الى العربية . وعهد اليهِ الخليفة بفحص الاطبآء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن كفوأً لمزاولة هذه الصناعة . صنف الكناش الصغير للصاحب بن عباد فاجازهُ بالف دينار . وانشأ المأمون ندوةً علمية جمع اليها العلمآء من كل صوبٍ وحدَب وبذل من الاموال ما لا يتقدَّر لمشترى الكتب وترجمتها الى اللغة العربية فكانت بغداد حينئذٍ عروس الدنيا ودار العلوم وعرصة الادب . قيل ان العلمآء والمدرسين فيها واعضآء ندوتها العلمية بلغوا لذلك العهد ستة آلاف عدًّا . فتأمل

ومن مشاهير النساطرة الذين كانت لهم يدٌ بالترجمة الى العربية ابنآء ماسويه منهم يوحنا صاحب النظم الحاذق والعلاج الخارق والبراعة التامة برع في عدة علوم وكان من بطانة هرون الرشيد . اشتغل بتدريس علم الطب في مدرسة بغداد والف كتباً كثيرة وتوفي سنة ٢٤٣ ه . وكان تلميذهُ حنين بن اسحق المولود في الحيرة من مشاهير المترجمين في القرن التاسع ثم صار طبيب المتوكل ومما يؤثر عنهُ ان المتوكل اراد امتحانهُ ليعرف مكانهُ من صدق الخدمة فخلع عليهِ واقطعهُ بما يساوي خمسين الف درهم ثم طلب منهُ ان يصف لهُ دوآء يقتل به عدوًّا لهُ لا

يحبُّ ذكر اسمهِ فاجابهُ حنين يعفوني امير المؤمنين فانني لم اتعلم غير الادوية النافعة ولم يخطر ببالي انهُ يطلب مني خلافهـا ولما لم يظفر منهُ بطائل اخافهُ وتهددهُ ثم ارسلهُ الى السجن في بعض القلاع وتركهُ مدةً وبعد ذلك احضرهُ واعاد عليهِ الطلب فاصرَّ على امتناعه . فأمر الخليفة باحضار سيف ونطع وقال نقتلك ان لم تفعل . فقال حنين ان لي رباً يأخذ بحقي غدًا في الموقف الرهيب . فتبسم المتوكل وقال لهُ طب نفساً فانا انما اردنا امتحانك والثقة اليك . فقبَّل حنين الارض وشكر . وبعد ان هدأ روعهُ سألهُ الخليفة ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيت من صدق الامر منا في الحالين . فقال شيئان „ الدين والصناعة “ اما الدين فانهُ يأمرنا باصطناع المعروف حتى الى اعدائنا واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباء عهد موكد بايمان مغلظة ألاَّ يعطوا احدًا دواءً قتالاً او مضرًّا فقال الخليفة انهما شرعان جايلان وانعم عليه فحمل انعامهُ وخرج وهو احسن الناس حالاً وانعمهم بالاً [1] . واشتغل حنين بالترجمة فترجم كتب بقراط وجالينوس

(١) خطاب للمؤلف القاه فى ختام سنه ١٨٨٩ للمدرسة الكلية السوريه — الوافى للمرحوم امين الشميل —
Sédillot; histoire générale des arabes; tome II, page 75

وافلاطون وبطليموس وبولس الايجيني وكان ابناهُ اسحق وداود مترجمين ايضاً . وذكر الشيرازي اسحق ولم يذكر حنيناً . قال نقلاً عن ابن خلكان „ اسحق بن حنين العبادي الاسرائيلي الحميري اشتغل على ابن ماسويه وكان متقناً للطب والعربية واليونانيـة عرَّب كثيرًا من كتبها وكان كثير الاعتناء بكتب ارسطو وجالينوس توفي سنة ٢٦٨ ه “ . وامتاز ابن اخته حُبيش بضبط الترجمة والنقل والف كتاباً في الطب . وكثر مترجموا الكتب عند الخلفاء العباسيين وممن اشتهر منهم حجاج بن مطر ترجم المجسطي تأليف بطليموس في علم التنجيم ومقالات اقليدس في الرياضيات وبعض مصنفات ارسطو . وكثر الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى عند الخلفاء منهم صالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن اسرائيل الكوفي وابناء الطيفوري وزين الطبري اليهودي وقسطا بن لوقا من بعلبك وابو زكريا يحيي بن ماسويه وابو زيد حنين بن اسحق بن سليمان بن ايوب العبادي الشهير بالترجمة ولد سنة ١٩٢ ه (سنة ٨٠٩ م) وثابت بن قرة الصابئ من حران اشتغل مع قسطا بن لوقا بترجمة كتب جالينوس وغيرها من كتب الطب والرياضيات والتنجيم وفيه يقول السريُّ

الرفاء احد شعراء سيف الدولة بن حمدان [1]

هل للعليل سوى ابن قرَّة شافِ — بعد الالهِ وهل لهُ من كافِ
احيي لنا رسم الفلاسفة الذي — اودى واوضح رسم طبٍّ عافِ
فكأنهُ عيسى بنُ مريمَ ناطقاً — يهبُ الحياة بايسر الالطافِ
مثلت لهُ قارورتي فرأى بها — ما اكتنَّ بين جوانحي وشغافي
يبدو لهُ الداءُ الخفيُّ كما بدا — للعين رضراضُ الغدير الصافي

ومنهم يوحنا بن سرابيون المعروف بيوحنا الدمشقي بالنسبة الى دمشق وهو مؤلف الكناش كتبهُ بالسريانية وترجم الى العربية ثم ترجم الى اللاتينية ولهُ تصانيف كثيرة اكثر الرازي عنهُ النقل. ومن مشاهيرهم في ذلك العصر ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي كان من بطانة المأمون ثم اتصل بالمعتصم وهو من ابناء الملوك وكان فيلسوفاً بارعاً في علوم اليونان والعجم والهند. الف كتباً كثيرة ونقل عن فلاسفة اليونان ولا سيما عن ارسطو [2]

(١) يتيمه الدهر للثعالبي

(٢) ذكر صاحب عيون الانباء فى طبقات الأطباء وغيره اسماء كثيرين من نقلة العلوم والمترجمين الى اللغه العربيه من يونان ويعاقبه وسريان ونساطرة ويهود وهنود فاقتصرنا على ذكر بعضهم ممن اشار اليهم علماء الافرنج اثباتا لما نحن فى صدده

فمما تقدم يتضح ان العلوم ولا سيما علم الطب لاح نورها في مدرسة جنديسابور من بلاد العجم ثم اشرق في بغداد بعد ان خبا في بلاد اليونان وانطفأ في مدينة الاسكندرية. وان الصلة بين اللغة اليونانية واللغة العربية كانت اللغة السريانية في بدء الامر. وان نقلة علوم الحكمة والطب كانوا من النساطرة واليعاقبة غالبًا واليهود والصابئة احيانًا. وان الكتب التي وضعت باللغة العربية حتى القرن التاسع لم تكن الا مترجمةً عن اليونانية غالباً. وان الفضل في احياء هذه هذهِ العلوم ونشرها يرجع للخلفاء العباسيين ولا سيما الرشيد والمأمون اللذين ظهرت عنايتهما بترجمة الكتب وجمع العلماء وانشاء دور العلم وبيوت المرضى في بغداد كما فعل البطالسة في الاسكندرية من قبل

نبذة ثانية

في حكماء العرب في الشرق

وبعد القرن التاسع ظهرت فلاسفة العرب الذين ألفوا في الطب الكتب النفيسة وهي الكتب التي اتخذت دستوراً جرى عليهِ العلماء عموماً في مزاولة صناعة الطب مدة اثني عشر قرناً. ولا يسعنا المقام ان نذكرهم كلهم فنجتزيء بذكر تراجم الذين امتازوا

بينهم ولا سيما الذين اخذ عنهم الاوربيون وترجموا مصنفاتهم الى لغاتهم . فمنهم الامام ابوبكر محمد بن زكريا الرازي الملقب بجالينوس العصر [1] وُلدَ ونشأ في الريّ وبرع في علم الادب والفنون منذ كان صغيرًا وكان كثير الولع بالموسيقى والنظم ثم جاء بغداد وزار بيمارستانها فرغب في الفلسفة والطب فبرع فيهما حتى بلغ الغاية وصار اشهر اساتذة مدرسة بغداد . وكان زكياً حافظاً بارًّا بالناس رؤوفاً بالمرضى كثير العناية بالفقراء صنف كتباً كثيرة منها كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً والحاوي في خمسة عشر مجلداً وقد حكى فيه عن عجائب في معالجته تدل على براعته وتُرجم هذا المصنف الى اللغات الاوروبية وطُبع على اثر اختراع آلة الطباعة في مدينة البندقية في ١٧ مجلدًا . قال كوفياي "ان هذا الكتاب يشتمل على الدروس التي املاها الرازي على تلامذته في مدرسة بغداد وقد اضاف اليها بعضهم فصولاً بعد موته" وكان رئيس اطباء بيمارستان بغداد والري وجنديسابور معاً . وألف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وألف كتباً كثيرة في التشريح ومنافع الاعضاء وغير ذلك . ومن مصنفاته المنصوري في عشرة مجلدات ذكر في آخره الصفات التي

(1) V. la Revue scientifique, tome XXXII de la collection P. 647

يجب على الطبيب ان يكون حاصلاً عليها والقوانين التي يجب عليه السلوك بموجبها وندّد بالمخرقين بصناعة الطب كما فعل بقراط وجاليفوس من قبلُ . وهذا الكتاب بلغ من الشهرة في اوروبا في القرون الوسطى ما لم يبلغهُ كتاب آخر حتى ان الملك لويس الحادي عشر امر بان لا يعتمد الا عليه في تدريس علم الطب في مدرسة باريس [1] وسماهُ بالمنصوري لانهُ جعلهُ تقدمةً الى منصور بن نوح الساماني امير خراسان حفيد الخليفة المعتصم . ومن بديع مصنفاته رسالة في وصف الجدري والحصبة عُني بطبعها في بيروت الاستاذ الطبيب الذكر العلامة كرنيليوس فانديك . قيل ان الرازي اصيب في شيخوخته بالماء الازرق فجاءه جراح ليقدح عينهُ فسألهُ كم هي طبقات العين ورطوباتها فلم يحرْ جواباً فقال خيرٌ لي ان ابقى اعمى من ان يقدح عيني جاهل . وصرفهُ . توفي سنة ٩٣٢ م (٣١١ هـ)

ومن [2] كلامه "الحكيم برأيه متلف" ومنه "يجب على

(١) وقيل ان الملك لويس الحادى عشر طلب الكتاب المذكور من مدرسة باريس الكلية بضمانة باهظة لياخذ عنه نسخة
Edouard Forestiè; LaRevue scientifique, tome XXXIV de la collection – 1885, P.87

(٢) نقلا عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس

الطبيب ان يوهم العليل بالصحة وان كان غير واثق بها " — وقال " الاطباء الاحداث الذين لا تجربة لهم قتالون " — وقال "يجب على المريض ان يقتصر على طبيب يثق به فخطأه في جنب صوابه يسير لان من استعمل اطباء كثيرين وقع في خطإ الجميع " — وقال "اذا استطاع الطبيب ان يعالج المرضى بالاغذية دون الادوية فقد وافقته السعادة " — وقال " اذا كان الطبيب حاذقاً والصيدليّ صادقاً والمريض موافقاً فما اقلّ لبث العلة "

وجاء بعد الرازي عليّ بن العباس المجوسي الاهوازيّ المعروف بالملكي تلميذ ابي ماهر وكان بعد الرازي بنحو ٥٠ سنة وهو مثله عجمي صنف كتاب كامل الصناعة لعضد الدولة بن بويه الديلمي في ٢٠ مجلداً تحدّي به جالينوس وكان اماماً بالعلم والعمل قال بعضهم علم القانون وعلاج الملكي لم يسبق اليهما وبعضهم يفضله عن ابن سينا . تُرجم مصنفه الى اللاتينية وطُبع سنة ١٤٩٢ م . ومما يؤثر عنه قوله "يجب على الاطباء الاحداث ان يتمرنوا على العمل في المارستان لانني استفدت كثيراً بما تحريته من التجارب فيه " . ونبغ ابن سينا في القرن العاشر وكان من تلامذة مدرسة بغداد وهو ابو علي الحسين بن عبدالله بن الحسين بن علي بن سينا ويعرف بالشيخ الرئيس وُلد في بخارا

سنة ٣٧٠ هـ — ٩٨٠م . وتوفي بالاسهال في همذان سنة ٤٢٨ هـ — ١٠٢٦ م كان فيلسوف الزمان . برع في الطب والفلسفة والطبيعيات والمنطق والرياضيات والفقه واتقن اقليدس والمجسطي وفاق في علم الطب اهل زمانه ثم اتصل بخدمة نوح بن منصور الساماني وسأله ان يمكّنه من الدخول الى خزانة كتبه فاذن له فرأى فيها شيئاً من كتب الاوائل لم يكن في ايدي الناس فحصل منها على فوائد كثيرة وفي رواية انه احتال في حرق مكتبة بخارا ليتفرد بمصنفاته وهذه الرواية لم تثبت . وتقلد الوزارة لشمس الدولة . ومؤلفاته كثيرة في جميع العلوم والفنون منها كتاب الشفاء وكتاب اللواحق وكتاب الحاصل والمحصول نحو من ٢٠ مجلداً وكتاب البر والاثم مجلدان وكتاب الانصاف جمع فيه كتب ارسطو في ٢٠ مجلداً وكتاب لسان العرب في اللغة قال بعضهم لم يؤلف في اللغة مثله وكتاب المبدإ والمعاد وكتاب الاشارات وكتاب التنبيهات وكتاب الحدود وكتاب عيون الحكمة والموجز في المنطق وكتاب تقاسيم العلوم والحكمة وله المدخل الى علم الموسيقى ومقالة في الاجرام العلوية ومقالة في الرصد وكتاب تدبير النفس وشرح كتاب النفس لارسطو وكتاب اللُمَع في النحو ورسالة في

الزهد وفضيلتهِ على انهُ لم يكن زاهدًا كما يعلم من تاريخ حياتهِ ويحكى ان صاحبًا لهُ لامهُ على اسرافهِ على نفسه فاجابهُ انني احب الدنيا قصيرة عريضة ولا احبُّها طويلة ضيقة . ولهُ كتاب تعبير الرؤيا ولهُ رسالة في الكيمياء ورسالة في القضاء والقدر ورسالة في مخارج الحروف ولهُ كتاب القولنج وكتاب الادوية القلبية ورسالة في خط الاستواء ومقالة في حد الجسم وغير ذلك في الاصول والفروع وفي علم الحديث ولهُ نظمٌ رائق منهُ قولهُ

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ   فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان السقمَ اكثرُ ما تراهُ   يكونُ من الطعامِ او الشرابِ

ولهُ في النفس قصيدة بديعة شرحها بعض العلماء قال في مطلعها

هبطت اليكَ من المحلّ الارفعِ   ورقاء ذات تعززٍ وتمنّعِ

ولهُ الارجوزة المشهورة في علم الطب وعملهِ قال فيها الامام مروان بن زهر انها محيطة بجميع كليات الطب وانها افضل من كتب كثيرة وقد شرحها كثير من العلماء منهم الفيلسوف ابن رشد والعلامة الشيرازي . واحسن كتاب ألفهُ القانون وهو مشهور بقي ستة قرون معولاً عليه في علم الطب وعملهِ حتى عند الاوروبيين الذين ترجموهُ الى لغاتهم وكانوا يتعلمونهُ في مدارسهم وطبعوه

سنة ١٤٧٦ وذلك بعد اختراع آلة الطباعة بنحو ٣٠ سنة واذا عرفتَ ما تقدم لم تستغرب قولهم "كان الطب معدومًا فأوجدهُ بقراط وكان ميتًا فاحياهُ جالينوس وكان متفرقًا فجمعهُ الرازي وكان ناقصًا فكملهُ ابن سينا"

ومن فلاسفة العرب لذلك العهد الفارابي وهو محمد بن محمد بن اوزلغ بن طرخان من فاراب مدينة من مدن الترك صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ عنهُ الرئيس ابن سينا . طاف البلاد وقال اني لاعرف اكثر من سبعين لسانًا وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ . ومنهم ابن ابي صادق عبد الرحمن بن علي النيسابوري برع في العلوم الحكمية وكان من تلامذة الرئيس ابن سينا . توفي سنة ٤٥٩ هـ . ومنهم الامام الاستاذ موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي عرف بابن اللباد وكان جالينوس الزمان وبقراط الوقت برع في اللغة العربية والفلسفة واصول الطب وفروعهِ وكان كثير العناية بكتب ارسطو صنف ماية وثمانين مصنفًا وردَّ على ابن سينا ردًّا شنيعًا حيث صنف في علم الكيمياء توفي سنة ٦٢٦ هـ ــ ١٢٣٠ م . ومنهم ابن نفيس عليّ ابن ابي الحزم القرشي شيخ الاطباء في عصرهِ وامامهم برع في

الطب وكان يملي ويدرس ويصنف في المجلس الواحد وجميع مصنفاته من حفظه . صنف كتاب الشامل وبيّض منه نحو ١٠٠ مجلد وصنف المهذب في صناعة الكحل (امراض العيون) ولم يسبق الى مثله توفي سنة ١٢٨٧ . ومنهم ابو الفرج يعقوب بن اسحق القف من نصارى الكرك كان حكيماً رياضياً برع في الطب واشتهر بالجراحة وخدم في قلعة عجلون ثم في قلعة دمشق ومن مصنفاته كتاب الشافي في الطب وكتاب شرح كليات قانون ابن سينا في ٦ مجلدات وكتاب شرح فصول بقراط مجلدان وهو كافٍ للدلالة على براعته ودقة بحثه وسعة اطلاعه وصحة نقده ومن مصنفاته كتاب العمدة في صناعة الجراح ٢٠ مقالة ذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجراح ولهُ مؤلفات أُخرى توفي ١٢٨٤ ومنهم ابن ابي اصيبعة صاحب عيون الانباء في تاريخ الاطباء ولد في دمشق سنة ١٢٠٣ وتوفي فيها سنة ١٢٦٩ م . واشتهر في ذلك القرن عليّ بن عمر وكان كحالاً منشأهُ مصر وكانت امراض العيون فيها كثيرة كما هي الآن ومن مشاهير علماء اليهود الميموني وكان ميالاً الى الفلسفة اكثر من الطب جاء من اسبانيا الى مصر وتوفي سنة ١٢٠٤ م . والف كتبهُ باللغة العربية

وفي تلك القرون حُملت مصابيح الحكمة من مدينة بغداد الى سائر المدن الاسلامية فلم تخلُ مدينة من مدرسة للطب ومارستان لتطبيب المرضى ومكتبة او مكاتب تشتمل على الوف الالوف من الكتب الجليلة في جميع العلوم والفنون . ولو شئنا استقصاء ما ذكرهُ المؤرخون عن بناء المدارس وبيوت المرضى والمكاتب لطال بنا المجال فنقتصر على ذكر شيء من ذلك للدلالة على ما كان عليهِ ملوك الاسلام من العناية بالامة والنظر في مصالحها وسعادتها وما ادى اليه الاهمال من ضياع هذهِ الكنوز النفيسة ليعتبر من ألقى السمع وهو شهيد . فقد ذكروا ان نور الدين بن الشهيد اسر بعض ملوك الافرنج وقصد قتلهُ ففدى نفسهُ بتسليم خمسة قلاع وخمسماية الف دينار انفقها نور الدين كلها على عمار مارستانه في دمشق . وحدث ان الملك المنصور لما توجه وهو امير الى غزاة الروم في ايام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ هـ اصابهُ بدمشق قولنج عظيم فعالجهُ الاطباء بادوية اخذت من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فاعجب به ونذر ان اتاهُ الله الملك ان يبني مارستاناً فلما تسلطن بنى مارستانهُ الكبير المعروف بالمنصوري بخط بين القصرين من القاهرة افرد لكل طائفة من المرضى موضعاً

فيه فجعل اواوين المارستان الاربعة للمرضى بالحميات ونحوهـا
وافرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة
للنسآء ومكانًا للمبرودين ينقسم الى قسمين قسم للرجال وقسم
للنسآء وجعل المآء يجري في جميع هذه الاماكن وافرد مكانًا
لطبخ الطعام والاشربة والادوية ومكانـًا لتركيب المعاجين
والاكحال والشيافات . . . ومكانًا يجلس فيه رئيس الاطبآء
لالقآء درس الطب . وجعلهُ سبيلاً لكل من يرد عليه من
غني وفقير . اما المارستان العتيق فقد بناهُ صلاح الدين يوسف
بن ايوب واستخدم لهُ اطبآء وطبائعيين وجراحين وخدامًا ووجد
الناس بهِ رفقًا واليهِ مستروحًا وبه نفعًا وكذلك بمصر امر بفتح
مارستانها القديم . واول مارستان بني في مصر بعد الفتح انشأهُ
احمد بن طولون وانفق على بنائهِ ستين الف دينار [1] واذا كان
كافور الاخشيدي بني مارستانًا في القاهرة فباي عين ينظر الآن
امرآؤنا وكبرآؤنا مارستانات الافرنج تبنى في ديارهم ولايحزنون
وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالكرام فلاحُ

(١) راجع الجزء الثاني من الخطط والآثار للمقريزي صفحة ٤٠٦

نبذة ثالثة

في الطب العربي في المغرب

ولم يكن الشرق وحدهُ مطلع شموس المعارف والحكمة
ومجلى انوار فلاسفة العرب فقد كان للغرب من ذلك الحظ
الاوفر على عهد الخلفآء الامويين وقد انشأ الحكم بن هشام في
قرطبة ندوةً علميَّة كان العلمآء يتقاطرون اليها من جميع الامصار
كما كانوا يتقاطرون الى الندوة العلمية التي انشأها المأمون
في بغداد وارسل الوفود الى جميع الجهات لشترى الكتب
ونسخها فجمع مكتبة كانت في القرن العاشر تاجًا على مفرق
الغرب وسمت ستمائة الف مجلد وكان برنامجها في ٤٤ مجلدًا
وقال بعضهم [1] انها كانت تشتمل على ٢٨٤٠٠٠ وهو مقدار
يرى المتأمل فيه عظمة الدولة العربية في الاندلس وشدة
عنايتها برفع منار العلم اذ لم تكن الطباعة معروفةً وطريقة
استحصال الكتب لم تكن سهلةً كما في هذه الايام . ومما امتازت
بهِ قرطبة ايضًا مدرستها الجامعة التي كان يأمُّها طلاب الحكمة
من جميع الامصار وقد تعلم فيها بعض عظمآء الافرنج في زمن

(1) Laboulbène. V. la revue scientifique; tome XXXII

جاهليتهم ولما ذاقوا لذة العلم وتبيّنوا منافعه دُفعوا الى الاقتداء بالعرب. وانشأ فيها محمد بن عليٍّ حديقة غنّاء لاجل درس علم النبات . ومما قيل في وصف قرطبة

بأربعٍ فاقتِ الاقطارَ قرطبةٌ ... وهُنَّ قنطرةُ الوادي وجامِعُها
هاتانِ ثنتانِ والزهراءُ ثالثةٌ ... والعلمُ افضلُ شيءٍ وهو رابعُها

ومما يدلُّ على رواج بضاعة العلم عند العرب في الاندلس كثرة المدارس الطبية فيها فقد أُنشيء في اشبيلية مدرسة كبرى نبغ فيها كثيرٌ من مشاهير الحكماء وكان في طُليطلة مدرسة أُخرى للطب توهج فيها نور الحكمة وفي مدينة مرسية مدرسة ثالثة لا تقلُّ سناءً عن غيرها من تلك المدارس الزاهرة وقد امتاز الاندلسيون بالتأنق في الحضارة والمدنية كما امتاز علماؤهم بالتدقيق في المباحث الفلسفية واستنباط كثيرٍ من المباديء التي بُنيت عليها المكتشفات العلمية التي هي من مفاخر هذا العصر ولا ابالغ اذا قلت ان مبدأ مذهب دَرُوِن في التحويل والارتقاء مأخوذ عن العرب ولديَّ مصنف محمد بن احمد الورّاق المعروف "بالكتبي" في علم الطبائع فمما قاله في الكلام على طبائع القرد "هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركبٌ من انسان وبهيمة وهو من تدريج الطبيعة من البهيمية الى الانسان

(كذا) وهو يحاكي الانسان بصورتهِ وافعاله .... " اه بحروفهِ ونحن نرى دَروِن يدعي بان جدَّهُ جراسيموس اول من قال بمبدإِ التحول في الحيوانات منكرًا على لَمَرْك الفرنسوي فضل الاسبقية [1] وانما الفضل للكتبي" الذي اوضح هذهِ الحقيقة بصريح العبارة قبل ان يوجد لَمَرك وجراسيموس ودَروِن بقرون .

ومن يتأمل في كلام عبدالله البكري صاحب كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار يتعجب كيف حوَّم ببصيرتهِ على الآراء الشائعة الآن بعد ان كشف العلامة بستور بتجاربهِ البديعة مباديءَ الفساد والتعفن وأوضح حقيقة تولد الجراثيم الوبيلة ومنفعة التلقيح . قال في الكتاب الثاني عشر من مؤلفهِ المشار اليهِ في الكلام على الهوام والحشرات ما نصهُ " اذا أوقدتَ نارًا في وسط غيضةٍ لترى ما يغشى النار من الحشرات بدت لك صورٌ عجيبة واشكالٌ غريبة . على ان الخلق الذي يغشى النار يختلف باختلاف المواضع من الغياض والجبال والسهول والبراري فان في كل بقعةٍ من هذهِ البقاع اشكالاً من المخلوقات مخالفةً لما في البقعة الاخرى

(1) V. notice historique sur l'origine des espèces par Charles Darwin

وقد خُلقت هذهِ الحشرات من المواد الفاسدة والعفونات الكائنة ليصفو الجوُّ منها ولا يعرض لهُ الفساد الذي هو سبب الوبآء وهلاك الحيوان والنبات · والذي يحقق ذلك اننا نرى الذباب والديدان في دكان القصَّاب والدباس ولا نراها في دكان البزاز والحداد فهي تمتصُّ العفونات وتُغذّى بها فيصفو الهوآء منها ويسلم من الوبآء (كذا) وجعل صغارها مأكولاً لكبارها والاَّ ملأت وجه الارض منها " الى ان قال " واعجب ما في هذا النوع ان كلَّ ما جُعل سبباً لضرر حيوانٍ جُعل لحمهُ دفعاً لذلك الضرر فان الاطباء الاقدمين وجدوا في لحم الحية قوةً تقاوم السموم فأدخلو لحمها في الترياق · والتجربة دلت على ان من لذغتهُ العقرب يقتلها ويطلي موضع اللدغ برطوبة بدنها فان الالم يسكن في الحال " والكتاب المذكور يشتمل على كثيرٍ من صور النباتات بالوانها الطبيعية فهو من الآثار القديمة الباقية الى الآن للدلالة على فضل العرب ويظهر ان موءلفهُ متأخر عن ابن البيطار العشاب لانهُ يعتمد عليهِ كثيرًا في النقل اما سائر اجزاء الكتاب فلم اهتدِ حتى الآن اليها

ومن فلاسفة العرب في الاندلس ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفي سنة ١٠١٣ وهو اول طبيب طُبعت موءلفاتهُ

مترجمةً الى اللاتينية في مدينة البندقية · ألف كتاب التصريف في ٣٠ مجلداً وقد مدح العلامة هالّر موءلفهُ المذكور ولا سيما الكتاب الاول منه في المادة الطبية لانهُ لم يتحدَّ غيرهُ بالنقل بل اعتمد على نفسهِ في تحرّي الحقائق ولهُ كتاب القياس والتجربة وهذا الكتاب من ابدع كتب الطب القديم يشتمل القسم الذي يبحث فيه عن الجراحة على صور الكسور والخلع والآلات الجراحية

ومنهم ابن وافد ابو المطرَّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد اللخمي من طُليطلة برع في الطب والفلسفة وكان مولعاً بدرس مصنفات ارسطو وجالينوس وكان يعوّل في العلاج على الادوية البسيطة ولهُ موءلفات كثيرة ضمنها مقالات ديسقوريدس وجالينوس توفي سنة ١٠٧٤

وكان في الاندلس ابناء زُهر بمثابة ابناء بختيشوع وحنين وماسويه في بغداد واشهرهم ابو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي صاحب كتاب التيسير اخذ الطب عن ابيهِ وجدهِ وكان يتحدَّى جالينوس الاَّ انهُ كثيرًا ما عقَّب عليه وردَّ على ما ترآى لهُ من مظانّ الشبهات فيهِ · كان حاذقاً محققاً مدققاً ذا منزلة رفيعة ويظهر انهُ لم يَطبَّب كسائر اطباء زمانهِ ولكنهُ كان يُستشار في الامور المهمة . ومن حكاياتهم

عنهُ ان المهدي لما اخذ بلادا المغرب قرَّبهُ وأكرمهُ واتحفهُ بالعطايا ومما عمل لهُ انهُ اخذ ادويةً مسهلة نقعها وسقى بمائها كرمةً فحملت عنباً فاحمى الخليفة واعطاهُ عنقوداً منها فاكل منهـا عشر حبات فقال لهُ يكفيك نتوم عشرة مجالس لانك اكلت عشر حبات فكان كما قال [1] فتزايدت قيمتهُ عندهُ وعطاياهُ * قال الشيرازي وفي زمانهِ وصل القانون الى المغرب فلم يعجبهُ وصار يقطعهُ ويصرُّ بهِ الادوية . وهو استاذ ابن رشد توفي وعمرهُ ٩٢ سنة في اشبيليه سنة ٥٩٥ هـ ـ ١١٦٢ م

وكان ابن رشد يؤثر الفلسفة على الطب وهو الامام ابو الوليد محمد بن محمد القرطبي كان ابوهُ قاضي قضاة الاندلس فرباهُ على حب الفضيلة والعلم فبرع في الفقه وفي الحديث وفي الجدل وفي معرفة مذاهب المتقدمين ودرس الرياضات والطبيعيات والطب ثم صار مدرساً للفلسفة والفقة والطب في مدرسة قرطبة وكان أبيَّ النفس عيوفاً للمحاباة عرّض مرّةً بالخليفة فحرمهُ من مخالطة الناس الاَّ اليهود ورُمي بالزندقة فحجزت املاكهُ وهاج الشعب عليهِ فهرب الى فاس ولكنهُ ضبط فيها واُكرهَ على

(١) خاتمه شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازى
Sédillot; histoire générale des arabes

الوقوف صاغراً بباب الجامع ليبصق المارون عليهِ ثم عاد الى قرطبة يجرُّ ذيول الشقاء وبعد ذلك دعاهُ يعقوب المنصور سلطان مراكش فحسنت حالهُ واستردَّ ما فقدهُ [1] وتوفي سنة ٥٩٩ هـ ـ ١١٩٨ م . الف كتباً كثيرة منها كتاب الكايات في عدة مجلدات شرح بهِ فلسفة ارسطو ولهُ شرح ارجوزة ابن سينا

وآخر جهابذة الطب في الاندلس الامام المدقق ابو محمد عبدالله بن صالح المعروف بابن البيطار وُلد في مالقة في نهاية القرن الثاني عشر وسافر مشارق الارض ومغاربها ليرى النبات في موضعهِ ويحقق صفاتهِ بالعيان منكباً عن خطة التحدي والتقليد ومن طالع كتابهُ الجامع لمفردات الادوية والاغذية تبين ما كان عليهِ من ذكاء النفس وكثرة الحفظ وصحة النقد وسعة المعرفة لم يترك هفوةً اطلع عليها في كتب المتقدمين الاَّ نبَّهَ عليها توفي في دمشق سنة ٦٤٦ هـ ـ ١٢٨٤ م

هؤلاء هم اشهر حكماء العرب الذين اهتدى الاوربيون بهداهم واقتفوا آثارهم ايام كان الجهل ضاربا اطنابهُ بينهم وكانوا

(1) V. les médecins arabes; Revue scientifique tome XXXII de la collection P. 653

على حالة من الهمجية اقلّ ما قيل فيها انهم لم يكونوا يعرفون للقميص معنىً حتى استعاروا اسمهُ من العربية كما استعرنا منهم الآن اكثر اسماء ملابسنا كالبنطلون والبلطو فانقلبت الآية وكذلك الدهر بالناس قُلَّب . ولا شك ان علة هذا الانقلاب غلبةُ الجهل وتركُ العلم على ما يشهد العيان وتثبت الآثار . فلم يكن يوجد منهم من يعرف القراءة والكتابة الا بعض الرهبان وكان التشيع الديني يمزّقهم كل ممزّق وكانت الخرافات والاضاليل والعبودية تعمي بصائرهم وكان الطبيب عندهم ساحرًا دجالاً بيطارًا والصيدليّ حائكاً عطارًا والجراح حلاقًا مهذارًا . واول شعاع من نور العلم ضاءت بهِ آفاقهم انما انعكس عليهم من العرب مجاوريهم في الاندلس او مخالطيهم في حروبهم معهم ولا سيما الحروب الصليبية فتعلموا فلسفة ارسطو من مؤلفات ابن رشد وهندسة اقليدس من ترجمات الحجاج بن مطر واسحق بن حنين وثابت بن قرة والطب البقراطيّ من قانون ابن سينا ومصنفات الرازي والكيمياء من جابر بن حيان والنبات من ابن البيطار والرياضيات والطبيعيات والتنجيم من ترجمه المجسطي ومصنفات العرب الكثيرة [1] التي لا يسعنا بيانها الآن . وكانت مدارس

(1) V. l'histoire générale des arabes par Sédillot

الاندلس ولا سيما قرطبة محط رحالهم في طلب العلم واول من علم في مدارسهم اساتذة تلقوا العلوم عن العرب كما يعلم من تاريخ مدرسة سلرنا في ايطاليا وهي اقدم مدرسة في اوروبا ولم يكن مسموحاً للنساء عندهم ان يتعلمن حتى القراءة البسيطة والكتابة وكان التعليم بوجه العموم موكولاً الى خدمة الدين وبقي كذلك في فرنسا الى بداءة القرن الماضي فلم يتقرر فيها نظام المعارف العمومية الاَّ بعد الثورة التي ثلَّ بها عرش الاستبداد وتحررت العقول من ربقة الاستعباد . وهذه لغاتهم تشهد عليهم كما يشهد التاريخ وعقلاً وهم يقرّون بان العرب كانوا اساتذتهم فلفظة الجبر algèbre دليلٌ على انهم اخذوا هذا العلم عن العرب والكيمياء alchimie تدل ايضاً على انهم اعتمدوا على المؤلفات العربية في هذا الفن بعد ان امر الامبراطور فردريك الثاني بترجمة الكتب العربية بعد الحروب الصليبية . والصفر chifre دليل على انهم لم يكونوا يعرفون الارقام وهم حتى الآن يسمونها بالارقام العربية وصورها الافرنجية هي نفس الصور التي استعملها العرب قديمًا واكثر الاسماء في علم الهيئة عربية كالعنكبوت alancabuth والدبران aldébaran والطير althair والغول alghol والرجل rigel والسمت semt ثم تصرفوا بلفظها فقالوا zénith والنظير nadir ومما

اخذوهُ عنهم في الملاحة اميرال amiral والاسطول escadre مأخوذة من الطلياني في القرن الخامس عشر وكان يلفظونهـا eshiele وفي التشريح الصافن safène وفي الكيمياء الانبيق alambic والاكسير elixir والقلي alcali وفي المواد الطبية الترياق thhériaque والكحل [1] alcohol والشراب sirop والجلاب julep والرب rob واللعوق looch

(١) ويكتبه المترجمون الكؤول alcool وكانوا يكتبونه الكحول Alcohol تبعا للفرنسويين قبل ان قررت جمعيه العلوم الفرنسويه حذف الحرف h من هذه اللفظه وكفى بذلك دليلا على ضياع هذه اللغة وامتهانها من ابنائها فيما حقها ان تشرف به اما اصل اللفظة فقد اجمعوا على انها الكحل بمعنى الاثمد وانما خفى عليهم توجيه معنى الاثمد لروح الخمر . قال ليتراى فى معجمه الكبير انهما يلتقيان فى معنى اللطافة والدقه ، واتذكر انى سمعت من الدكتور فانديك رحمه الله اذ كان يدرس الكيماء فى مدرسة بيروت الكلية روايه لو صح سندها لكانت هى الحقيقه بعينها قال « من فنون العرب فى الاندلس استقطار روح الخمر واسرافهم باستعماله شرابا وقد عرفوا الانتيمون بخاصته السامه وانه من الكحل فكانوا اذا قصدوا اغتيال احد وضعوا الانتيمون فى الشراب فاذا سئل عنه قالوا سقوه الكحل ، يكنون بذلك عن موته مسموما ، وعليه اطلاق لفظه الكحل على المشروبات الروحيه »

والبادزهر bézoard والتمرهندي tamarin والسنا séné والنفط naphte والكمون cumin والانيسون anis والكراويا [1] carvi وغير ذلك مما يطول الكلام عليه ولا غرابة في ذلك فهم انما تعلموا في مدارس العرب ونقلوا كتب العرب الى لغاتهم وطبعوها قبل ان يعتنوا بطبع غيرها من الكتب لانهم اعتمدوا عليها في التدريس والتعليم ولا يخفى ان آلة الطباعة اخترعها يوحنا غوتنبرج سنة ١٤٤٥م واول كتاب طُبع بها مترجمًا الى اللغة اللاتينية هو كتاب التصريف للامام ابي القاسم الزهراوي المتقدم ذكرهُ وذلك في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ م . ثم طُبع قانون ابن سينا سنة ١٤٧٦ م . وبعد ذلك طُبعت مؤلفات الرازي سنة ١٤٨١ م ثم كليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ ــ ١٤٨٤ م . ثم طُبع تصنيف علي بن عباس الاهوازي المعروف بالملكي سنة ١٤٩٢ م مع ان مصنف شلشيوس انما طُبع سنة ١٤٧٨ م . ومصنفات

(١) تنبيه ــ قد ذكرت بعض الالفاظ المنقولة عن العربيه الى الفرنسويه بقطع النظر عن كونها عربيه الاصل اومعربه ولم اتصد لبيان هذه الالفاظ فى سائر اللغات لان اللغه الفرنسويه اكثر شيوعا بيننا

جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠ م وهي السنة التي طبعت فيها مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول الطب على القياس والتجربة فهو اذاً علم وعمل وعليه قول ابن سينا في مقدمة أرجوزتهِ المشهورة

الطبُّ حفظُ صحةٍ برءُ مَرَضْ   في بَدَنٍ من سببٍ عنهُ عَرَضْ
قسمتهُ الأولى لعلمٍ وعملْ   والعلمُ في ثلاثةٍ قد اكتملْ
سبعُ طبيعاتٍ من الأمورِ   وستةٌ وكلُّها ضروري
ثمَّ ثلاثٌ سُطِّرت في الكتبِ   من مَرَضٍ وعَرَضٍ وسَببِ

وبناءً عليهِ يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض واعراضها واسبابها . واما عملهُ فيراد بهِ مزاولة صناعة العلاج إما بالجراحة وإما بالدواء وتدبير الغذاء وعليهِ قول الشيخ الرئيس في ارجوزتهِ المذكورة

وعملُ الطبِّ على قسمينِ   فواحدٌ يُعمل باليدينِ
وغيرهُ يُعملُ بالدواءِ   وما يقدَّمُ من الغذاءِ

أمّا الامور الطبيعية السبعة فهي الاركان والمزاج والأخلاط والاعضاء والقوى والارواح والافعال ولكل منها احكامٌ وخصائص يطول الكلام عليها . قالوا ان الاجسام باسرها مركبة من الهيولى والصورة . وان الهيولى والعنصر والمادة والأسطقس والاصل والركن والموضوع متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار لان الشيء الذي يتكون منهُ شيءٌ آخر لا بدَّ وان يكون قابلاً لصورته فباعتبار كونهِ قابلاً للصورة مطلقاً يُسمى هيولى وباعتبار كونهِ قابلاً لصورةٍ معينةٍ يُسمى مادةً وباعتبار كون الصورة حاصلةً فيه بالفعل يسمى موضوعاً وباعتبار كونهِ جزءاً للمركب يُسمى ركناً وباعتبار كونهِ يبتدئ منهُ التركيب يسمى عنصراً وباعتبار كونهِ ينتهي اليهِ التحليل فيكون اصغر جزء في المركَّب يُسمى اسطقساً وباعتبار كون ذلك المركب مأخوذاً منهُ يُسمى اصلاً فالركن ابسط شيء في المركَّب ويقال على الاجزاء الاولية لبدن الانسان وهي مكونة من العناصر الاربعة على ما يؤخذ بالاستقراء وهي النار والماء والهواء والتراب . وقالوا ان البدن مؤلف من الاعضاء الآلية وهذه الاعضاء تتكوَّن من الدم

وهو من الغذآء وهو اما نبات او حيوان وهو ايضاً من النبات والنبات انما يقوم بالمآء والهوآء والتراب وحرارة الشمس فمرجع التكوين الي العناصر المذكورة ٠ والنار بالطبع حارة يابسة والمآء رطب بارد والارض رطبة يابسة والهوآء رطب حار ☆ واما الامزجة فهي كيفيات متشابهة تحدث من تفاعل الاركان بقواها المتضادة وهي على ثماني حالات وكلٌّ مقابلٍ ينقسم الى ثمانية اقسام فالخارجة عن الاعتدال الطبي اربعة وستون والمعتدل الحقيقي الذي لا وجود لهُ واحد فالجملة ثلاثة وسبعون ولهم في بيان ذلك كلام طويل لا محل لها الآن ☆ واما الاخلاط فهي اجسام رطبة سيالة تتولد من الغذآء وهي الدم والصفرآء والبلغم والسودآء وذلك ان الغذآء متى انهضم في المعدة يستحيل الى الكيلوس وينجذب الصافي منهُ الى الكبد فينطبخ فيهِ فيحصل فيهِ شيءٌ كالرغوة وشيءٌ كالرسوب وشيءٌ فجٌّ فالرغوة هي الصفرآء والرسوب هي السودآء والشيء الفج هو البلغم واما المصفَّى من هذهِ الجملة نضيجًا فهو الدم ☆ واما الاعضآء فهي الاجسام المتولدة من اول مزاج الاخلاط وتنقسم الى رئيسية وهي القلب وفيهِ مبدأ قوة الحياة والدماغ وفيهِ مبدأ قوة الحس والحركة والكبد وفيهِ مبدأ التغذية ☆ واما القوى فهي اما

طبيعية محلها الكبد او حيوانية محلها القلب او نفسانية محلها الدماغ ولكل منها اقسام ليس من غرضنا بيانها الآن ☆ واما الارواح فهي اجسام تحدث عن بخارية الاخلاط ولطافتها وتنقسم الى طبيعية وهي التي تنفذ من الكبد في العروق الغير الضوارب (الاوردة) الى جميع البدن والى حيوانية وهي التي تنفذ من القلب في العروق الضوارب (الشرايين) الى جميع البدن والى نفسانية وهي التي تنفذ من الدماغ في العصب الى اقاصي البدن

واما الستة الضرورية فهي (١) الهوآء و(٢) الغذآء و(٣) النوم واليقظة و (٤) الحركة والسكون و (٥) الاستفراغ و (٦) الأحداث النفسانية ٠ وكل ذلك يستلزم معرفةً مدققةً للتوصل الى معرفة حقيقة المرض واسبابهِ واعراضهِ وبالتالي الى معرفة علاجهِ . وقالوا في حدّ المرض انه حالة للبدن خارجة عن المجرى الطبيعي معها ينال الافعال الضرر بلا واسطة وان الاعراض علامات يعرف بها الخلل الحادث ومحلهُ من البدن وسببها انفعال الاعضآء بما يُجرى فيها على غير النظام الطبيعي لان الطبيعة تحاول اصلاح هذا الخلل وتغالب قواها قواهُ فاما ان تقهرهُ فتحدث الصحة واما ان يقهرها فيحدث الموت فالطبيب

النطاميُّ اذًا انما ""هو خادم الطبيعة"" التي تحذو الافعالُ الطبيةُ حذوَها فيجب عليهِ ان يقويها متى وجدها ناهضة بشفاءِ مرض او يتركها على حالها وان يقوّيها ويقابل مقاومها بما يضادهُ متى وجدها مقصرةً وان وجدها عادمة آلةٍ او مسلكٍ هيّأ ذلك لها مثل رد خلع وتسوية كسر وفتح عرق كل ذلك بحسب الامكان . ووضعوا للمعالجة بالدوآء قوانين هي اولاً اختبار كيفية الدوآء من حرارتهِ وبرودتهِ ورطوبتهِ ويبسهِ وذلك بعد معرفة نوع المرض هل هو حارٌّ او باردٌ او غير ذلك ليعالج بالضدّ وتُحفظ الصحة بالمثل وثانيًا اختيار وزنهِ هل يؤخذ منهُ كثير او قليل وثالثًا وقت استعمالهِ والوقت الحاضر من اوقات الفصول واوقات المرض وهي اربعة الابتدآء والتزُّيد والوقوف والانحطاط فيعطيهِ ما يناسبهُ في تلك الاوقات

هذهِ هي خلاصة ما ذهب اليهِ الحكمآء في الطب القديم اخذتها عن عدةٍ من كتبهم المعتبرة ولم اتصدَّ لبيان ما بنوا عليها من الآراء والمذاهب وما توسعوا فيها من الشرح والتفصيل وما تحرَّوا من المباحث والمطالب وانما قصدت الاشارة الى الاصول التي اتخذوها اساسًا لمعارفهم لتتسهل المقابلة بينها وبين الاصول المتخذة الآن فتُدفَع مزاعم الذين يهرفون بما لا يعرفون

ويكتبون عنهم وهم لا يقرأون واذا قرأوا لا يفهمون ويُعلَم ان الطب انما وصل الى حالتهِ الحاضرة من الاتقان واتساع المدى وصحة المبداءِ بعد ان تدرج في مراتب الارتقاء من طور الى طور حتى وصل الينا في هذا الطور وقد كاد يبلغ ذروة الكمال

وقد مرَّ بك ان القدمآء بنوا مذهبهم في تركيب بدن الانسان من الاركان الاربعة على تعاليم بقراط مستدلاً على ذلك بان العناصر اربعة وهي المآء والهوآء والنار والتراب وان هذا المذهب بقي شائعًا معوَّلاً عليه حتى الى امدٍ قريب وذلك لانهم توهموا ان العناصر الاربعة انما هي بسيطة ولم يكن لديهم من الوسائط ما يهتدون بهِ الى معرفة حقيقتها الا الحدس والظن والانسان مطبوعٌ على حب التقليد والتحدي فلم تكن مخالفة هذا المذهب بالامر الهين طالما لم يثبت نقيضهُ ببرهان التجربة والمشاهدة . على ان الكيماويين من العرب قد مهدوا السبيل لمعرفة تركيب العناصر بما اجروا من التجارب لتحويل المعادن الى فضةٍ وذهب واقتفى آثارهم بذلك بعض الرهبان كروجر باكون واول ما اهتدوا اليهِ تحويل الزنجفر الى الزئبق والكبريت ثم كشف بريستلي الانكليزي وشيلي الاسوجي

ولافوازياي الفرنساوي غاز الأُكسجن سنة ١٩٧٤ وسنة ١٧٧٥
وكشف كافندِش الانكليزي غاز الهيدروجن سنة ١٧٦٦
وكشف الدكتور رثُرفُرد النيتروجن سنة ١٧٧٢ وسماهُ
لافوازياي ازوتاً لعدم صلاحيتهِ للحياة فثبت كون الماء مركباً
من الهيدورجن والأُكسجن وكون الهواء مركباً من الاوكسجن
والازوت وغيرهما وان النار ظاهرة تتولد من اتحاد مادة كربونية
بغاز الأُوكسجن في حالة الاشتعال وان التراب مركب من
عناصر كثيرة يطول شرحها

وكان التشريح محرَّماً على القدماء فلم يكن من سبيل لمعرفة
منافع الاعضاء الا بقدر ما توصل اليهِ بقراط بحدسهِ الصائب
وذكائهِ الغريب من النظر الى الحيوانات التي كانت تقدَّم
في هياكلهم ضحايا لآلهتهم واول من مارس التشريح من القدماء
هيروفيلوس الخلقيدوني في مدينة قوس فهاج اهلها عليهِ حتى
اضطروهُ الى الهرب فجاء الى الاسكندرية واشتغل في
مدرستها بتشريح الحيوانات وجثث المحكوم عليهم بالاعدام
وأُتهم بتشريح الاحياء وتبعهُ ايرازستراتوس من مدينة قيدوس
فتحققا اشياء كثيرة مما لم تصل اليه معرفة الذين تقدموهما
واخذ عنهما جالينوس واشتغل ايضاً بالتشريح في مدرسة

الاسكندرية وألف الكتب التى اهتدى بها علماء العرب وتوسع
كثيراً بمباحثهِ الا انهُ تابع ارسطو بزعمهِ ان الدم ينفذ من
احد بُطيني القلب الى الآخر بواسطة بطين ثالث سماهُ دهليزاً وربما
حداهُ الى هذا الزعم مشاهدتهُ في أجنة الحيوانات اللبونة
ثقباً بين البطينين لان الدم الشرياني يختلط بالوريدي
في الاجنة وهذا الثقب يُسدُّ بعد الولادة . وقال ان الشرايين
تحمل الروح والاوردة تحمل الدم . ومن يتأمل في مؤلفات
اطباء العرب يرى ان معارفهم بالتشريح لم تكن قاصرةً الى الحد
الذي توهمهُ بعضهم بحجة ان التشريح كان محرماً عليهم . قالوا
في تشريح القلب ما نصه " اما القلب فانهُ جسمٌ مخروطي
كهيئة الصنوبر قاعدتهُ وسط الصدر ورأسهُ الى جانب اليسار
وهو احمر رُمَّاني مركَّبٌ من اللحم والليف والغشاء الصلب (وهو الصمامات)
المنتسج من ثلاثة انواع من الليف الطويل الجاذب والعريض
الدافع والمورب الماسك ليكون لهُ اصناف الحركات وفنون
الافعال . وهو منبع الحرارة الغريزية ولهُ بطنان احدهما الايمن
وهو مملوءٌ بالدم الكثير والروح القليل ولهُ مجاري يجري فيها
من القلب الى الرئة دمُ الغذاء ومن الرئة الى القلب الهواء
والثاني الايسر وهو مملوء بالروح الكثير والدم القليل وهو منبت

الشرايين . ومن ذلك يعلم ان اطباء العرب لم يبعدوا كثيرًا عن معرفة حقيقة دورة الدم . فلو ابيح لهم اجراء التجارب على الحيوانات حيةً كما فعل هرفي في القرن السادس عشر لما قصروا عن مداهُ ومع ذلك فقد عرفوا ان منفعة الرئتين الترويح وهو عندهم نفض البخار الدخاني (الحامض الكربونيك) وجذب النسيم اليه (وهو الهواء النقي المشتمل على الأكسجن) . ومن ذلك يُعلم انهم حوّموا على الحقيقة بالحدس الصائب . وقالوا ان الدم اصل في تكوين الجسم الحيواني وان تغذية جميع الاعضاء انما تقوم به بحيث يتناول كلُّ جزء منهُ ما يماثلهُ ويصلح لان يتشبَّهَ بهِ فيحصل التركيب والافراز ونتيجة ذلك النماء وطرح الفضول . وعرفوا الاعصاب وعددها ومنابتها من الدماغ والنخاع الفقري وانها تورد الحس وتصدر الحركة . وقيل ان جالينوس عرف ذلك بالتجربة حيث قطع في مواضع من النخاع الفقري طولاً وعرضًا كما فعل شارل بلّ في القرن الاخير فتحقق مصدر الحسّ والحركة في العصب الواحد . وفيما تقدم كفاية لتفنيد مزاعم الذين يقولون ان علماء العرب كانوا بعيدين عن الحقائق العلمية بمراحل وانهم لم يبتدعوا رأيًا ولم يستنبطوا امرًا .

ولو عرفوا ليلى اقرُّوا بفضلها وقالوا باني في الثناء مُقصّرُ

الفصل الخامس

في الطب الحديث

نبذة اولى

في مدرسة سَلِرْنا

لا مراء في ان اصول الطب الحديث مبنيّة على اساس التحقيق لان العلم صار حرًّا بعد عتق الافكار من العبودية القديمة فلا يؤخذ الآن بمجرد الاذعان والتسليم لقول من قال ولو كان من جهابذة الفن بل بتحقيق كل قضية منهُ ببرهان التجربة والعيان فلولا اباحة علم التشريح واجراء التجارب على الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضاء لبقيت اصول علم الطب من الاسرار الخفية التي ضُرب عليها حجاب الجهل ولولا التدقيق في اجراء التجارب التي قصد بها تحويل المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة لما عُرفت طرق تحليل العناصر الكيماوية وتركيبها فلم يكن من سبيل لنقض آراء الاقدمين المبنية على الحدس والتخمين . على ان الوصول الى تحقيق القضايا العلمية ببرهان التجربة والاختبار الشخصي لم يكن سهلاً ولا سيما في زمن

الاستبداد والهمجية بل كانت تحول دونهُ شبهات المروق عن الدين فمن حاول ذلك كان مخاطرًا بنفسهِ . حُكي عن روجر باكون وكان راهبًا نبغ في القرن الثالث عشر انهُ كان يزاول التجارب الكيماوية ويرصد النجوم فحسبوهُ ساحرًا وطردوهُ من ديرهِ في باريس فالتجأ الى انكلترا موطنهِ وهناك اتهموهُ ايضًا بالسحر فسجنوهُ وضيقوا عليه مدة عشر سنين حتى عُلَّ ومات وقيل ان احد اصحابهِ سعى في اخراجهِ من السجن قبل وفاتهِ بمدة قصيرة [1] وفي آخر ساعةٍ في حياتهِ جاءَهُ الكاهن ليعرّفهُ حسب العادة فقال لهُ اندم على خطاياك فاجابهُ "انني نادم على ما جلبت لنفسي من الشقاء باجتهادي في مقاومة الجهل [2]" . ولم يكن احدٌ من الاوربيين في ذلك الزمن آمنًا على نفسهِ ومطمئنًا في بيتهِ بل كان مهددًا في كل حين بفقد حياتهِ وخسارة مقتنياتهِ لمجرد تهمة يسعى بها جواسيس مجمع التفتيش الديني ولذلك بقي علم الطب متوقفًا عدة قرون فلم يتقدم في سبيل النجاح الحقيقي الاَّ في القرن التاسع عشر بعد ان عُتقت الافكار من قيود العبودية ورفع على نوادي العلم

(1) Worthies of science. by J. Stoughton
(2) Diederot; Introduction à la chymie; V. Revue scientifique, tome XXXIV P. 102

واقدم جميع المدارس الطبية التي انشأها الاوربيون هي مدرسة سَلرنا [1] التي اقتبست انوار الحكمة المشرقية من العرب وقد اختلف الباحثون في زمن انشائها وفي الذين انشأوها لانهُ لا يوجد في التاريخ نص صريح يتبيَّن منهُ اصلها . وجلُّ ما عرفوهُ من هذا القبيل مأخوذ عن قيود مدينة نابلي وعن روايات تقليدية ذُكر فيها ان الذين انشأوا هذه المدرسة اربعةٌ يمثلون الاجيال الاربعة المشهورة بالعلم في القرون الوسطى وهم العرب واليهود واليونان واللاتين . وزعم بعضهم ان قسطنطين الافريقي اسس هذهِ المدرسة سنة ١٠٧٥ على ان الاكثرين ينكرون ذلك ويثبتون وجود المدرسة وبيمارستانها قبل زمن قسطنطين المذكور ويدعون ان المدرسين فيها كان يُطلق عليهم لقب استاذ وقسطنطين المذكور لم يُعرف بهذا اللقب فلم يكن من اساتذتها وانما ترجم كتب العرب الى اللاتينية في جبل كاسينو قرب سَلرنا وادعاها لنفسهِ . وقال آخرون ان الرهبنة البندكتية بنت هذهِ المدرسة في القرن التاسع او قبلهُ . ونسب غيرهم

1 V. les médecins arabes et l'école de Salerne; Revue scientifique, tome xxx II p. 647 , 681

تأسيسها الى امرآة لمبرديا وكان الاساتذة فيها من الرهبان والعلمانيين . وذُكِر في قيود مدينة نابلي اسماء عدة اطباء نبغوا في مدرسة سلرنا منذ سنة ٨٤٦ منهم امرأة اسمها تروتا[1] عاشت سنة ١٠٥٩ والفت في امراض النساء والولادة وسائر علوم الطب وكان زوجها وابنها طبيبين

اما قسطنطين الافريقي فوُلد في قرطجنة في القرن الحادي عشر وسافر ٤٠ سنة في بلاد العرب والعجم والحبشة ومصر وعاد الى وطنهِ فاتهموهُ بالسحر وهموا بقتلهِ فلجأ الى ايطاليا وتعين كاتباً عند روبرت غويسكرد ثم اعتزل الخدمة ليترهب في دير مونتو كاسينو المختص بالرهبنة البنديكتية فتفرغ لترجمة كتب الطب البقراطي من العربيّة الى اللاتينية وادعى انه مؤلفها وكانت مصنّفات جالنيوس قد تُرجمت من العربية الى اللاتينية فانتشر مذهبهُ وسميت سلرْنا بالمدينة البقراطية . وفي منتصف القرن الثاني عشر انتشرت القصيدة المعروفة بمدرسة سلرْنا scola salernitana ولم يعرف ناظمها ولا يبعدُ ان يكون اكثرها مترجماً عن ارجوزة الشيخ الرئيس . وفي القرن الثالث عشر نبغ في المدرسة المذكورة الجراح روجر واشتهر بمؤلفهِ في الجراحة الذي اشترك في تأليفهِ ثلاثة

1 Trotula, Trotta ou Trocta

آخرون . وممن اشتهروا في ذلك القرن بترجمة الكتب العربية الى اللاتينية جيرار الكريموني[1] من تلامذة مدرسة طُلَيطلة ترجم من اللغة العربية الى اللاتينية سبعين مصنفاً في العلوم والطب . وكان بيمارستانها يقصدهُ المرضى من جميع الاقطار الاستشفاء من امراضهم

ومن الثابت ان مدرسة سلرْنا ارتقت الى قمة النجاح في ايام فريدريك الثاني ملك صقلية سنة ١١٤٧ وامبراطور المانيا سنة ١٢١١ الى ١٢٥٠[2] فهو الذي ضمّ اليها المدارس الثانوية وجعلها مدرسة كلية تُعلَّم فيها العلوم الادبية والفلسفية قبل الطب وعين مدة درس العلوم الطبية خمس سنين يزاد عليها سنة لممارسة الصناعة في البيمارستان وسنة اخرى لدرس علم التشريح البشري اذا كان الطالب راغباً في مزاولة الجراحة . ومنحها حق اعطاء الشهادات القانونية لمستحقيها . وحظر التطبيب الا على الذين تخرجوا في هذه المدرسة وحصلوا على شهادتها . وجعل لمعاطاة الصيدلة نظاماً من مقتضاه ان كلّ صيدلي ضامنٌ لما يتعاطاه وان الاطباء لا يجوز لهم الاشتراك مع الصيادلة في الاتجار بالادوية ولا ان يختصوا انفسهم بدواء لمنفعة خصوصية . وكان فريدريك المشار اليهِ محباً للعلم والعلماء متخلقاً باخلاق كرام العرب حريصاً على جمع الكتب

1 Gèrard de Crémone «Lombardie».
2 V. la grande Encyclopédie.

وترجمتها الى لغة قومهِ . وكان العلماء يفدون اليه من كل صوب وجهة . فاجتمع في بلاطهِ الادباء والعلماء والحكماء والاطباء من عرب ويونان وطليان وفرنجة . وكان يخطب فيهم بلغاتهم ويباحثهم في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والطب لانه كان بارعاً في هذه العلوم فضلاً عن براعته في النثر والنظم باللغتين الطليانية واللاتينية فكان الشعراء لا يفارقون مجلسه . وهو الذي امر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد والكيمياء والطب الى اللغة اللاتينية واستدعى علماء العرب من الاندلس ومن افريقيا لنشر العلوم في بلادهِ وقرب اليه الرياضي ليونارد من بيزا والفيلسوف ميشل سكوت ومما يؤثر عنه قولهُ في بعض منشوراتهِ الملوكية ,, لاشيء ينفع الامة مثل تعميم العلم بين افرادها لانه يكفل للمملكة السلامة وللعامة النجاح ولذلك لم ندخر وسعاً من الأخذ بالاسباب التي تؤول الى انتشارهِ '' وكان ينزع الى الاستقلال بالسلطتين الزمنية والروحية فخاصمهُ رؤساء الدين واتهموهُ بالسحر والزندقة والتعطيل وهاجوا عليه سخط شعبه واصدر البابا غريغوريوس التاسع منشوراً بشجبهِ وضيقوا عليه الخناق حتى اضطروه الى مسالمتهم بما منحهم من المزايا والحقوق وما تظاهر بهِ من مقاومة الهراتقة والمشاقين والتنكيل بهم . وهو الذي انشأ الندوة الطبية في نابلي وخصَّها بحقوق وامتيازات لم تكن لغيرها من قبل

فكانت سبباً لانحطاط مدرسة سلرنا عن منزلتها الاولى لانحراف الطلبة عنها ثم حدثت بينهما مساجلات افضت الى تضعضع اركانها وذلك في القرن السادس عشر ثم قُضِي عليها بالالغاء بموجب حكم صدر في ٢٩ ايلول سنة ١٨١١ وبذلك انقضى عهد هذه المدرسة المشهورة التي يندبها التاريخ وترثيها الاعصار بعد ان كانت كأنها شعلة نار توقدت بالمعارف العربية في ظلمات الجاهلية الاوربية الى ان ثارت عليها عواصف الحوادث فأطفأت نورها واخمدت سعيرها وقد حُملت جذواتها الى المدارس التي أُنشئت على الأَثر فأضاءت مصابيحها في تلك الاقطار ولم تزل زاهرة تهدي الهدى للبصائر والنور للابصار

نبذة ثانية

في طرق انتشار علم الطب في اوربا
وبداية نقض آراء القدماء

قد تقدم ان علم الطب وصل كغيرهِ من علوم الحكمة المشرقية الى المغرب مأخوذاً عن العرب مترجماً عن اللغة العربية الى اللغة اللاتينية حتى مؤلفات حكماء اليونان فقد تُرجمت عن العربية الى اللاتينية وليس عن اليونانية الا القليل منها . وان

الصلة بين المشرق والمغرب في نشر العلوم ونفوذ اشعتها في ظلمات الجاهلية الاروبية انما كانت مدرسة سلرْنا كما كانت مدرسة جنديسابور واسطة لنشر الطب البقراطي وحكمة اليونان بين العرب . وان نقلة هذه العلوم الى اللغة اللاتينية تعلّم اكثرهم في مدارس العرب وسافروا في البلاد العربية اي التي يتكلم اهلها باللغة العربيــة منهم قسطنطين الافريقي وجيرارد الكريموني وروجر الكبير مولف كتاب الجراحة مع ثلاثة آخرين من اساتذة مدرسة سلرنا . ويظهر ان الاطباء كانوا في ذلك الزمن يدرسون اللغة العربية كما ندرس نحن الآن لغةً أُروبية لاتقان علم الطب . والفرق بيننا وبينهم اننا ندرس اللغات الاروبية لنصير اروبيين اي لننكر اصلنا وفصلنا وهم انما كانوا يدرسون اللغة العربية ليستفيدوا بنفائسها ويفيدوا وطنهم بتعميم مطالب العلم ونشره وتحقيق مسائله وايضاح ما غمض من مشاكله ولعلّ هذا الفرق حادثٌ من مبادئ التربية لاننا مضطرّون للتعلّم في مدارسهم حيث لا مدارس لنا .

وهم انما امتازوا بانشاء المدارس الكثيرة في اقطار اوربا منذ سطع نور العلم في افق الاندلس فكثرت المدارس في انحاء ايطاليا ثم في فرنسا وانكلترا وسائر جهات اروبا وساعد على امتدادها استعمال لغةٍ واحدةٍ في جميعها هي اللغة اللاتينية لغةُ الكنيسة الرومانية.

وكان لخدمة الدين اليد الطولى في إنشاء هذه المدارس وادارتها والسيطرة عليها حتى ان مدرسة مونبلياي وهي اقدم مدرسة اروبية خُوّلت حقّ اعطاء الرتب المدرسية منذ سنة ١١٢٠ لم تكن تمنح لقب الاستاذ إلاّ للاكليروس وتلتها مدرسة باريس سنة ١٢٧٢ وقد تقدم ان مدرسة سلرنا خوّلت هذا الحق منذ سنة ١٢٣٢ مع انها اقدم جميع المدارس الاروبية من حيث النشأة

ولا يسعنا المقام ان نذكر هذه المدارس والذين أنشأوها ولكننا نلمّ بذكر بعض الذين نبغوا فيها ممن امتازوا بالاراء الصائبة المؤيدة بالتجربة والمكتشفات التي تدرّج بها علم الطب في مراتب الكمال واخصّ هذه المكتشفات في علميْ التشريح والكيمياء وهما اساس جميع العلوم الطبية وذريعة العمران ومعدن السعادة وكلاهما حُفَّ بالمكاره لان التشريح كان محرّماً والكيمياء عُدّت من فنون السحرة فلا بدع ان بقي علم الطب واقفاً عند الحد الذي انتهت اليه مدرسة الاسكندرية ولم يجرِ في حلبته المتسابقون شوطاً بعيداً الا بعد ان نشطت العقول من عقال الوهم . ولقد اشار ابو القاسم الزهراوي في مولفه ,,القياس والتجربة‘‘ الى هذا الامر الخطير معترضاً على تحريم التشريح معرّضاً بالذين حالوا دون تحقيق المسائل العلمية بالترّهات وصدّوا عن سبيل العلم بالخزعبلات وهذا الكتاب هو

اول كتاب مُثّلت فيهِ صورُ الآفات الجراحية واشكال الآلات التي استُعملت لمعالجتها [1] فيحقّ لنا ان نبدأ به تاريخ النهضة الطبية

وكان الاطباء يمارسون التشريح خفيةً عن اعين المراقبين من رجال الدين ثم أُذن لهم بتشريح جثث المجرمين وسبقت مدرسة بولونيا ومدرسة باريس سواهما الى عرض هيكل عظام الانسان في قاعة التدريس . ويظهر ان اطباء الطليان تجرأُوا وقبل غيرهم على ممارسة التشريح ومهّدوا الطريق لنقض مذهب بقراط وجالينوس والذين جاؤوا بعدهما من اطباء العرب . واول من قام بهذه النهضة ويزال [2] المعروف بابي الجراحة وُلد سنة ١٥١٠ وكان حلاقاً ابن حلاقٍ ثم صار بالممارسة جراحاً ومشرحاً فاثبت وجود الفاصل بين بطَيني القلب وان الدم لا يخترقهما كما زعم جالنيوس ولكنه يسير من الجهة اليسرى من القلب ويعود الى الجهة اليمنى . وهو اول من استعمل ربط الشرايين لقطع النزف الدموي . توفي سنة ١٥٩٠ وطبعت مؤلفاتهُ سنة ١٥٧٥ وهي مزينة بالرسوم التشريحية والجراحية . ثم عرف سِرْفت [3] الدورة الرئوية ولكنهُ بقي على مذهب القائلين بان الدم الوريدي الذي يرد من الكبد

1 La Revue Scientifique; Tome xxx II
2 Vésale 3 Michel Servet

تناط به التغذية وان الدم الشرياني يصدر عنه الروح الحيواني وتتوقف عليه الحرارة الغريزية . وقد اتهم ديوان التفتيش الديني ويزال بالمروق عن الدين وحكم عليه بالحريق حياً الا ان فيليب الثاني توسط في نجاتهِ فأُلجيءَ الى الذهاب الى الارض المقدسة كفارةً عن جرمه وغرق قرب جزيرة كريت . واما سرفت فاحرق حياً بامر كلفينس سنة ١٥٣٥ وجاء بعدهما كولمبوس [1] وريلدو [2] وأُوستاخيوس [3] وفلوبيوس [4] وأرنشيو [5] وكلٌّ منهم مذكورٌ في كتب التشريح بما اكتشف عليهِ من الحقائق التي لم يتوفق الى اكتشافها السلف . ونبغ سنة ١٥٩٨ فبريس [6] الاكوابنديتي فاكتشف على صمامات الاوردة وكان مدرساً للتشريح في مدرسة بادو الملكية وتخرج عليه هرفي الشهير . اما سيزلبيني [7] فجلُّ ما ذكره من جهة دورة الدم ان الاوردة تمتلئ دماً اذا رُبط الذراع تحت مكان الربط لا فوقهُ وعلل بذلك عن رجوع الدم الى القلب . وُلد سنة ١٥١٦ وكان مدرساً للتشريح في مدرسة رومة

ومن مشاهير ذلك العصر غُوي من شولياك [8] درس في مدرسة

1 Colombo 2 Realdo 3 Eustache 4 Fallope
5 Arantio 6 Fabrice d'Acquapendente 7 Césalpin
8 Guy de Chauliaque.

طولوز وتخرج في مدرسة مونبلياي ثم جاء الى بولونيا فاخذ التشريح عن نيقولا برتروشي وطالع مولفات اطبآء العرب وكان طبيب البابا اينوسان السادس . الف في الجراحة كتاباً ضخماً سنة ١٣٦٣ طبع في البندقية سنة ١٣٩٠ وتُرجم الى جميع اللغات الاروبية .

وفي القرن الخامس عشر اخذت غيوم الغباوة والجهل تنقشع عن آفاق القارة الاروبية فتلوح من خلالها اشعة المعارف وتبدو تباشير صبح الاصلاح . وذلك ان العرب اصطنعوا ورق الكتابة من الحرير ثم من القطن فاخذ الاسبان والطليان عنهم هذه الصناعة فكانت فألاً لاستنباط آلة الطباعة وتعميم نشر الكتب . واكتشفوا على منافع الحك في الملاحة وكان الملاَّحون من قبل يهتدون بمواقع النجوم فتهيَّأ لخريستوف كولمبوس ذلك السفر الطويل الشاقّ الذي انتهى باكتشاف العالم الجديد . وأوجدوا البارود واستعملوهُ في حروبهم مع الاسبان لرمي القذائف فتعلمهُ هؤُلاء منهم واتقنوا صناعته وحاربوهم بسلاحهم[1] فكان ذلك بداية انقلاب الفنون الحربية واستنباط الآلات الجهنمية . واجتاح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وغلب الروم عليها فلجأ كثيرٌ من علمائهم الى ايطاليا

1 V. l'Histoire des Arabes par Sédillot

وتفشّى الدآء الزهري في مدينة نابلي وجنوبي اروبا فاعوز الحال الى الاطبآء والجراحين . وكأَنَّ هذه الاسباب قد تهيأت لتعمل على خلع نير العبودية والاستبداد فهبَّ المصلحون في طلب الحرية وتجرأ اهل القرن السادس عشر على بث آرآئهم وافكارهم وظهر حينئذ هرفي الانكليزي فابدع بكشف دورة الدم وكان ذلك من اقوى الاسباب التي تداعى بها بنيان الطب القديم

وُلد وليم هرفي[1] سنة ١٥٧٨ ودرس علوم الطب في مدرسة كمبردج الجامعة ثم تخرج في مدرسة بادو مدة اربع سنين وكانت هذه المدرسة معدودةً حينئذ في اول درجات المدارس العليا ثم عيّن طبيباً في بيمارستان القديس برثلماوس وكان يلقي خطباً في التشريح والجراحة ثم عينهُ الملك جاك الاول طبيباً لهُ واشتهر بممارستهِ التشريح على الحيوانات الحية ونشر موءَلفهُ في حركات القلب والدم في الحيوانات سنة ١٦١٥ قال ,, اذا شُقَّ الصدر عن القلب ورُفع الشغاف حالاً يرى القلب متحركا حركاتٍ متواليةً بين كل حركتين فترة سكون فلهُ اذا وقتٌ للعمل ووقتٌ للراحة ‘‘ وكانوا يظنون ان علة نبضان القلب مصادمة طرفهِ الجدارَ الباطن للصدر عند الانبساط

1 W. Harvey

فأثبت ان الحقيقة على خلاف ما زعموا لان القلب انما يصدم جدار الصدر الباطن عند الانقباض الذي يندفع به الدم من البُطينين .فالدم المندفع من البُطَين الايسر يجري في الاورطى (الابهر) والمندفع من البطين الايمن يجري في الشريان الرئوي. والاورطى يحمل الدم النقيَّ بالشرايين التي تنشأ منه الى جميع انحاء الجسد لتتم الاعمال الحيوية ثم يعود بالاوردة التي تبتدئ بان تكون دقيقةً فتغلظ بما يتصل بها من الفروع الواردة بعضها الى بعض حتى تنتهي من جهة الراس والعنق بالاجوف النازل ومن جهة الاطراف والصدر والاحشاء بالاجوف الصاعد وكلاهما يصبان في الأُذينة اليمنى الدمَ الوريديَّ القاتم اللون وهي تفرّغهُ في البطين الايمن حيث ينشأ الشريان الرئويُّ فيحمله الى الرئتين وبعد اتمام دورته فيهما يعود الى أذينة القلب اليسرى محمولاً بالاوردة الرئوية فتُفرّغهُ في البطين الايسر حيث ابتدأت الدورة ولا يزال دائرًا على هذا المنوال مادام الحيوان حيًا

هذهِ هي دورة الدم التي أبدع بيانها هرفي محمولاً الى اكتشافها بما تحرّاهُ من التجارب على الحيوانات الحية والتأمل في كمية الدم الغزيرة النازفة من الشرايين لدى قطعها وفي النسبة بين كميتهِ وبين تجاويف القلب والاوعية وفي عمل

الصمامات وسرعة حركة الدم الى غير ذلك مما اوضحه في مؤلفهِ المشار اليه اثباتًا لهذه الحقيقة التي عارضهُ بها معاصروه وانكروها عليهِ لانهُ خالف آراء الاقدمين كأنهُ جاء امرًا فريا. على انهُ قد نهج بذلك طريقًا سويًا أدّى الى كشفِ كثير من الحقائق بعضها على اثر بعض فجاءت كلّها مؤيدةً لاكتشافه البديع . منها اكتشاف تفمم الاوعية الدموية والدورة في الاوعية الشعرية اللذين اوضحهما ملبيجي[1] سنة ١٦٦١ ومنها اكتشاف الاوعية الليمفاوية التي ابدع بيانها أزليّ[2] واهمُّ هذه الاكتشافات وابدعها واشدُّها طائلة على نقض الآراء القديمة واثبات منفعة الدم ودورتهِ و بناء علم الطب الحديث على اسس الحقيقة انما هو اكتشاف لافوازياي مصدر الحرارة الحيوانية وطريقة تطهير الدم بواسطة التنفس على ما يُعلَم مما يأتي

نبذة ثالثة

في نقض المذاهب القديمة من حيث الكيمياء

لامراء في انَّ مصر سبقت الى الحضارة والمدنية جميع الامصار على ما يُعلَم من الآثار المكتشف. عليها وقد ثبت انها سبقت غيرها الى احراز العلوم وتدوينها بالخط القبطي القديم المعروف

1 Malpighi 2 Aselli

بالهيروغليف ليبقى اثراً خالداً يدلُّ في جميع الاحقاب والعصور على عظمتها ومدنيتها ويبعث في الخلف روح الغيرة والنشاط بتذكار ما كان عليه السلف · ومن الثابت ان مشاهير فلاسفة اليونان جاؤا مصر وأخذوا عن المصريين منهم فيثاغورس وهيرودوتوس وافلاطون وارسطو. ولما خبا مصباح العلوم في مدارس اليونان ازهر في مدرسة الاسكندرية فنبغ فيها ارخميدس بالهندسة وبطليموس في علم الهيئة وجمبليكس [1] وبلوتنس [2] في الفلسفة وهيروفيلوس وايرازستراتوس وجالينوس في التشريح وسائر العلوم الطبية. اما علم الكيمياء فقد كان الكهنة المصريون ابناء بجدته وكانوا يحلّونهُ من دينهم في المحلّ الارفع ويبيحون دماء من باح بسره ولذلك لم يدوّنوهُ الا بالرموز والالغاز والأشكال الغريبة التي نقلها اليونان عنهم وتحدَّوهم بها من ذلك تسمية المعادن السبعة المتطرقة باسماء الكواكب السبعة السيارة ووضعهم لكل منها علامة خصوصية تدلُّ عليها بالخط فاذا ذكروا الرصاص قالوا زُحل وكتبوهُ بسمته واذا ارادوا الزئبق اشاروا الى المريخ ورمزوا الى الذهب بالشمس والى النحاس بالزهرة والى القصدير بالمشتري والى الفضة بالقمر · و يظهر من كتب الخط اليونانية القديمة الموجودة في المكاتب العمومية

1 Jamblique 2 Plotin

في ممالك اوربا ومقابلتها بادراج البردي المصرية ان اليونان لم يزيدوا شيئاً في هذا العلم على ما اخذوهُ عن المصريين · واجمعوا على ان اساتذة الكيمياء العظام الذين سموهم بمعلمي المسكونة أخذوا عن المصريين وهم هرمس وديمقريطس وذوسيم · اما هرمس فنعتوهُ بالمثلث العظمة [1] لانهم زعموا انه آلهٌ يقتاد الانفس الى الالهتين تهوت وتوت وقال آخرون انه من ملوكهم العظام استنبط العلوم واودع اسرارها الكتب الرمزية واليه ينسب علم الكيمياء فيقال الصناعة الهرمسية والصناعة المقدسة وهو عند العرب ادريس او اخنوخ وعليه قول ابن هانيء في شذور الذهب

دعني من صبغ النحاس بزرنيخِ ومن عقد محلولِ الرصاص بمرّيخِ

الى ان قال

ومن ذلك ارماز الذين تحالفوا على كتم هذا السرّ من عهد أخنوخِ

واما ديمقريطس فهو من مشاهير فلاسفة اليونان كان في عهد افلاطون وجاء مصر وبقي خمس سنين يتلقى العلوم فيها وسافر في جميع البلدان وكان يسمى بالحكمة · واما ذوسيم فكان في القرن الثالث في زمن اكليمنضوس الاسكندري وترتوليانوس وهو الذي نقل الرموز الكيماوية الى لغة اليونان في ٢٨ رسالة هي اقدم ما

1 Trimageste : V. Hermés ; Qrande Encyclopédie

أُلف في هذا الفنّ وذكرهُ ابن هانيء الاندلسي . قال مشيرًا الى الكيمياء .

كم كنى لا آثمًا في ما كنى   هرمسٌ عنها ولا ذا جنفِ
واطالَ القولَ فيها ذوسمٌ   وهو قد دوّنها في الصحفِ
واجادَ النظمَ فيها خالدٌ   لرجالٍ من خبار السلفِ

وقال برثلوت كيماويٌّ هذا العصر الشهير ,, من كتب الخط القديمة الموجودة في المكتبة الوطنية (بباريس) كتاب في صناعة الزجاج والاحجار الكريمة ينسب الى سلمناس salmanas العربي من رجال القرن الثامن '' ولعلهُ مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كان بعد جابر . قال ابن خلدون كتب مسلمة كتابهُ الذي سماهُ رتبة الحكيم في الكيميا وجعلهُ قرينًا لكتابه الأخر في السحر والطلسمات الذي سماهُ غاية الحكيم وزعم ان هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للفنون ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة اجمع وكلامهُ في ذلك الكتاب وكلامهم اجمع في تأليفهم هي الغاز يتعذر فهمها . اما جابر فمختلفٌ فيه ذكر صاحب كتاب الفهرست انه ابو موسى جابر بن حيان الطوسي بالنسبة الى طوس مدينة

1 Les manuscrits alchimiques grecs, par M. Berthelot—Rsvue scientifique; t. xxxv

في خراسان كان في القرن الثامن واقام في الكوفة ولذلك يقال لهُ الكوفي . وقال آخرون أنه وُلد في حران وكان من الصابئة وزعم يوحنا الافريقي انه كان روميًا واسلم . ألف في الكيمياء ٧٠ رسالة على ما ذكر ابن خلدون وفي كتاب الفهرست ان المصنفات المنسوبة اليه تبلغ ٥٠٠ واكثرها لتلامذته . قال ديدرو[1] ,, ان جابرًا يعدُّ ابًا للكيمياء لانهُ اول من اوضح مبادىء الصناعة على طريقة علمية وجمع اصولها في كتاب بل هو اول من دقّق في كيفية اجراء العمليات الكيماوية الاساسية وبهِ تبتدىء الفلسفة الكيماوية '' وقوله هذا موافق لقول ابن خلدون في مقدمة تاريخه وهو ,, وامام المدوّنين فيها جابر بن حيان حتى أنهم يخصّونها بهِ فيسمونها علم جابر '' وقالوا ان جابرًا كان تلميذًا لجعفر الصادق وقال آخرون انه كان تلميذ خالد بن يزيد ابن معاوية بن ابي سفيان . قال ابن خلدون ,, وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها الى خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالدًا من الجيل العربي والبداوة اليهِ اقربُ فهو بعيدٌ عن العلوم والصنائع

1 Diderot; Introduction à la Chimie, V. la Revue Scientifique ; tome xxxl

بالجملة فكيف لهُ بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وامزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تُترجم بعد . اللهمَّ ان يكون خالد بن يزيد آخر من اهل المدارك الصناعية تشبه باسمهِ فممكن" وقد مرَّ في الابيات المنسوبة الى ابن هانيء ذكر خالد بعد ذكر هرمس وذوسيم وفي القصيدة نفسها يشير الى جعفر الصادق بقولهِ

حكمةٌ اورثناها جابرٌ — عن امامٍ صادق القولِ وفي
لوصيٍّ طاب من تربتهِ — فهو كالمسك تراب النجف[1]

وقال ابن خلدون "ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من ابدع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الاحاجيّ والمعاياة فلا تكاد تُفهم" وهذا الوصف يصدق على الكتاب الذي نقلت عنه الابيات المذكورة آنفاً وهو منسوب في النسخة التي بيدي الى ابن هانيء الاندلسي وعنوانه "شذور الذهب" يشتمل كلُّ حرف على قصيدةٍ او اثنتين من غُرَر القصائد اكثرها من الثلاثين الى الخمسين بيتاً يرتاح المطالع الى استيعابها وينشرح صدر اللبيب بها لعذوبة لفظها وسهولة انسجامها

١ مكان لا يعلوه الماء او هي ارض مستديرة مشرفه على ما حولها

مع ما فيها من تعمية المقاصد والمعاياة والرموز . ولا بأس ان نورد منها قصيدة يستدلّ بها على سائرها ليتبصر بها شعراء هذا العصر ويعتبر بها الكتبة الادباء . وما اكتم عن القارىء اللبيب انني قد احترتُ في اختيار القصيدة التي انقلها لأن هذه القصائد سلسلة مُفرغة من معدنٍ واحدٍ لا يُدرى اين طرفاها حتى وقع نظري في قافية الدال على قولهِ

لنفسكَ فانظر أيهذا المفنّدي — فلستَ وان حاولتَ نصحاً بمرشدي
فما الخيرُ في مرءٍ يروحُ معنّفاً — لطالب علم الكيمياء ويغتدي
وفي كلّ شيءٍ للصناعة آيةٌ — متى استشهدتها فكرةُ المرء تشهدِ
ولكنّهُ يخفى على الغرّ[1] سرُّها — ويبدو لذي الرأي المصيب المسدّدِ[2]
واني وان خالفتُ صحبي لضاربٌ — لها مثلاً يُهدى به كلّ مهتدي
رأيتُ من التأثير للشمس حجةً — لصنعتنا ان يجحد الحسَّ تجحدِ
فانَّ لها في أوجها إن تحلّهُ — سبيلاً على الأنوال[3] والكلإ الندي
وتجعلُ ما قد كان لبّدهُ الندى — هباءً كمنخولٍ من الكحل إثمدِ
وتنزلُ بالميزانِ او برقيبهِ — فتزجي سحاباً من بخارٍ مصعّدِ
بكلّ عصوفٍ يزدهي كلَّ مبرقٍ — وجَوْنٍ[4] كأصرام[5] الحنادس مرعدِ

١ الشاب لا تجربة له ٢ الثاقب ٣ جمع نول وهو الوادى السائل ٤ اللون يضرب الى السواد ٥ الجماعات

فينحلُّ ذاك البرقُ ماءً للطفهِ   بمايلهُ من دمعها المتبددِ
ويظهر عن هذين كلُّ عجيبةٍ   من الصبغ لم يعلق بها اثرُ اليدِ
فمن روضةٍ غنآء زُخرف وشيها   ومن جدولٍ يسعى به سعيَ اسودِ [1]
ومن أقحوانٍ كالثغورِ مؤشرٍ   ومن زهرٍ مثل الخدودِ مورّدِ
فيصبح وجهُ الارضِ من زهراتها   ونوّارها في عبقريّ معسجدِ
وان تركت بالجدي ألقت لبيسه   على المآء من برد الهوآء فيجمدِ
فذاكَ هو التكليسُ ان كنت ترعوي   وذاك هو التعفير [2] لو كنت تهتدي
وذاك هو التقييد للآبق الذي   متى حلّ بالدهن المقطّر يعقدِ
وذاكَ هو التصعيد تشويهِ قبلهُ   فانك ان تشويهِ من قبلُ يصعدِ
وللخلط إحراقان يظهر عنهما   سوادٌ وتبييضٌ فبيّض وسوّدِ
وعقدان عن حلّين لا بدّ منهما   فحلّهُ وأعقدْ ثم حلّه واعقدِ
وسوّده تسويدين تحظَ بسرّهِ   وبيّضه تبييضينِ تغنَ وتسعدِ
فيجمدُ بعد الحلِّ روحاً وجسماً   متى ينبسطْ في جسم ذانِ يخلّدِ
وتحليلهُ من بعد سهلٌ لمن شدا   قليلاً من التدبير فاصبغهُ تحمدِ
وما صبغهُ من غيرهِ بل لغيرهِ   بهِ منهُ فاستخرجهُ بالغير واجهدِ

١ العظيمه من الحيات   ٢ التجفيف من عفر اللاحم اى جففه على الرمل فى الشمس

ولا تطابنْ في الرمزِ وزناً فانهُ   قريبٌ وان تطلبهُ في الرمز يبعدِ
ولا تصغينْ فيه الى لغزِ لاغزٍ   فذلكَ من تضليلهم عن تعمدِ
فلو رمتَ في الاجزآء نضل زيادةٍ   على الوزنِ لم يقبلْ ولم يتزيدِ
فان شئتَ ان تحظى بحكمة هرمسٍ   ومَنْ بعدهُ من أوحدٍ بعد اوحدِ
فدونكَ هذا القاسيَ الخالدَ الذي   يُدبّرُ بالدهن اللطيف المقيَّدِ
هو العالمُ المعلومُ في كل بلدةٍ   هو الزئبق المشهودُ في كل مشهدِ
هما الماءُ والنارُ اللذان اذا اقتفى   فتىً بهما اثرَ الطبيعةِ يُرْشدِ
اذا جُمعا عوداً وبدءاً وبيّضا   اضآءا كضوْءِ الكوكبِ المتوقدِ
فهذا هو الاكسير والحجرُ الذي   تحجّرَ عن نهرَيْ لجين وعسجدِ
وهذا هو الكنزُ الذي من يفُزْ بهِ   يفزْ بغنى ان ينفدِ البحر ينفدِ
الى علمهِ فلتُصبُ ان كنتَ صابياً   وملْ عنهُ لا عن حادث الدهر في غدِ
ستبدي لكَ الايامُ ما كنتَ جاهلاً   ويأتيكَ بالاخبارِ من لم تزوّدِ

ومما هو حريٌّ بالاعتبار ان كهنة المصريين اتخذوا علم الكيميآء وسيلةً لكتمان سرّ الديانة فموّهوا به على السذّج المغفلين كما قال شيشرون وأريجانوس . اما اليونان فهاموا في طلب الحجر الكريم والاكسير الذي تتحول بهِ المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة واقتفى اثرهم العرب طمعاً في تحصيل الغنى والسعادة ثمّ احسّ الاروبيون بمنافع المدنية بعد الحروب الصليبية وتُرجمت

الكتب العربية الى لغاتهم وقد وقف بعضهم على مصنفات جابر والرازي وابن سينا وغيرهم فجدّ بهم الحرص على تجربة ما ذكر فيها . واول من اشتغل بذلك ألبر الكبير وروجر باكون وكان كلاهما راهبين فانكشفت لهما اسرارٌ من العلم وقد اوضح الاخير منهما كثيرًا من الحقائق في علم الهيئة والحِيَل والبصريات والكيمياء والطب .

وجاء بعدهما ارنلدو لنوف[1] احد اساتذة منبلياي . وُلد في بداية القرن الثالث عشر وكان طبيب جاك الثاني ملك اراغوان وتعلم اللغة العربية في صقلية وهو اول من حكى عن التقطير وروح الخمر نقلاً عن العرب وكانت التجارة بروح النبيذ والعرقي رائجة في صقلية وكالبريا ثم تحوّلت الى البندقية . وذكر علماء الافرنج عدّةً من الكيماويين في ذلك العصر كان دأبهم طلب الحجر الكريم او حجر الفلاسفة حتى جاء باراشلس السويسري سنة ١٤٩٣ وكان يُسمى برئيس الاطباء وهو اول من اعترض على مذاهب القدماء وندّد بآراء جالينوس وحرق مصنفاتهِ مع مصنفات ابن سينا بنار الكبريت والزئبق في مدرسة بال التي نُدِب للتدريس فيها فوقعت المشاحة بينهُ وبين علماء عصرهِ . ونبغ بعدهُ جان هلمونت[2] من بروكسل

1 Arnauld Villeneuve 2 Jean—Baptiste van Helmont

وُلد سنة ١٥٧٧ ودرس الطب البقراطي والرياضيات وفلسفة ارسطو وامتاز بعلم الكيمياء . ولما أصيب بالجرب جرّب العلاجات التي كانوا يُستطبون بها لهذه العلة فلم تنجع فاشار عليه بعضهم باستعمال الكبريت على ما وصفهُ باراشلس فشُفي فحمله ذلك على متابعة ذلك الكيماوي ومقاومة مذهب الاخلاط وكان ذلك من اقوى الاسباب لحدوث الانقلاب في علم الطب وتقرير درس علم الكيمياء في مدارسهم من حيث هو علم بقطع النظر عن حجر الفلاسفة . ونشأ حينئذٍ القول بان بدن الحيوان مؤلفٌ من عناصر كيمياوية وان الظواهر الحيوية ليست الا نتيجة التفاعل الكيماوي الذي يؤدّي الخلل فيه الى المرض فثبت كون الاختمار حادثةً كيماويةً وان الحميات تحدث عن اختمار العفونات في البدن فالحمى اذًا حادثةٌ كيماوية . وبقي هذا المذهب شائعًا حتى حلَّ محلّهُ مذهب الآليين المنسوب الى بورالي[1] ومآلهُ ان الاعمال الحيوية انما تصدر عن عمل الاعضاء التي هي بمثابة آلات حية فكل خلل في عمل الاعضاء يظهر بالاعراض التي هي دلائل المرض وجرى على هذا المذهب الشهير بورهافن[2] مدرس التشريح والنبات والكيمياء في مدرسة ليد المدينة التي وُلد

1 Borelli 2 Boerhaave

فيها سنة ١٦٦٨ . ومما يدلّ على رفعة شأنه انه اضطر الترك التدريس مدة وهو مريض فلما ابلّ عمّ السرور اهل المدينة كلهم فشاركوا تلامذته في مظاهر الفرح ونوّروا بيوتهم مساء اليوم الذي عاد فيه الى شغله المألوف فكانت المدينة كانها شعلة من نار . ومن تلامذته النابغين هار[1] الالماني . وُلد في برن . ن سويسرا سنة ١٧٠٨ وتوفي سنة ١٧٧٧ وكان مدرساً للتشريح والجراحة والنبات في مدرسة غوتنج الكلية وله في علم منافع الاعضاء اكتشافات مهمة منها مبدأ التهيج في الاعصاب والتقلص في العضل . وكان واسع الاطلاع كثير التدقيق متبحراً في كتب المتقدمين لم يبخس الزهراوي حقه من الثناء على مؤلفاته . ونبغ في ذلك العصر آخرون لم نتصدَّ لذكرهم اكتفاء بما تقدم

وفي اواخر القرن الثامن عشر كثر المشتغلون في علم الكيمياء وسائر العلوم الطبية وغير الطبية وتوالت المكتشفات وتمهدت السبل لتمحيص الحقائق وبرح الخفاء عن كثير من اسرار الطبيعة . وقد ذكرنا ان بريستلي وشيلي كشفا اتفاقاً الغاز المسمى الآن بالاكسجين وان بريستلي كشف ايضاً الازوت وغيره من الغازات المعروفة الآن وان كافندش كشف عن غاز الهيدروجين فاخذت عقد الكيمياء

1 Haller

تنحلّ واحدةً فواحدةً حتى اتى على آخرها امام هذا العلم على الحقيقة لافوازياي[1] الشهير المقضي عليه بالاعدام في الثورة الفرنسوية سنة ١٧٩٤ . وُلد في سنة ١٧٤٣ وعين كيماوياً مساعداً في جمعية العلوم منذ كان عمره خمساً وعشرين سنة وحصل باجتهاده ثروةً طائلة وجاهاً وجيهاً وكان معمله مجمع العلماء حتى أمّه مشاهير العصر من اقطار العالم مثل بريستلي الكيماوي ووط[2] مستنبط الآلة البخارية والفيلسوفان فونتانا[3] وفرنكلن[4] والاقتصادي ينغ[5] وغيرهم ولكن الدهر اخنى عليه فانزله من شاهق مجده لما قضي عليه بالاعدام فلم تشفع به اكتشافاته وفضله وماله وجاهه

كأنّ الردى عادٍ على كل ماجدٍ   اذا لم يعوّذ مجده بعيوبِ

وكان عمر لافوازياي تسعاً وعشرين سنة اذ شرع باجراء تجاربه التي اكتشف بها تلك الحقائق الساطعة وهو لم يعثر بها صدفة واتفاقاً ولكنه تحرّاها عن فكرةٍ وقادةٍ وبصيرةٍ نيّرة فرسم الخطة التي جرى عليها في محاولته اصلاح علم الكيمياء وقد تمّ له ذلك حيث حداه البحث الى معرفة تكاليس المعادن وتركيب الهواء ومنفعة الاكسجين في الاشتعال وتكوين الحوامض والتنفس

1 Lavoisier 2 Watt ٣ Fontana 4 Franclin
5 Young

وماهية الغازات عموماً ومصدر الحرارة وطريقة تولدها في الحيوانات . وآخر آياته البينات حلّ الماء وعقده اي تحليله الى عنصريه الاكسجن والهيدروجن وتركيبه منهما فكان ذلك الضربة القاضية على مذهب القدماء

وكان الهواء الجويّ معتبراً حتى منتصف القرن الثامن عشر عنصراً بسيطاً غير قابل للحل فاثبت لافوازياي أنهُ مركب بتجربة نراها الآن بسيطة وهي تكليس القصدير مع الهواء في اناء محكم السد فظهر لهُ ان وزن الاناء بما اشتمل عليه لم يزد ولم ينقص خلافاً لزعم من قال انهُ يزيد لتعلق مادة النار فيهِ . على ان القصدير المحوَّل الى مادة كلسية قد ازداد وزنهُ في الحقيقة لانهُ اخذ من الهواء المشتمل عليهِ الاناء وقد ثبت لهُ ان نقص الهواء كان معادلاً لزيادة المعدن فالشيء الذي خسرهُ الهواء هو الاكسجن الذي تركب مع القصدير فكوَّن أكسيد القصدير

ويدّعي الانكليز الفضل في اكتشاف الاكسجن لوطنيهم بريستلي وهو في الحقيقة قد سبق الى استحضارهِ ولكن على غير قصد لانه بينما كان يزاول بعض التجارب وجد ان الراسب الاحمر يفلت منه غاز اذا وُضع في اناء مسدود ووُجهت اليه اشعة الشمس مجموعةً ببلورةٍ . وقد تبين ان لهيب المصباح يزداد

بهذا الغاز ضياء وان التنفس يزداد بهِ سرعةً فعمد الى استعماله علاجاً في بعض الامراض . وهو مصيب بذلك ولكنهُ وَهِم في تعليلهِ حيث ارتأى ان الهواء مادة بسيطة لها كيفيتان متباينتان يزداد الاشتعال والتنفس باحداهما وينقصان بالاخرى . وبيان ذلك ان تؤخذ كمية من الزئبق وتوضع في إنبيقٍ مسدودٍ وتحمى فيتحد بعض الهواء ضمن الانبيق بالزئبق ويبقى البعض الآخر غير صالح للتنفس والاشتعال فلذلك سمي الهواء المتحد بالمعدن بالهواء المحرق . اما لافوازياي فاثبت ان الهواء ينحلّ الى عنصرين تقوم باحداهما الحياة فسمّى احدهما بالهواء الحيوي في مقابلة العنصر الاخر الذي سماهُ بالازوت أي الغير الحيوي . قال ,, الهواء مزيجٌ من غازين مختلفين احدهما الهواء الحيوي (اي الاكسجن) والثاني الازوت وليس للاحتراق معنى في تركيبهِ ''

وقد نجح لافوازياي بتركيب الهواء بان مزج الازوت مع الغاز الذي امتصهُ الزئبق لدى تكليسهِ . ثمَّ تبين ان الغاز الذي يتولد عند احماء الزئبق والفحم معاً انما هو الحامض الفحمي ووضح لهُ ان الكبريت والفصفور يجريان على هذا السنن فسمي الغاز المذكور بالاكسجن اي مولد الحوامض . و بعد ان عرف حقيقة التأكسد وكيفية توليد الحوامض وماهية الهواء

تهيأ له بطريق القياس ان يعرف حدوث مثل ذلك في بدن الحيوان فأثبت ان التنفس يشبه عمل الاحتراق في خارج البدن وان الحرارة الحيوانية تتولد من اتحاد الاكسجن بالمواد المحترقة وان الاكسجن يَرِدُ بالهوآء المستنشق وينفذ من الخلايا الرئوية الى الدم فيتلاقى مع المواد المحترقة وحينئذ يتولد الحامض الكربوني (الفحمي) الذي يطرح من الرئتين بالتنفس فيتنقى الدم منه ويتطهر . ولاثبات ذلك وضع حيوانًا في أنآء ضمنه آلة تقاس بها درجة الحرارة ووزن الاكسجن الذي يمتصه الحيوان والحامض الكربونيك الذي يبرزه والحرارة التي تظهر فيه فانجلت الحقيقة على نحو ما دار في خلده كما تقرر آنفًا . ثم اكتشف على تركيب المآء من الاكسجن والهيدروجن فتقوّض بنآء المذاهب القديمة من اساسه ودخل علم منافع الاعضآء في طور جديد من التحقيق والتدقيق وبعد ذلك وضع مبادئ التسمية الجديدة للاجسام الكيماوية وألف كتابه الذي انتشر في جميع انحاء العالم فصار قاعدة للتعليم ومدخلاً لمعرفة اصول هذا الفن

نبذة رابعة

في علم الطب في القرن التاسع عشر

يقف الفكر حائرًا في حضارة الاوروبيين لهذا العهد وجريهم

شوطًا بعيدًا في حلبة المدنيـة فكأنهم هبّوا من غفلتهم هبوب الرياح وطاروا على اجنحة النجاح. أجلْ فهم الذين ذللوا قوى الطبيعة واستخدموها في قضآء اغراضهم فلم تبدِ امتناعًا واستنبطوا من الكهربآء قوى تجري بهم كالبرق الى كل غاية سراعًا وسلطوا النار على المآء فكان البخار لامرهم مطواعًا وطوّقوا الارض بقُضُب الحديد فجرت عليها قُطُرهم تباعًا ولهم في كل يوم اختراعٌ عجيب وابتداعٌ غريب . واذا عرف السبب زال العجب . أليس كلُّ ما نراه من ظواهر عظمتهم وبدائع صنعتهم وغرائب مكتشفاتهم ومخترعاتهم اثرَ العلم الحقيقي الذي يستطيع كلُّ انسان ان يحقق مسائله بالحسّ والامتحان لا الوهمي الذي يُضطرُّ الى الانقياد اليهِ بالتسليم والاذعان [1] ولا سيما علم الطب الذي ذكرنا في ما سبق تدرجه في مراتب الكمال الى ان وصلنا الى القرن التاسع عشر وبيّنا طريقة انتشاره في اقطار أوروبا منقولاً عن العرب حتى دُرِست معالم الطب القديم ولم نتصدَّ للكلام على العلم الطبيعي وهو من اقسام العلم الحقيقي ولم نذكر فضل العرب في تحقيق مسائلهِ الا الماماً لئلا نخرج عن صدد البحث الذي

1 V. La Philosophie Positive, par Auguste Comte

آثرناهُ فبقي علينا ان نتمَّ الكلام في هذا الموضوع وقد انتهينا الى بداية القرن الماضي وهو القرن الذي برز فيهِ علم الطب بثوبهِ القشيب بين قومٍ عرفوهُ فأجلّوهُ واحلّوهُ في سويداءِ القلوب

ومعلوم ان جميع هذهِ العظائم التي يقال ان ذوي المدارك السامية استنبطوها او ابتدعوها او اخترعوها او اكتشفوها لا تتعدَّى حدود الطبيعة ولا تخرج عن السنن الذي يجري عليهِ نظامها وانما بقيت محجوبة عن الافهام لان ادراكها جملةً من المحال . وقد رأينا كثيرًا من المسائل المشكلة لم تنحلَّ عقدها الا بالتدريج على تمادي الزمان فالحرارة الحيوانية مثلاً بقيت من الاسرار الطبيعية المحجوبة عن الافهام الوفًا من السنين حتى جاءَ لافوزياي في نهاية القرن الثامن عشر فاوضح حقيقتها بتجاربهِ البديعة بعد ان تهيأ السبيل لهُ بتجارب سلفائهِ ومباحثهم في الكيمياءِ والتشريح

وقد اشرنا في ما سبق الى تدرج علم التشريح في مراتب الارتقاءِ حتى بداية القرن التاسع عشر فيجمل بنا الآن ان نبين كيف وصل في القرن المذكور الى ذروة الكمال وان نذكر على سبيل الاستقراءِ كيفية نشوءِ الفروع الجديدة من هذا الاصل وما اثمرت تلك الافانين من الفوائد والمنافع

ولا خلاف في ان نابغة هذا القرن كان فتىً عُرِف باسم

مصلح هذا العلم. ألا وهو بيشات[1] الشهير وُلد سنة ١٧٧١ وتوفي في عنفوان الشباب لكثرة ما كدَّ نفسهُ واجتهد غير متجاوز الحادية والثلاثين من عمره وكان ابوهُ طبيبًا فأخذ عنهُ وتدرَّب على الممارسة بتشريح الهررة وتلقي العلوم في مدرسة ليون الكلية ثم جاءَ الى باريس سنة ١٧٩٣ ولازم ديزلت[2] مؤسس مدرسة الجراحة العملية فعهدت اليه ادارة مجلة الجراحة على انه ترك الاشتغال بهذا الفن ليتفرغ لدرس منافع الاعضاءِ فانفسح لهُ مجال التحقيق وعكف على التأليف فنشر رسالة في الاغشية وتلاها بنشر رسائله في الحياة والموت وفي سنة ١٧٩٩ طبع مؤلفهُ في التشريح العام وعين حينئذٍ طبيبًا لمارستان باريس المعروف بأوتل ديو hotel dieu فاعمل فكرتهُ في المقابلة بين الاعضاءِ الصحيحة والمريضة لمعرفة خلل منفعة الاعضاءِ من جراء خلل الاعضاءِ نفسها وكان يشرّح جثث المتوفين بالامراض المختلفة ليعرف التغيرات المرضية فتسنَّى لهُ ان يشرّح في مدة ستة اشهر اكثر من ستماية جثة ولم يحوّم احدٌ قبلهُ على هذا الامر فهو اذًا واضع علم التشريح المرضي وقد حاول اصلاح طرق معالجة الامراض على هذا المبدأ ففاجاتهُ المنية

1 Bichat 2 Désault

واذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الاجسامُ

هذا هو بيشات الذي ابدع بوصف الاعضآء المؤلف منها جسد الانسان ورتَّب الانسجة التي تتكوَّن منها الاعضآء انواعًا يمتاز كلٌّ منها بخصائص تُعرف بها ماهية العمل الذي وُجدت لاجلهِ وقسم هذه الانسجة الى ما تقوم به الحياة النباتية اي التي يشتركُ بها الحيوان والنبات كوظائف التغذية والتوالد والى ما تقوم به الحياة النسبية اي التي يظهر بها تعلق الحيوان بما حواليه وتعرف بوظائف المخالطة وهي خاصة بالحيوان واثبت ان الاعضآء الرئيسة هي القلب والدماغ والرئتان وذهب الى ان الحياة نتيجة تكافل الانسجة بابدآء ما قُدّرَ على كل منها من العمل والمنفعة قال ,, الحياة نتيجة عمل الاعضآء الذي تقاوم بهِ الموت'' او هي قوة غير معروفة الماهية لاتزال تقاوم العوامل الخارجية التي تفضي الى اضمحلالها وان الامراض انما تحدث عن خلل في الخصائص الحيوية فهي اذا تختلف باختلاف الانسجة الواقع عليها الخلل وان غاية العلاج اصلاح هذا الخلل بما يحفظ الموازنة بين الانسجة

ومن العجيب ان بيشات على سمو مداركه وسعة اطلاعه لم يحفل بالمجهر (المكروسكوب) ولم يستعملهُ في تحقيق بنآء

الانسجة وكشف اسرار الكائنات المتناهية في الصغر مع ان لُوِنْهوك[1] استنبط هذه الآلة البديعة منذ سنة ١٦٨٣ وكشف بها كريات الدم (التي اعتبرها ملبيجي كريات دهنية) واتمَّ اكتشاف هرفي بتبيين الاوعية الشعرية وكشف ايضاً عن النقاعيات وبين اشكال الجسيمات الحية المختلفة التي تكون في الفم في حالة الصحة الى غير ذلك مما اهتدى به المتاخرون واوضحوا به من الحقائق ما كان مستورًا فصار درس الاجسام المجهرية فرعاً من اهم فروع العلم ومبحثًا من المباحث التي اتسع بها نطاق علم الطب وتحققت مسائلهُ الغامضة ولولاهُ لم يتقدم علم بنآء الانسجة ومنافع الاعضآء ولم يظهر العالَمَ المحجوب عن الابصار لصغر الاجسام المؤلف منها وهو عالَمُ الجسيمات المجهرية ولكن روكتنسكي[2] لم يدع طريقةً من طرق التحقيق في هذا العلم فقد شرَّح ثلاثين الف جثةٍ فاكثر وبلغت جملة الذين شرَّحوا في فينَّا باطلاعه من سنة ١٨١٧ الى سنة ١٨٧٨ سبعين الف جثةٍ وثماني وسبعين جثةً اوضح تغيراتها المرضية في مؤلفاتهِ وخطبهِ فتأمل .

وممن وافقهم الجدُّ في بداية القرن التاسع عشر الشهير ادورد جنر[3] الذي استنبط طريقة التقليح بمادة الجدري البقري للوقاية من

1 Leeuwenhoech 2 Rockitenski 3 E. jenner

الجدري البشري على ما هو شائع الآن وُلد في مقاطعة غلوشستر من بلاد الانكليز سنة ١٧٤٩ وتوفي سنة ١٨٢٣ وكشف طريقة التلقيح سنة ١٧٩٦

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تطمح ابصار الباحثين في التشريح المرضي الى غير تغيرات الاعضاء الحادثة في الامراض على ما ترى بالنظر المجرَّد . ولكن استنباط المكرسكوب وشيوع استعماله في تلك الاثناء فتح طريقًا للتحقيق كان موصدًا من قبل فعُرف به ان الاجسام الحية باسرها موءلفة من دقائق متناهية بالصغر لا ترى بالحس المجرَّد وان انسجة الحيوانات مبينة من هذه الدقائق التي سماها مِرْبل[1] سنة ١٨٠٨ بالخلايا لمداناتها بالشبه للخلايا التي يعسل فيها النحل . وقد ثبت ان كل كائن حيّ انما هو مكوَّن من عناصر تشريحية تُرَدّ بالتحليل المكروسكوبي الى الخلايا المذكورة . وان نموّ كل كائن حيّ انما يبتدئ بخلية واحدة لان البُوَيضة التي ينشأ منها كلُّ حيوان[2] والبرزة التي يتولد منها النبات تتضمنان هنة التكوين في خليّة واحدة وان الخلايا على الجملة تنشأ في بثات ملائمة على طرق مخصوصة فتتكاثر وتتضامّ بعضها

1 Mirbel
2 Omn vivum ex ovo ٢ هذه قضيه قررها هرفى

الى بعض على انحاء مختلفة في الكم والكيف مع بقاء كلٍّ منها مستقلاً بعمله الخاصّ فتتباين في قوامها وتتغير في اشكالها بحسب مرتبة الحي المكوّن منها سواء كان راقيًا في التكوين او سافلاً ولذلك كان كل فردٍ من الحيوانات موءلفًا من انسجة مختلفة واعضاء متباينة يقوم بكلّ منها خلايا خصوصية . فالحياة اذًا مهما تنوعت ظواهرها واختلفت عواملها في الكائن الحيّ سافلاً كان او راقيًا في البناء انما هي انفعال خلايا ذلك الجسم ونتيجة حركتها من جراء فعل المبدإ المهيّج لها لتقوم بالعمل المحتوم عليها ثم تسكن فتموت وقد تولد منها غيرها على آسالها[1] فلا تزال جارية على هذا النمط وقد سمي هذا الفرع من علم التشريح بالهيستولوجيا اي علم تكوين الانسجة على ما ثبت بالمذهب الخلوي وجرى عليه العلماء عمومًا وبنى عليه الشهير ورخو[2] تعليمهُ بان المرض انما هو خلل في الاعمال المتعلقة بالخلايا وتابعهُ به علماء العصر . وُلد هذا الفيلسوف سنة ١٨٢١ فلهُ الآن من العمر ٨٠ سنة وقد احتفلت مدينة برلين بعيدهِ في ١٣ تشرين الاول من هذه السنة وعُرضت لائحة مصنفاته في سبع صحائف مطبوعة ومن ذلك يعلم انهُ برع في جميع العلوم ولا سيما في التشريح المرضي وعلم حفظ الصحة وعلم طبيعة

1 Omnis cellula e cellula 2 Rudolf Virchow

الانسان وهو لا يزال حيّاً يفيد العالم بمعارفهِ وعلومهِ

ولا مراء في ان التوسع بمعرفة ماهية الامراض في القرن التاسع عشر انما كان نتيجة التوسع باستنباط الذرائع التي امكن التوصل بها الى معرفة الحقائق التي القت عليها الطبيعة حجاب الغيب ومعلوم ان معرفة حقيقة الامراض متوقفة على معرفة الاعضاء ومنافعها فلذلك كان التعمق بمعرفة علم المنافع (الفيسيولوجيا) من اقوى الاسباب التي ترقى بها علم الطب لهذا العهد وقد ذكرنا ما كان من اكتشاف دورة الدم وطريقة تطهيره بالتنفس فيجمل بنا الآن ان نذكر كيف اهتدى الباحثون الى معرفة منافع الاعصاب وقد تقدم (صفحة ١٥٩) ان جالينوس عرف ان العصب يقوم بهِ الحس والحركة ولكن الذي ابدع بايضاح هذه الحقيقة واثبتها ببرهان التجربة هو شارل بل[1] الانكليزي من علماء القرن التاسع عشر (وُلد سنة ١٧٧٤ وتوفي سنة ١٤٨٢) وكان كثير الاشتغال بالتشريح والفيسيولوجيا ولهُ فيهما اكتشافات بديعة ومن تحقيقاتهِ ان كل عصب ينبت من النخاع الفقري او الدماغ باصلين احدهما يغوص منبتهُ في القائمة المقدمة للنخاع الفقري او ما تستديم اليهِ في الدماغ وهو الذي تتوقف عليه الحركة والثاني

1 Charles Bell

مؤخر يغوص منبتهُ في القائمة الخلفية وهو الذي يقوم بهِ الحس بدليل ان قطع الاصل المقدم يُعطل الحركة كما ان قطع الاصل الخلفي يعطل الحس . وكلاهما يلتقيان في نقطة لدى نفوذهما من الثقب بين الفقار او من ثقوب الجمجمة فيؤلفان عصباً واحداً تنشأ منهُ فروع ينضمُّ بعضها الى بعض فتتألف الضفائر العصبية ويبقى بعضها مستقلاً . وكلها تتوزع في جميع الاعضاء فتصدر عنها الحركات ويُنقل بها الحسّ الى المراكز . وقد توسع ماجندي[1] باجراء التجارب على الحيوانات الحية فاثبت الحقائق المذكورة آنفاً وفصّلها تفصيلاً كافياً وابدع بمباحثهِ في الامتصاص ودورة الدم وعمل الاعصاب المنعكس وكيفية حدوث القيء ومنفعة السائل المخي الفقاري وغير ذلك مما يشهد لهُ بالبراعة والفضل . وقد انتقد آراء بيشات وندد بمذهب الحيويين . ولد سنة ١٧٨٣ وتوفي سنة ١٨٥٥ وتخرج عليهِ كلود برنارد[2] الشهير وهو نابغة العصر برع في علم المنافع العملي فلم يجارهِ احدٌ واكتشف على حقائق كثيرة خلّدت ذكرهُ في الغابرين منها طريقة توليد السكر في الكبد وعمل الاعصاب المتوزعة في الاوعية الدموية ومنافع العصب الاشتراكي (السياثوي) ومنفعة العصب الرئوي المعدي في تعديل نبضان القلب وطريقة اختمار

1 Magendie 2 Claud Bernard

الغذاء بفعل العصارة المعدية ومنفعة عصارة البنكرياس الى غير ذلك مما يطول الكلام عليه ولايخلو كتاب أُلف حديثاً في هذا الفن من ذكره . وُلد سنة ١٨١٨ وتوفي سنة ١٨٧٧ وقد توصل فرّيير[1] وغيرهُ الى تعيين مراكز القوى العاقلة في الدماغ وبين بروكا[2] ان مركز خاصة النطق في التلفيف الثالث لشطر الدماغ الايسر وحقق ذلك شركوت بمباحثه الدقيقة وتجاربه البديعة وتوسع كثيرًا في تحرّي الحقائق وحلّ المسائل المشكلة مما يتعلق بالمجموع العصبي وهو الذي توصل الى تحقيق كثير من منافع المجموع العصبي بمقابلة النتائج المرضية على الاعمال العصبية فجاء ذلك مصداقاً لقول بعضهم ,, ان علم الامراض انما هو معرفة خلل منافع الاعضاء ''

ومن مبتدعات القرن التاسع عشر تعيين امراض الصدر وتمييزها بالاستقصاء والاستسماع . استنبط هذه الطريقة لَيْنِك[3] بعد ان اشتغل كثيراً بالتشريح المرضي وعرف التدرن الرئوي وميزهُ عن غيره من امراض الصدر ولهُ مؤلفات كثيرة اشهرها في تشخيص امراض الرئتين والقلب مجلدان لايزال الاطباء يعولون عليهما في هذا الفن . وُلد سنة ١٧٨١ وتوفي سنة ١٨٢٦

وقد تقدم ان الجراحة كانت في أُروبا كما هي الآن في

1 Ferrier 2 Broca 3 Charcot 4 Laënnec

كثير من الامصار الشرقية مهنة الحلاقين يمارسونها عفواً و يدعونها سفاهاً لاعن معرفة واختبار ولكن عن لزوم واضطرار فكانت قاصرة على الفصد والكي وبط الخراجات والختان والخصاء والبزل ورد الخلع والمكسر وأساوة الجروح . واول من اشار بفتح البطن لرد الفتق المختنق وخياطة الجرح بعد ذلك براكساغورس القوسي استاذ هيروفيلوس وقد اجرى ايرازيستراتوس عملية شق البطن في خرّاج الكبد والطحال والاورام في الاحشاء . وكانت عملية استخراج الحصى من المثانة شائعة كعملية قدح العين في الماء الازرق . ولكن اكثر العمليات الجراحية كان يمارسها الحلاّقون الذين كان لهم صولة وسطوة في زمن الغباوة والجهل . ولم يكن للجراحين الاطباء شأن حتى تألفت الجمعية الاولى في باريس سنة ١٢٦٨ وقررت نظاماً مؤلفاً من ٣٦ مادة فعارضتها جمعية الحلاقين المؤلفة تحت زعامة حلاق الملك وقويت عليها حتى انحاز الى الجراحين لويس التاسع وفيليب الجميل الذي اصدر منشوراً قال فيه ,, لقد احاط الملك علماً بان بعض الاجانب يمارسون في مملكته صناعة الجراحة وماهم الا لصوص محتالون سفاكون للدماء ممخرقون لم يتعلموا اصول الصناعة ولم يجوزوا الامتحان ومع ذلك تجاسروا على وضع الرايات

في نوافذ بيوتهم كالجراحين الاصوليين فلذلك نأمر بان لا يسوغ لاحد ان يمارس الجراحة الا اذا حصل على شهادة بامضاء الاساتذة الجراحين المقيمين في باريس مصدقاً عليها من جراحنا بتردي[1] وخلفائه،، وبقي الخلاف بين الحلاقين والجراحين والاطباء حتى سنة ١٦٦٠ واول جمعية جراحية انشئت في باريس سنة ١٧٣١ ثم أسست مدرسة الجراحة العملية سنة ١٧٥٠ واول مجلة جراحية انشأها ديزلت استاذ بيشات . على ان تقدم الجراحة انما كان موقوفاً على استنباط التشريح الموضعي الذي تمكن به الجراحون من التدقيق في من معرفة الاعضاء التي تجرى عليها العمليات الجراحية فأمنوا بذلك من الخطاء في العمل وكان اكتشاف الكلوروفورم اقوى مساعد لاجراء العمليات الدقيقة الطويلة . كشفه سوبيران[2] الفرنسوي وليبج[3] الالماني في وقت واحد واول من استعمله للتخدير سمبسون[4] من ادنبرج . وهم الآن لا يبالون بمخاطر العمليات الكبرى بعد ان استنبط الاستاذ لستر[5] الطريقة المضادة للعفونة

1 Pitardi . Histoire des sciences, par Laboulbène
V. la Revue Scientifique; T. XLII, P. 729
2 Soubeiran 3 Liebig 4 Simpson 5 Lister

المنسوبة اليه مهتدياً بتجارب العلامة بستور[1] التي كشف بها عن علة الفساد والاختمار وطريقة تولد الجراثيم الحية وحدوث الحميات بسببها الى غير ذلك مما يأتي الكلام عليه

ولا مراء في ان تقدم الجراحة والطب في هذه الآونة انما هو نتيجة اجتهاد جمهور من الجهابذة الافاضل الذين وقفوا حياتهم على تحرّي الحقائق والتنقيب عن اسرار العلم الغامضة ولكن الفضل كلّ الفضل يرجع للعلاّمة بستور الذي سرى على ضوء مشكاته الباحثون في هذا العصر فهو اول من قال بان الاختمار انما يحدث عن الكائنات الحية المتناهية بالصغر واثبت ان لكل خمير مكروباً خاصاً به كشف عنه وعزله واستنبته في بئة ملائمة لنموه وراقب طرق توالده وتكاثره وظواهر حياة كل نوع منه وتأثير مفرزه السام في بدن الحيوان وهو الذي اكتشف على جراثيم العدوى في الامراض الوبيلة وكانوا يتكهنون من قبل على كيفية حدوث الامراض الوافدة والمعدية ولم يعرفوا حقيقة الحمة المرضية والوبالة فاثبت ان العفونة والفساد والحمة المرضية والوبالة مسببة كلها عن جراثيم حية تدخل البدن بالماء والهواء والطعام وتتكاثر فيه بطرق التوالد

1 Pasteur

والنشوء فتغاليه على غذآئها ونمآئها وحينئذٍ يحصل النزاع بين
عناصره وبينها فتحدث ظواهر الامراض المختلفة · وقد اثبت ان
لكل مرضٍ مكروبًا خاصًا بهِ وعرف كثيرًا من هذه المكروبات
وجرى على طريقته الباحثون فبرح الخفآء عن الحقائق التي لم
يهتدِ اليها احد قبلهُ · ومن الغريب ان العلامة المشار اليهِ لم
يكن طبيبًا ولا جراحًا وانما كان كيمياويًا قصر همتهُ على تحقيق
المباحث المجهرية (المكروسكوبية) ومعرفة عالمَ الاحيآء الحقيرة
فتوصل باجتهادهِ الى تقرير اصول الطب على قواعد راهنة انقلب
بها من حالة الظنون الى حالة اليقين وكفاهُ شرفًا استنباط طريقة
اللقاح لتخفيف حمة الامراض الوبيلة وتلطيفها كالكلب والبثرة
الخبيثة وضربة الطحال في الغنم والتيفوس البقري الى غير ذلك
مما تحدّاه به تلامذتهُ المجتهدون كروكس[1] مستنبط اللقاح في
في الخناق (الدفتريا) ويرسن[2] مستنبط اللقاح في الطاعون وغيرهما
وعلى الجملة فهو مجد الامة الفرنسوية وسراج العصر المنير وقدوة
العلمآء العاملين الذي وقفوا حياتهم لمنفعة بني الانسان

ذي المعالي فليعلوَنْ من تعالى هكذا هكذا والّا فلا لا

ولا يسعنا المقام ان نأتي على بيان مكتشفات العلامة بستور

1 Yersin 2 Roux

ومنافعها وطريقة توصلهِ اليها وما تحراهُ من التجارب الدقيقة
لاظهار حقائقها فنجتزئ بالاشارة الى ما تهم معرفتهُ عامة المطالعين
مما لا يخرج عن صدد الموضوع الذي آثرناهُ في سرد الوقائع
التاريخية · وقد تقدم ان لوُنهوك استنبط المكروسكوب وكشف
به عالم الاحيآء الدقيقة سنة ١٦٧٥ في النقاعة بطريقة يسهل اجرآؤها
وهي ان يُؤخَذ شيء من المواد القابلة للفساد كاللحم والثمار وينقع
في المآء ويغلى حتى ينتهك ثم يصفّى المآء عن النقيع ويوضع
في مكان حرارته بين ٣٥° و٤٠°س ويترك يومًا او يومين
فيصير المآء كدرًا بعد ان كان صافيًا فاذا فحصت قطرةٌ منه
بمجهر يكبر الاجرام ٤٠٠ او ٥٠٠ ضعفٍ يظهر في تلك القطرة
مشهد يأخذ بمجامع الالباب لان الوف الالوف من الكائنات الحية
تتزاحم فيها طلبًا لرزقها . فبعضها تثب من مكان الى آخر
بسرعة تدهش الابصار وبعضها تسير الهوَينى متئدة في حركاتها
وبعضها تلبث غير متحركةٍ وكلُّها تتفاوت في الحجم والشكل ولاسيما
اذا كانت مواد النقيع مختلفة كانَّ كلَّ جسم منها محتاج الى
بئة موافقة لقيام حياتهِ · وسميت هذه الكائنات بالنقاعيات
وهي من كل شيء المآء الذي نقع فيهِ لانها اول ما كشفت
فيها ثم ثبت ان جراثيمها تكون في الهوآء · وتوسعوا في درسها

وبيان مراتبها ومعرفة اشكالها وخصائصها وقسموها الى اجناس وانواع واصناف يطول الكلام عليها . والذي حداهم الى التوسع في البحث عنها مسئلة التولد الذاتي فمنهم من قال ان الحيوانات السافلة في مراتب الخلق تنشأ من تلقآء نفسها في العفونات والمواد الفاسدة ومنهم من انكر هذا القول واثبت ان كلَّ حيٍّ انما يتولد من حي [1] . اما القول الاول فكان عليهِ جمهور القدمآء اتباعاً لمذهب ارسطو [2] واول من تصدَّى لنقضهِ ببرهان التجربة طبيب طلياني اسمهُ فرنشيسكو رَيدي وذلك سنة ١٦٦٨ فانهُ اخذ في مراقبة اللحم ليتحقق سبب نتنهِ فوجد ان الدود الذي يتولد فيهِ انما ينشأ من بيوض يلقيها الذباب الذي يحوم عليهِ ولم يكن المكرسكوب معروفاً حينئذٍ فلم يتمكن الطبيب المذكور من معرفة علة نتن اللحم الحقيقية كما عرفها من جآء بعدهُ الا انهُ تهيأ لهُ بما أجراهُ من التجارب ان يثبت حقيقة هذه القضية وهي „كل حيّ من حي" فكانت اراؤهُ في هذا الشأن حجة يعوَّل عليها . ولكنهُ بعد استنباط المكرسكوب وكشف العالم الحي المؤلف من الكائنات المتناهية في الصغر كان من رأي جماعةٍ من الباحثين ان هذه

1 Omne vivum ex vivo

٢ عجائب المخلوقات للقزويني

الكائنات اصلٌ صدرت عنهُ الكائنات التي هي ارقى منها في البنآء فعادوا الى القول بالتولد الذاتي لانهم لم يتمكنوا من كشف جراثيمها حينئذٍ فنشأت منذ ذلك الحين المساجلات بين العلمآء على هذه المسئلة وكثرت فيها مباحثهم واختلفت مذاهبهم في تحقيق احد وجهيها وتحري التجارب التي تحلُّ بها معضلات مشاكلها

وكان من اخص نصرآء القائلين بالتولد الذاتي بدهام فانه نشر اراءهُ سنة ١٧٤٨ ومحصلها ان الكائنات الحية تكونت في الاصل من دقائق اصلية تضامَّت بعضها الى بعض بفعل قوة مكوّنة خصوصية فعارضهُ بذلك سبالنزاني سنة ١٧٧٨ واثبت ببرهان التجربة ان الكائنات الحية التي تتولد في النقاعة انما تنشأ من الجراثيم التي تندسُّ فيها من الهوآء وبرهانهُ على ذلك انهُ اذا وضعت النقاعة في قارورة مسدودة سداً محكماً واغليت على حرارة ١٠٠° س ثم وضعت في الحالة الموافقة لتوليد الكائنات الحية فيها لبثت غير متغيرة شهوراً عديدة لانقطاع الصلة بينها وبين الهوآء الخارجي بعد موت الجراثيم التي كانت فيها قبل الاغلاء . وردَّ بان القارورة التي وضعت فيها النقاعة لم يكن فيها من الهوآء ما يقوم بحاجة هذه الكائنات بنآء على انهُ

اذا منع الهوآء عن كائن حي لم يبقَ سبيل الى ظهور الحياة فيهِ فدفع شلز[1] هذا الاعتراض بطريقة اوصل فيها الهوآء الى القارورة بعد تنقيتهِ بمروره على الحامض الكبريتيك المركز لظنهِ ان الجراثيم السابحة في الهوآء تموت بعرضها على الحامض المذكور.

وفي سنة ١٨٣٧ نشر شوان[2] رسالة ذكر فيها ان علة العفونة وفساد اللحم ونتنه انما هي نتيجة التحليل من نموّ الكائنات الحية في المواد الآلية وان هذهِ الكائنات انما تتولد من جراثيم سابحة في الهوآء وانه متى نقي الهوآء من هذه الجراثيم أمكن حفظ المواد التي تماسّها من الفساد . وفي سنة ١٨٥٤ عمد شرُوْدر[3] الى تنقية الهوآء من جراثيم الكائنات الحية بواسطة سبيخةٍ اي قطعة من القطن المندوف اقرّها على افواه الآنية بعد اغلائها .

وما زالوا يتوسعون في التجارب والتحقيقات ويقوى القول بنفي التولد الذاتي حتى نشر بوشاي[4] مؤلفهُ المعنون ,, بالتولد الذاتي " فران بهِ على عقول كثير من الباحثين وانقاد فريق الى تأييد رأيه حتى ابدع العلامة بستور بتحقيقاتهِ في علة الاختمار فتصدّى للمسئلة ونزل الى مضمار المساجلة فبحث فيها بحثاً عجيباً وفي سنة ١٨٦٢ نشر رسالة في الجسيمات السابحة في الهوآء بناها

1 Schulze 2 Schwaun 3 Shrouder 4 Boucher

على ما اجراهُ بنفسه من الامتحانات التي لم يصل اليها احد ممن سبقهُ فانهُ التقط هذه الجسيمات من الهوآء وتمكن من فحصها بالمكرسكوب فوجد ان اكثرها من ذوات البناء الحيّ فزرعها في نقاعةٍ بعد تطهيرها بالاغلاء فنمت فيها الكائنات الحية بعد حين وتكاثرت جداً وبذلك دفع حجة القائلين بالتولد الذاتي وقوّض اركان براهينهم واثبت ان كل حيّ يتولد من حيّ

ووكلت اليهِ نظارة الزراعة في فرنسا سنة ١٨٦٥ امر البحث عن علة دود القز بايعاز من استاذهِ الكيمياوي الشهير دوماس فبقي يشتغل في هذا الموضوع خمس سنين منقطعاً الى المراقبة والامتحان بين الفلاحين المعتنين بتربية الدود حتى عرف العلة واثبت كونها صادرةً عن جراثيم حية فتمهد لهُ بذلك السبيل لمعرفة العلل الوبيلة التي يصاب بها الحيوان والانسان واتخاذ الوسائط الفعالة لاتقاء شرها ودفع ضرّها فكأنهُ ظفر بالحجر الكريم الذي افنى الفلاسفة القدمآء عمرهم في طلابهِ طمعاً بالحصول على الثروة والسعادة واطالة الحياة

ولما اشتهر هذا العلامة بدقة مباحثهِ وكثرة تحقيقاتهِ ناصبهُ كثير من رجال العلم وشنعوا عليه المقال ولاسيما لانهُ تكلم في كثير من المباحث الطبية وهو ليس بطبيب فانتصر لهُ منهم

قوم افاضل لا ينطقون عن الهوى كالاستاذ كُهن [1] والدكتور كوخ [2] من المانيا والعلامة تندل [3] والجراح لستر من انكلترا وطال النزاع وكثر الجدال وهو دائب على تحرّي الحقائق واجرآء التجارب الدقيقة البديعة واستنباط المسائل العجيبة الغريبة حتى ثبت تعليمهُ وانتشر في الزمن القصير فعمَّ انحآء العالم وصار شغل الاطبآء والعلمآء والحكمآء ومطمح ابصارهم ومسرح افكارهم

وقد ابدع كُهن في بيان حقيقة الفساد ونسبتهِ الى المكروب [4] قال ,, ان الفساد انما يقع على المواد الازوتية

1 Cohn 2 Koch 3 Tyndall

٤ مكروب microbe لفظه ماخوذة عن اللغه اليونانيه Μικρόσιος معناها في الاصل « حياة قصيرة » واول من استعملها سديليوت سنه ١٨٧٨ للدلالة على هذه الجراثيم الحيه بينما كان يطالع تقارير العلماء الواردة على جمعيه الاطباء في باريس وكان حينئذ رئيسا لها وقد رأى هذه التقارير مملوة بذكر اسماء غريبة للدلالة على هذه الجراثيم ينبو عنها السمع فقال ماضر لو اطلقنا عليها لفظه خفيفه يعم استعمالها ولا يمجها الذوق وارسل الى صديقه الطبيب اللغوى ليتراى يساله عن ملائمه وضع هذه اللفظه فاستحسنها ومنذ ذلك الحين جرى عليها العلماء اجمالا ولم نر باسا من تعريبها ولا سيما بعد شيوعها بين المتكلمين بالعربيه

بما تفعله فيها الجراثيم المجهرية وهو يكون سريعًا او بطيئًا بحسب كثرتها او قلتها ويتوقف بكل واسطة تمنع نموها او تهلكها · فمضادات الفساد اذًا انما هي مضادات المكروب · وقال ان الامراض الوافدة والمعدية انما هي مسببة عن هذه الجسيمات السابحة جراثيمها في الهوآء او المآء فمتى اصابت الجسم الحي ووافقت الاحوال نموَّها توالدت فيه وكاثرت الى حدٍّ فاحش فتفسد سوائلهُ وتحلل منسوجاتهِ فان قوي الجسم عليها عاد الى صحتهِ وان قهرتهُ هلك وبنآء عليهِ عرَّف المرض بانه جهاد بين المكروب والجسم المنتشر فيه · واغرب الدكتور كوخ في مكتشفاتهِ الكثيرة من هذا القبيل لانهُ هو الذي اكتشف باشلس (أنبوبيات) التدرن في السل والبرص وجرثومة الهوآء الاصفر والحميات الغَمقيّة [1] وجرى بعد ذلك الباحثون شوطًا بعيدًا في هذا المضمار فكشف لُفلر [2] جرثومة الخناق وبين يرسن وكيتازاتو الياباني جرثومة الطاعون وما زالوا يتسابقون في الاكتشافات من هذا القبيل

١ بالنسبة الى الغمق وهو من الاماكن الذى بلله الماء · يقال نبات غمق لريحه خمة وفساد لكثرة الندى · وهو المراد بالملاريا كلمة طليانية مركبة من Mala ردى و aria هواء

2 Löffler

ويستنبطون العلاج بالمصل لقاحاً على طرق بديعة نجح بعضها ولم يزل البعض الآخر موضوعاً لتحقيق المجتهدين

نبذة خامسة

في الطب الحديث عند الشرقيين

اذا استثنينا امة اليابان من الشرقيين لا نرى في الشرق على اتساع ممالكهِ وكثرة سكانها امةً يجاري اطباؤها اطباءَ الغرب ويبارونهم في حلبة التقدم بل لا نرى في دُوَل الشرق اجمع دولة يصحُّ لابنائها ان يفاخروا غيرهم بفضل طبيبٍ نبغ فيهم لهذا العهد فابدع رأياً يُعوَّل عليهِ اوكشف عن حقيقة يُعتدُّ بها كما تفاخر امم أوروبا بعضها بعضاً بعلمائها وأطبائها ذوي الابداع والاختراع وما ذلك الاَّ لان الشرقيين على الجملة من رؤساء ومرؤوسين قد ترفعوا عن العالم الهيولاني وتاهوا في فيافي الخيال فجعلوا الروساء آلهةً او ممثلي الآلهة او ظل الاله المعبود فهم لا يزالون على ما كان عليهِ الناس لاول عهدهم بالمدنية من تقديم الاكرام والسجود لهذه الاشباح التي توهموا ان لها قوةً تردُ اليها من السماء فلا بدع ان استهان الرؤساء بمرؤوسيهم واتخذوهم عبيداً يتحكمون فيهم وفي ارواحهم كما يشاؤون ولا غرو

ان رزح المرؤوسون تحت نير الاستبداد واعتمدوا على رؤسائهم لا على انفسهم في تدبير شؤونهم واستسلموا للمقادير ولم يتحولوا عن خطة التحدي والتقليد . واذا كان الرئيس يرى ان لا مطالب لهُ في ما يعملهُ ولا دَرَك عليه في سياستهِ وانهُ لايتحمل تَبِعة خطلهِ وخطائهِ فماذا يمنعهُ "وهو انسان" من اتباع شهواتهِ ومطامعه او ماذا يدفعهُ للسهر على مصلحة الامة وسِنةُ النعاس غالبةٌ عليهِ وكيف يطيق صاحب السلطة ولا سيما اذا لم تكن مقيدة ان يرى الناس "وقد خلقوا لاجلهِ على ما يعتقد" راغبين في الحرية فلا يصدُّهم عنها وكلٌّ يسعى الى مصلحة نفسه وانما العاجز من لا يستبدُّ . هذا هو سبب تأخر الشرقيين وليس كما يتوهم البعض من ان عقول الاوروبيين على الجملة اكمل عن عقولهم وانهم اشدُّ نباهة واعظم كَيساً بفطرتهم الاولى وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوسهم وان التفاوت بينهم واقع في حقيقة الانسانية

وقد وضح ان الاروبيين لم يبلغوا هذا المبلغ العظيم من الترقي والنجاح الا بعد ان عتقت افكارهم من ربقة العبودية ونشطت احلامهم من قيود التقليد وهذه هي امة اليابان يشهد ترقيها العجيب في مدارج المدنية والعمران منذ مدة قريبة على ان النجاح لا يُعلن ان لم يُمطْ عنهُ حجاب التقليد ويرفع برقع

الوهم . فلا يخفى ان هذه الامة المغولية المنشأ الصينية اللغة والمعتقد كانت من اشد الامم حرصاً على تقاليدها القديمة حتى منعت الاجانب من الدخول الى بلادها لئلا يميل اهلها الى الاحداث وسنت الاحكام الشديدة القاضية بقتل كل من يخالطهم او يكون وسيلة لمخالطتهم ويتعلم لغتهم ولم تؤذن الا لفئة من الهولنديين بعد ثورة سنة ١٦٣٩ ان تقيم في طرف من الجزيرة يسمى ديسيما . واتفق ان طبيباً وطنياً اسمهُ سوجيتا فوساي عثر في بعض الايام على كتابين في علم التشريح يتضمنان صور الاعضاء واشكالها فنظر فيها نظر المتأمل اللبيب ولم يكن يعرف اللغة الهولندية فاخذت تلك الصور بمجامع لبّهِ الاّ انهُ وجد فيها فرقاً عما كان تعلمهُ من مبادىء التشريح النظري اخذاً عن الصينيين فحملهُ ذلك على البحث والتنقير ليتوضح اي العلمين اصحّ أعلمُ الصينيين ام علم الهولنديين وشاقهُ طلب الحقيقة الى تعلم اللغة الهولندية فأسرّ نجواهُ الى صديق له من مواطنيهِ يسمى ميدا ريوتاكو وكان هذا طبيباً محباً للعلم حريصاً على طلبه راغباً في التعلق باسبابهِ فوافقهُ على ما قصد الاّ انهما خافا تبعة الامر اذا شاع عنهما انهما يخالطان الهولنديين ويتعلمان لغتهم . ثم انضم اليهما صديق آخر كان يعرف حروف الهجاء

الهولندية ونحواً من سبعماية كلمةٍ حفظها من طريق سري عن الهولنديين فصاروا يجتمعون في الشهر خمس مرات او ستاً يتباحثون في العلم ويحاولون حلّ رموز ذينك الكتابين ويشرّحون بعض الحيوانات وعلى هذا الوجه تمكن سوجيتا ولكن بعد عناء عظيم من معرفة شيء من اللغة الهولندية ثم ضوى اليهم نفر من مثل نمطهم فاشتهر امرهم وذاع صيتهم وكان كل منهم قد اخذ على نفسهِ الاشتغال بفرع من العلوم فتفرّغ ميدا للادب والفلسفة وسوجيتا للطب فألف كتاباً في التشريح أصلح فيه خطأ اسلافهِ الا انه خاف في اول الامر من نشرهِ ثم غلبته الرغبة في نفع وطنهِ فشرع في طبعهِ غير مبالٍ بما يكون بعده ولكن خدمهُ حسن البخت فحاز الكتاب قبولاً واستحساناً في عيون (الشوغن) امرآء المملكة واذنوا في نشرهِ والاخذ عنهُ ومنذ ذلك الحين تهيأ دخول الطب الأوروبي الى اليابان وفي سنة ١٨٥٧ عرفت مدرسة الطب الهولندية بين يدي الحكومة اليابانية معرفة رسمية وفي سنة ١٨٦٨ — ١٨٦٩ حدثت في تلك المملكة ثورة هائلة كان من نتائجها طلب الحكومة اليابانية وفداً فرنساوياً لاصلاح شوؤن جندها ورغبت في اصلاح علم الطب بقدر ما تستلزمهُ الحال العسكرية . واذ كانت تعتقد ان

ان للالمان اليد الطولى في هذا العلم عهدت بتدريسهِ الى
طبيبين من نطس اطبـآء المانيا وهما الدكتور هفمان والدكتور
ملّر اللذان وضعا نظام المدرسة الكلية المشيّدة بامداد الحكومة في
توكيو. وهي مدرسة حافلة بجميع وسائط التعليم منقسمة الى اربعة
اقسام تدرس في احدها العلوم الادبية وفي الثاني العلوم الشرعية
وفي الثالث العلوم الفلسفية وفي الرابع الطب . وقد بلغت المكاتب
العمومية في تلك المملكة سنة ١٨٨٩ اثنتين وعشرين مكتبة
يتردد اليها في السنة اكثر من ١١٠٠٠٠ من القرآء ويُنشَر فيها
سنويّاً اكثر من ثلاثة آلاف مؤلف فليتأمل ذووا الالباب

واذا كان ثلاثةٌ من اطبآء اليابان شعروا بفضيلة العلم
لان احدهم نظر الى صوَر كتاب في علم التشريح وهو لا
يعرف لغتهُ التي حظر تعلمها رؤسآء امتهِ تحت طائلة العقاب
بالموت فحملهم ذلك على معاناة البحث عن الحقيقة ولم يثنهم
خوف العذاب عن الاجتهاد ولكنهم هبوا بهذه الامة من سبات
الغفلة وطاروا بها الى ذروة الكمال حتى ضارعت الامم الاروبية
الراقية في الزمن القصير فما عذر الامة العربية عن هذا السبات
العميق وهذه الغفلة المستمرة وهي التي اهتدى بهدى علمآئها السابقين
رجالُ العلم من الامم الاروبية اجمع كما سبق بيان ذلك. ألم

يوجد في مصر وسوريا وتونس والجزائر وزنجبار وغيرها
ثلاثة درسوا العلوم الطبية او وقفوا على ترقي هذه العلوم
عند الغربيين لهذا العهد ؟ او لم تترجم بعض الكتب العصرية
في هذه العلوم الى اللغة العربية وتنشر مطبوعة ليستفيد بها الخاص
والعام ؟ أو لم تنشأ المدارس لتعليم هذه العلوم ونشرها بين ابنآء
هذه اللغة ؟ فهل نشطت هذه الامة من عقال الوهم وتحررت
من ربقة العبودية وتخلصت من قيود التقليد؟ واذا كانت مصر
اقدم المدن المتمصرة واسبقها الى الحضارة والعمران لا تغار على سابق
مجدها من استهانة الاجانب واذلالهم ابنآئها بما يتخذون من
وسائط التسلط عليهم لكنها تساعدهم على بسط هذا التسلط وتقويتهِ
بانحيازها اليهم وتوطئتها لهم كنف الرغبة فماذا يكون مصير هذه
الامة ولم يبق لها من أمل للنهوض من وهدة الانحطاط الا بهذا
القطر ؟ واذا كان الذين يهمهم نجاح هذه الامة يرون ان
هنالك خللاً ينبغي اصلاحه أفما يجدر بهم والحالة هذه ان
ان يستقصوا عن اسباب الخلل لعلهم يهتدون الى علاج ينجع
في شفآء هذه العلة ؟ مسائل اجتزيء عن الجواب عليها كلها
باستلفات نظر اذكيآء النفوس من ابنآء الوطن الى ما يفعلهُ الاروبيون
لتأييد سطوتهم وتقرير استبدادهم وتمكين سلطتهم . وفي ما ذكرهُ

كلوت بك في مؤلفه[1] تاريخ مصر عابرة وذكرى قال ما ملخصه

,, لما رأت فرنسا ان ظل سلطتها قد تقلّص عن وادي النيل وليس لها مطمع برجوعهِ عمدت الى بسط ظلها المعنوي ليكون وسيلة لرجوع سطوتها ونفوذ كلمتها واناطت بالمسيو جومار نشر مكتشفات الندوة واتمام المباحث العلمية والتاريخية التي بُديء بها منذ احتلال الفرنساويين مصر فجاء الى الاسكندرية سنة ١٨١٥ وسعى مع قنصل الدولة الفرنسوية لدى الخديوي بتهيئة السبيل الى اتمام ما نُدِب اليهِ وكان قصدهُ ان يجمع بين مصر وفرنسا بتهيئة سبيل التعليم والنجاح الأدبي فلم يجد لذلك وسيلة افيد من حمل المصريين على طلب العلم

,, وكان محمد علي باشا خديوي مصر يرى ان الامة المصرية لا تقوم لها قائمة بغير العلم وان العلوم التي تعلّم في الجامع الازهر وغيره لا تفي بتحقيق امانيهِ فارسل الى فرنسا وايطاليا عدةً من الشبان لتلقي العلوم فيهما منهم عثمان افندي نور الدين الذي تخرج في باريس وامتاز باجتهاده ومداركهِ . فاسرَّ اليهِ حينئذ موسيو جومار بنجواهُ رجاء ان يكون معيناً لهُ على تحقيق

1 Aperçu général sur l, Egypte, par A.-B. Clot-Bey; t. II, p. 333

أمانيهِ واماني الدولة الفرنسوية فتمَّ لهُ ذلك وفي سنة ١٨٢٦ عين الخديويُّ موسيو جومار زعيماً على الوفد الاول الذي امر بارسالهِ الى فرنسا على نفقة الحكومة المصرية وكان مؤلفاً من اربعة واربعين فتى تعين بعضهم لدرس الفنون الحربية والادارية والسياسية والملاحة وآخرون للطب والجراحة وغيرهم للزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعي والكيمياء والري وصبّ المعادن والحفر الخ وجرت الحكومة المصرية على هذا النحو سنة فسنة فكثر طلاب العلم من المصريين في فرنسا وفي الزمن القصير استقل هولاء الذين تخصت بهم مصر بمناصب الحكومة المصرية فكانوا عوناً للدولة الفرنسوية على بسط سطوتها في وادي النيل ''

ومعلوم ان بونابرت القائد العظيم لم يحتلَّ بجيشه ارض مصر الا مدة قصيرة مع ما تظاهر به هو واتباعهُ من الاستمساك بعروة الدين المحمدي ومحالفة الدولة العثمانية واضطهاد خدمة الدين المسيحي الى غير ذلك من المزاعم التي توهم بانهُ يتزلف بها من المصريين لرسوخ قدمهِ بينهم فكانت كالخط على صفحات الماء اما جومار فانهُ بلغ بدهائهِ ما لم يبلغهُ بونابرت بسيفهِ . ثم سعى كلوت بك بانشاء مدرسة الطب بعد ان تعين رئيساً لاطباء الجيش المصري فتمَّ افتتاحها في ابي زعبل سنة ١٨٢٧ وانشئ

مجالس الصحة على مقتضى النظام الفرنسوي وعُهد بتدريب الجند على الفنون الحربية لضباط من الفرنسويين فانتشرت اللغة الفرنسوية وامتدت سطوة الفرنسويين في وادي النيل الى اليوم

ولا يؤاخذ مصلح هذه الامة الطيب الذكر محمد علي لاستئناسه بالاوروبيين واحتفائه بالفرنساويين وقد اقتضت عزيمته الشماء وسياسته الحكيمة النهوض بهذه الامة الى ذرى المجد ولم يجد سبيلاً لذلك الا باستئصاله شأفة الفساد وتقرير مبادىء الاصلاح على قواعد متينة ولم يكن لديه من الرجال المحنكين الخبيرين من يعتمد عليه في تدريب عسكره على النظام الجديد الذي آثر ان يبدأ به الاصلاح الذي نواه

ولو وجد في الامة المصرية حينئذ أكفاء لهذا الامر الخطير لما رغب عنهم بسواهم · على انه مع ذلك لم يأمن من الفتن والدسائس فاضطر ان يبعد الكتيبة التي عبأها لتتدرب على الفنون الحربية الحديثة عن القاهرة ولم يجد مكاناً موافقاً لاقامتها الا مدينة قنا من الصعيد · وبعد ان تم له الامر على ما يروم عين كلوت بك رئيساً على اطباء الجيش وأنشأ في ابي زعبل المستشفى الاميري ثم بدا له ان يلحق بهذا المستشفى مدرسة طبية على ما اشار به كلوت بك فقرر ذلك وأجراه مع ما كان يحول

دونه من العقبات ولا سيما بالنظر الى تحريم التشريح واختيار لغة التعليم

وبعد ان استتب له الامر وسر بنجاح قصده عمد الى نقل مدرسة الطب ومستشفاها الى القاهرة وعين لها قصر العيني وجعل البناء في ابي زعبل مدرسة اعدادية لتعليم العلوم والفنون وانشأ في الاسكندرية مدرسة على هذا النحو · وعني بتعليم العلم ونشره فانشأ المدارس الاولية في جميع انحاء القطر المصري وجعل مدة التعليم فيها ثلاث سنين ليترشح التلامذة في نهايتها للدخول الى احدى المدرستين الاعداديتين المذكورتين آنفاً وقد تقرر ان تكون مدة الدرس في كل منهما اربع سنين فبلغ عدد الطلبة في السنة تسعة الاف تلميذ كانت الحكومة المصرية تقوم بنفقة تعليمهم وتصرف لهم ثمن الطعام والكساء ومع ذلك عينت راتباً شهرياً لكل منهم تزداد كميته من سنة الى اخرى

وقد نبغ في مدرسة الطب المصرية جمهور من الاطباء والجراحين الذين وضح فضلهم في مصر وسوريا وترجموا الى اللغة العربية كتباً كثيرة في جميع فروع علم الطب طبعت بمطبعة بولاق التي انشأها فقيد مصر لنشر العلوم وتعميم المعارف ولما كان الاساتذة الذين عينوا لتدريس العلوم الطبية في المدرسة

المذكورة لايعرفون اللغة العربية خُصِّص لهم مترجمون ينقلون الى التلامذة الدروس التي تُعطى لهم بلغتهم العربية

فيرى مما تقدم ان محمد علي باشا استمسك باقوى اسباب الترقي للنهوض بالامة المصرية من وهدة الانحطاط . وسواء نحا من تلقاء نفسه تحويل „ الفلاحين " الى اطباء ومهندسين واداريين وسياسيين او كان هذا المنحى موعزاً اليه من احد الاجانب كما زعم بول موريای صاحب تاريخ محمد علي [1] فالغاية من اجلّ ما تصبو اليه النفوس الكريمة والوسيلة اليها من افضل ما يسعى اليه الكرام . ولا يلام مصلح هذه الامة ان لم تتحقق امانيه على ما ينبغي او حال دون تحقيقها دسائس المتكسبين ممن القوا بساحته عصا الترحال فأحلهم على الرحب والسعة فكان من امرهم انهم تبسطوا بماله او بمال الامة وتحكموا بها وانقلبوا عليها بالشتائم والطعن وكذا شأن الاشرار ولله درّ افلاطون حيث قال „ لا تصحبوا الاشرار لانهم يمنّون عليكم بالسلامة منهم "

وقد ندد بول موريای المذكور بالذين اشاروا على محمد علي باشا بانشاء المدارس العليا في مصر قال ما ملخصه „ ان

[1] Histoire de Méhémet – Aly, par Paul Mauriez; T. III; ch . XXVI — XXVII

انشاء مثل هذه المدارس للمصريين على امل ان ينبغوا فيها كمن يحاول ان يجتني من الشوك عنباً لان هذا المنحى لا يلائم امةً لم تزل قاصرة ولم تخرج عن وصاية القيّم عليها .... ومما يؤاخذ به هذا المورخ اتهامه الاساتذة بالخداع قال „ انهم لم يقتصروا على خديعة التلامذة ولم يكتفوا بالكذب على محمد علي باشا بل تطاولوا الى خديعة الزائرين من عظماء الافرنج الذين كان يتباهى محمد علي باشا امامهم باعماله المجيدة ولاسيما بانشاء المدارس فيرغب اليهم بزيارة المدرسة ليشهدوا له بالفضل وحينئذ كانت التلامذة يُعرضَون عليهم ويفحصون باللغة العربية فتترجم الاجوبة التي كانت تُلقَّن لهم من قبل على نحو ما يشاء المترجم الى ان قال „ ان ابراهيم باشا لما كان في سوريا طرد من الجيش الاطباء الوطنيين الذين أُرسلوا اليه لانهم عوّهوا الجرحى الذين نُدبوا لمعالجتهم على ما كتب الى ابيه . ثم حكى عن الذين أُرسلوا الى باريس للتخرج في العلوم والفنون وان ذلك كان بقصد التمويه للتخلص من تبعة التقصير الحاصل فأنشيء الوفد المصري مؤلفاً من شبان ورجال لم يكن همهم الا الحصول على المراتب والرواتب واقتناء الجوارى والسراري والتنعم في سكنى القصور . وتفنن ماشاء في التعليل عن ضعف قابلية المصريين للترقي في العلوم والمدنية

ناسباً ذلك الى الفطرة والعادة والتعصب الديني ورسوخ اثر العبودية في اخلاقهم الى غير ذلك . وزعم ان الوفد المذكور عاد الى مصر وبضاعته الادعاء الفارغ وشيء من معرفة اللغة الفرنسوية وبعض مبادىء العلوم . وقد أحسن ملتقاه لما أشيع عنه من النجاح فتظاهر بمظاهر العظمة وحمل على مديري المدارس الاجانب فعمت المساجلات والمشاحنات بين الفريقين . وكان ذلك سبباً لانحطاط التعليم وحجر عثرة في سبيل نشر العلم وتعميمه

اما ما تحامل به هذا المؤرخ على المصريين فظاهر من تسميته اياهم تارةً بالفلاحين وطوراً بالعرب على سبيل التحقير كأنهُ لم يعلم ان علماء أمته يجلون هذا الاسم ويعتبرون السلالة العربية اكرم مما سواها محتداً وارفع مما توهم شأناً . وكثيراً ما مزج بين الترك والعرب والفلاحين في تحامله . واذا لم ينجح المصريون الذين تخرجوا في مدارس باريس وكانوا على ما اتهمهم من ضعف المدارك المموهة بطلاوة الحديث وخفة الحركة وسهولة المحاكاة فما سبب سبقهم في حلبة المناظرة وحصولهم على شهادات المدارس العليا ؟ وقد ذكر كلوت بك[1] انه بعد انشاء مدرسة الطب في ابي زعبل بخمس سنين انهى كثير من التلامذة دروسهم

1 Aperçu Général sur L' Egypte par Clot- Bey; T· II P. 414

فعينوا في المستشفيات العسكرية مساعدين لاطبائها الاوربيين وانتخب منهم ثمانية لاعادة الدروس في المدرسة على الطلبة وأرسل اثنا عشر الى باريس للتخرج في مدارسها . فقدموا الفحص باللغة الفرنسوية تجاه مجمع العلوم وحصلوا على شهادة الدكتورية سنة ١٨٣٣ " فان احتجَّ بما يزعمهُ الان كثيرون ان المدارس الفرنسوية تتساهل مع الشرقيين لانهم لا يمارسون في بلادها وبين ابناء وطنها فالحجة قائمة على هذهِ الامة التي ينتسب اليها هذا المؤرخ لمحاباتها في الوجوه وعدم وفائها حق العلم وليس ذلك من شرف المبدإ وحرية الضمير . على انا اذا نظرنا الى الحقيقة نرى ان هذه المدرسة الملوكية لم تتدرج في سلم الكمال ولم ترقَ الى المرتبة التي اعدَّها لها مصلح الامة المصرية مع افتقار البلاد اليها وعدم وجود مزاحم لها في بابها وقد تولى ادارتها الوطنيون مدة ليست قصيرة فما سبب استهانة الاجانب بها وما الموجب لخروجها الآن من يد الوطنيين وابدال لغة الوطن باللغة الانكليزية

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنا اهلها فابادنا صروف الليالي والجدودُ العواثرُ

اما المكتب الطبي السلطاني في الاستانة فمرجع الفضل في انشائه الى السلطان محمود الثاني . واساتذتهُ من الاطباء الاوربيين والاتراك

المشهود لهم بالبراعة والفضل . ولغة التعليم فيه التركية . وقد تُرجمت
الى هذه اللغة مصنفات كثيرة من احسن المصنفات الحديثة في
جميع فروع علم الطب . وهو المدرسة الوحيدة المعتبرة شهادتها في جميع
المملكة العثمانية والمقبولة في عرف النظامات الدولية عند الاجانب

ويلحق بهذا المكتب مدرستان كليتان أُنشئتا حديثاً في
مدينة بيروت الاولى امركانية تقوم بادارتها لجنة من المرسلين
الانجيليين والثانية فرنسوية يتولاها الآباء اليسوعيون وقد نبغ
في كلتيهما جمهور من الاطباء الوطنيين ممن يعوّل على معارفهم
في ممارسة الصناعة الطبية . اما المدرسة الكلية الامركانية فقد اعتمدت
على اللغة العربية في التعليم عدة سنين وترجم اساتذتها كتباً كثيرة
مفيدة لم تزل من احسن الوسائل لنشر المعارف بين العموم ولكن
الثورة التي حدثت من تلامذتها لاسباب لا يجمل ذكرها ادّت
الى ابدال اللغة العربية باللغة الانكليزية فحرم الوطن من فوائد
المؤلفات التي كانت تتحف بها ابناءه

نبذة سادسة

في تكافل الاطباء بما يرقي الطب

ومما امتاز به الاوربيون التكافل الاجتماعي وهو ان يقوم

كلٌّ واحد من اعضاء المجتمع الانساني من حيث هو اصيلٌ عن
نفسه بعمل خاص به يشترك فيه مع آخرين على سبيل التعاضد والتعاون
للمحافظة على كيان هذا المجتمع وبقائهِ وتقويتهِ ونمائهِ ودفع ما يطرأ
عليهِ من اسباب الخلل فيكون كلُّ واحدٍ منهم مستقلاً بذاته
في عملهِ رشيد نفسهِ في جلب المنفعة الشخصية ومكافئاً للآخرين
في عملهم يؤازرهم على القيام بما تعين على كل واحد منهم عملهُ
فيتكافلون جميعاً باجراء ما تقوم بهِ المصلحة العامة التي هي حق
مشتركٌ شائعٌ نصيبُ كلٍّ منهم فيها كنصيب غيرهِ على السواء
ولذلك ترى اعضاء المهنة الواحدة متكافلين فيما بينهم متكافئين
في عمل كل واحدٍ منهم على نظام يكفل النجاح والنماء والبقاء في الخصوص
والعموم وليس للحكومة دخلٌ في شؤونهم الا بمقدار ما خوّلوها
لاجراء هذا النظام . اما الشرقيون فلا تكافؤ بينهم ولا تكافل
لان الواحد منهم يعدُّ نفسه سيداً لمن دونهُ وعبداً لمن فوقه
فينتج عن ذلك استبداد القوي بالضعيف وفقد الاستقلال الذاتي
والحرية ونتيجة ذلك موت الجامعة الوطنية ولذلك كان اعتمادهم
على رؤسائهم كاعتماد القصّر على اوصيائهم . على ان القصّر يخرجون
عن حكم الوصاية في سن البلوغ والرشد اما الشرقيون فلا يزالون
كالقصّر ولو بلغوا سن البلوغ لانهم لا يرشدون ما لم يصيروا احراراً

يستطيعون هدم حائط العداوة المتوسط بين فرقهم المختلفة فلا غرابة ان استكانوا للذل وآثروا السكون على الحركة والكسل على العمل والخمول على النهضة ، خذ مثلاً صناعة الطب فترى الطبيب الفرنسوي بعد ان تخرج في العلم وحصل على الشهادة المؤذنة بكفاءته وخوّل حق ممارسة الصناعة الطبية بين ابناء وطنهِ لا يقصر همهُ على التكسب مكتفياً بالعلوم التي حصلها في المدرسة ولكنه يرى باب النجاح مفتوحاً يتزاحم عليه المتسابقون والسابقون منهم الجياد فيدخل في غمار القوم حيث يتاح لهُ ان يفيد ويستفيد ويشارك في ارآئه اهل المهنة التي انتظم في سلكها فيتذاكرون في مجتمعاتهم وكلٌّ منهم يعرض بضاعة علمه ويكشف عما بدا لهُ في ممارسة صنعتهِ مما انفرد بتوضيح حقيقتهِ او امتاز بابداعهِ أو عنَّ لهُ ان يبتكره فيناقشهُ عليهِ المجتمعون حتى تنجلي الحقيقة وحينئذٍ تنشر اخبارها الجرائد والمجلات فتجوب اقطار العالم ويطلع عليها من شاء في كل قطر ومصر فمن وجد فيها خللاً فاصلحهُ او نقصاً فكملهُ او اشكالاً فحلهُ عدَّ ذلك لهُ مأثرةً تذيع فضلهُ وتخلد ذكرهُ . ولا يخفى ما في ذلك من دواعي الشهرة التي تحثُّ اليها مطايا الاجتهاد . فالعلامة بستور لم يكن شيأ مذكوراً قبل ان اذاعت الجرائد خبر اكتشافهِ جراثيم الاختمار ونشرت المجلات

العلمية مباحثهُ في التولد الذاتي وما كان من مناقشة العلماء لهُ في هذا الموضوع حتى حصحص الحق وزال الريب بعد بحث طويل اشترك فيه جميع علماء اروبا في هذه السنين المتأخرة فلا غرابة اذا ان كانت الجرائد والمجلات والجمعيات العلمية من اقوى الاسباب التي ترقت بها العلوم ولاسيما الطبية في بلاد اروبا منذ عهد قريب وقد شهد بستور في حفلة خصصت لتكريمهِ بان مرجع الفضل في انتشار العلوم بسرعة غريبة للجرائد والمجلات وان اخبار المكتشفات والمخترعات المفيدة كانت الجرائد السياسية قبل ثلاثين سنة تنشرها للعموم فصارت الآن من شؤون المجلات المخصصة للعلوم والطب والفنون

والتصانيف والمجلات التي تنشر في كل سنة في مدن اوربا تدلُّ على ما هنالك من حركة الافكار الدائمة وترقي العقول الى درجة تقف دون وصفها القرائح كليلة . اما المجامع والندوات العلمية والطبية فحدّث عنها ولا حرج وفي تأليف الجمعية الطبية الانكليزية عبرة للمعتبر . وذلك ان بعض الاطباء من الانكليز ائتمروا على مقاومة الدجالين فتالفوا سنة ١٨٣٢ جمعية انضوى اليها نحو الخمسين منهم وقرروا ان يجتمعوا مرةً في السنة في احدى المدن الانكليزية وفي السنة التالية بلغ عدد اعضائها ١٤٠ وتقرر نظامها

ومن مقتضاه ان كل عضو ملزوم ان يقدم خطاباً او تقريراً عن حالة الطب ونجاحه في كل سنة . وما زالت هذه الجمعية تنمو و يتسع نطاقها حتى بلغ اعضاؤها سنة ١٨٨١ تسعة آلاف وماءتين واثنين وقسمت الى فروع للجراحة وامراض النساء وعلم منافع الاعضاء الخ وانشأت المجلة المنسوبة اليها وهي من اعظم المجلات الطبية اعتباراً واكثرها انتشاراً . ومن اعمالها انها قررت في سنة ١٨٦٩ المداخلة في ما يختص بالمنافع العامة وانفذت الى الحكومة لائحة تطلب بها اصلاح بعض الامور فاجابت طلبها ومنذ ذلك الحين تقرر لها حق المداخلة رسمياً في اجراء الوسائط الصحية والتدابير الطبية

ولكل أمة اوربية جمعيات من مثل هذه الجمعية ينضوي الى كلٍّ منها جهابذة كلّ فن حتى انهم اختصوا كل فرع من فروع العلم بجمعية خاصة كما هو معلوم بل انهم اختصوا ببعض مسائل جمعيات تقتصر على ايضاحها لما لها من الاهمية كجمعيّة السلّ والجمعية التي نظم فرائدها الاستاذ فورنياي[1] موءخراً في باريس لدفع مضارّ الداء الزهري ولم يتعين اعضاؤها من الاطباء خاصة بل انتظم في سلكهم جمهور من الفقهاء وذوي المناصب العالية وخدمة الدين وغيرهم ممن لهم شأن في خدمة الانسانية. فهل اهتمَّ

(1) Fournier

احد المصريين بشيء من هذا القبيل ؟ هذا فضلاً عن الجمعيات العمومية التي تشترك فيها دولهم كلها وتحتفي باعضائها كلُّ مدينة يجتمعون فيها على التعاقب لان كل فريق منهم يمثل امته ويسعى لترقي العلوم والمدنية أفلا تنظر امم المشرق الى هذا التكافؤ والتكافل ؟ وفي الاختلاف الجاري بين اطباء مصر على تأليف المؤتمر الطبي عبرة وذكرى

وفي طريقة انشاء الاوربيين هذه القصور الشاهقة التي نسميها بالمستشفيات وهذه الدور الفسيحة المعروفة بالمتاحف التي تودع فيها نفائس الكائنات وهذه الملاجيء للشيوخ والايتام وهذه المعامل لاجراء التجارب الطبيعية والكيماوية والطبية وغيرها برهانٌ واضح على فوائد التكافل الاجتماعي لان جميع هذه المنشآت الخطيرة انما يقوم بها افراد كلّ امة منهم فيشترك فيها كل من آثر عمل الخير ومحبة الوطن لان فوائدها تؤول الى جمهور الامة التي يفتخر بالانتماء اليها كل واحد منهم ويفاخر بها غيره من الامم الاخرى بل كل عمل خطير لا يستقلُّ به العامل الفرد ولا يستتبُّ اتمامهُ للرجل الواحد انما يقوم بهذه الشركات التي تتفاوت في عظمتها تبعاً لتفاوت مقاصدها فاين الشرقيون من مثل ذلك وهم قد اجمعوا على ان لا يجتمعوا واتفقوا على ان لا يتفقوا واذا أتيح لهم وجود رجل مفرد

في عزيمتهِ وأنفته كمحمد علي باشا يهيّئ لهم سبيل التقدم ويفتح ابواب النجاح عُدَّ ذلك من الخوارق فلا تلبث اعمالهُ المجيدة حتى تزول بفقدهِ فلا يبقى الا ذكرها يدونها التاريخ بمداد الاسف

الفصل السادس

في فوضى اطبائنا وواجبات الاطباء ورد شبهات ترد على الطب

نبذة اولى

في فوضى الطب والصيدلة في مصر وسوريا

لا يصلحُ الناسُ فوضى لاسراة لهم ولا سُراةَ اذا جهالهم سادوا

هذان القطران مصر وسورية مرتبطان بحقوق الجوار وجامعة اللغة ومنوَّان بعوامل التفريق ودواعي الانحطاط نصيبُ كلٍّ منهما كنصيب الاخر . تغلب الفاتحون عليهما في ازمنة متفاوتة حتى استقلت بهما الدولة العثمانية واستتب لها الحكم عليهما وعقدت مع الدول الاوربية معاهدات تجارية كانت نتيجتها ما نراه من انتشار الاوربيين في مدنهما ومزاحمتهم السكان الاصليين وفوزهم على هذه الفئة المؤلفة من اجيال شتىً استحكمت فيها عوامل التفريق لاختلافها في المنازع والعقائد الدينية ورسوخ اثر السلطة الاجنبية عليها وعدم انتظام مجتمعها المدني. ولكن القطر المصري استقل بحكومته

بعد ان تولاه محمد علي باشا مع بقائه خاضعاً لسيادة الدولة العلية بمقتضى الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية وقد رسخ قدم الاوربيين فيه وكثرت طوارئهم في مدنه والمورد العذب كثير الزحام ولكل طارئةٍ مجتمع خصوصيٌّ مستقلٌّ بنفسهِ تتولى سياستهُ هيئة تمثل الدولة التي تنتمي اليها ولكل دولة قوانين خصوصية لا يسري مفعولها على غير تبعتها ونتيجة ذلك تعدد الحكومات في المدينة الواحدة على مقدار تعدد الدول المختلفة

واطباء مصر وسوريا وصيادلتها اكثرهم اجانب وكلهم قد تخرَّجوا في مدارس الاجانب الا بعضاً من الاطباء المصريين الذين تلقوا دروسهم في مدرسة القصر العيني . ولما كان الوطنيون ممتهنين من الاجانب وليس لاحدٍ منهم كرامة عند ابناء وطنه انفسهم اضطروا للانضواء الى الاحزاب المتباينة كلٌّ منهم يغني على ليلاهُ فصار عمرو ينتمي الى الانكليز وزيد الى الفرنسويين وخالد الى الالمانيين وبكر الى الامركانيين والاخر الى الطليان او اليونان او الاسبان وهلم جرًّا . وليس احد ينتمي الى وطنهِ الا مستمسكاً باهداب التعصب فيتخذ الواحدُ من الاسلام حزباً والاخر من القبط وهذا من الارثوذكس والاخر من الكاثوليك.... وكل دولة لها مصلحة في الشرق تهتم بانفاذ مآربها بواسطة مريديها من الشرقيين. واكثر الدول اهتماماً

بذلك في الشرق الادنى الدولة الفرنسوية فلا بدع ان حاولت بسط سطوتها ونفاذ كلمتها وبلوغ امانيها بما تبديهِ من التودد للمصريين والسوريين كما يرغب الانكليز الان في التقرب من المصريين. وغيرهم يحاولون مثل ذلك. ونتيجة الامر اضافة التحزب السياسي الى التحزب الديني وفقد الشعائر الوطنية

ومصيبة العامة بالاطباء من اهم ما يقتضي الانتباه اليهِ ولكنها تقع كالقضاء المحتوم فلا احدٌ ينتبه اليها ولو وجب الدرك على الاطباء والصيادلة وطولبوا بغوائل اهمالهم أو جهلهم لصلحت الاحوال كثيراً. حكي ان احد الظرفاء من مشخصي الروايات وقف مرة على دكة المرسح والتفت الى الجمهور فقال „تهزأون بي لاني لا أجيد التمثيل فلأتخذنّ مهنة تودي بحياة الالوف منكم" يعرّض بصناعة الطب لان قتلى الاطباء لا يُودون واقل خطإٍ في تشخيص العلة ووصف العلاج يؤدّي الى هلاك المريض ولكن عامة الناس لا يعلمون أمات المريض من اصابة الاقدار او من خطإِ الطبيب . وليس في الصنائع كصناعة الطب صناعةٌ تموّهُ بها الحقائق وتجوز الاوهام فيربين بها الممخرقون علي عقول البسطاء ويتلاعبون بارواحهم واموالهم ولاسيما اذا كانوا من هؤلاء الذين اتخذوا الصناعة آلة للتكسب لا للتطبب ...

ولقد اجاد ابن بطلان في حديثه عن الممخرقين بهذه الصناعة

فوصفهم بما ينطبق على احوالهم في هذا العصر لولا تبدّل احوال المعائش والملابس وطرق التحصيل وغير ذلك مما يتبع احوال العمران ويختلف باختلاف الزمان

ومما اجاد بوصفهِ ما يجري عليه بعض الصيادلة في ترويج بضائعهم بان يشترك احدهم مع طبيب يقاسمهُ من ثمن الدواء فيتفق كلاهما على غش الناس وخداعهم . ومن الغريب ان يحدث مثل هذا الامر في هذا العصر في بلاد دستورية ويُسكت عنهُ ولكن الحكومة لا تستطيع اصلاح مثل هذا الخلل ولا غيرهِ لانتماء الصيدليات الى الدول المختلفة فهذه انكليزية وتلك فرنساوية والاخرى المانية اوامركانية اوطليانية الخ ومع ذلك فان لكلٍّ منها قانوناً خاصاً تجري عليهِ في تركيب الادوية فتختلف جرعاتها بموجبه اختلافاً مهماً ربما اودى بحياة المريض اذا لم ينتبه الصيدلي الي هذا الامر

ومما لا يجمل السكوت عنه تغاير الصيادلة وتزاحمهم على موارد الكسب الى حد ان يبيع الواحد منهم الدواء بنصف قيمتهِ الاصلية وما ذلك الا لانهُ نقص من الكمية الفعالة او ابدل مادة باخرى ومثل هذا الغش لا يصدر الاعن خسارة الصيادلة على ان هنالك امراً يستوي فيه الجميع وهو مضاربة التجارة فكل صيدلي

يرغب في التوفير بمشترى العقاقير والمواد الطبية من اي معمل كانت تعريفة اثمانهِ ارخص من غيرهِ وقلما يبالي بالنقاوة وجودة التركيب . واذا كان يحدث مثل ذلك في صيدليات المدن العريقة بالحضارة والمدنية وحفظ النظام فما ظنك بمدن مصر وسورية ؟ ففي مملكة بلجيكا تعيّن الحكومة لجنةً لفحص الصيدليات في كل سنة ومنذ مدة قريبة قدمت هذه اللجنة تقريرها للحكومة عن سنة ١٩٠٠ فنشرته في جريدة الصحة العمومية ومما جاء فيهِ ,, الحديد المحوّل بالهدروجن هو على الجملة غير نقي يحتوي على مواد كبريتية ولا يشتمل الا على ٤٠/١٠٠ من الحديد المحول بدلاً عن ٨٩ وسيال فولر هو على الغالب فاسد لا يوافق تركيبهُ القانون وصبغة اليود لا تشتمل غالباً الا على ٣٠ او ٤٠ / ١٠٠ من اليود بدلاً عن ٧٠ / ١٠٠ ‘‘ الى غير ذلك مما كشفت عن الغش فيه وبلغت صفحات قائمتها اكثر من خمسين فهل تستطيع الحكومة في مصر وسوريا ان تجري مثل هذا الفحص في بلادها على صيادلة الاجانب ليكون الاطباء على بصيرة مما يصفون للمرضى ويعلم الصيادلة بانهم مطالبون بما يبيعون وبما يشترون وانما هم بارواح العباد يتجرون

نبذة ثانية

في صفات الاطباء

ويجمل بنا ان نلمّ هنا ببعض الصفات التي يجب ان يكون عليها الطبيب المداوي وهو بحث افاض به القوم قديماً وحديثاً ووضعوا له قوانين يجرون عليها في غير مصر وسوريا حيث تعرف قيمة النظامات والقوانين ويحكم الوجدان ويراعى شرف الصناعة على انا لا نتصدى فيما نذكره من هذا القبيل الا لما يعتبر به الجمهور

قال احد اطباء العصر الافاضل ما محصله [1] ,, يشعر الطبيب بالتغيرات المرضية في بدن العليل بحواسهِ الخمس فوجب ان تكون هذه الحواس سليمة فيهِ على ان هذا الشعور انما يُدرَك بالعقل الذي يتدبّر به عمل الحواس نفسها ويزكن الامور التي توصلها اليهِ ويميز بين صحيحها وفاسدها فيعطي كلّ شيء منها حقهُ ويحله محلهُ ولذلك وجب ان يكون عقل الطبيب سليماً صحيحاً رجيحاً لا يكبّر الامور الحقيرة ولا يصغر الامور الخطيرة والا كان استدلالهُ ناقصاً وقياسهُ فاسداً وعلى ذلك يتوقف "حذق" الطبيب وبهِ تُعرف براعته ويظهر فضلهُ وتذكر مهارتهُ فالحذق اذاً خاصةٌ يوحى

1 . Traité de Diagnostique et de Sémiologie; par C. Bauchut

بها تشخيص العلل لبعض الاطباء فيدركوا لاول وهلة الدلائل التي تميز بها علةٌ عن علة . واذا نظرت الى الاطباء عموماً وجدتهم يتفاوتون في مراتب الحذق فهل هو من خصائص الفطرة او شيء مكتسب بالدرس والممارسة ؟ مسئلة لا يصعب حلها اذا عرفت ان الناس يختلفون بعقولهم كما يختلفون بوجوههم فترى اثنين كلٌّ منهما يقارن الآخر في عمره ومعاشه وتربيته اذا تعلما في مدرسةٍ واحدة مدة معينة ينجح احدهما ويتبلد الاخر ومثل ذلك يقال عن الاطباء ولو صدروا كلهم عن مورد واحد . على ان الدرس والممارسة يلطفان ولاشك هذا التفاوت ''

,,ويجب على الطبيب المداوي ان يكون نزيهاً عفيفاً رصيناً ونعني بالنزاهة ان لا يبدر منه ما يحمل على الظنة بهِ لانهُ لا يجمل بالطبيب ان تنتابهُ المآرب اذا شاء ان يكون حكمهُ سديداً . ويجب على الطبيب ان يكون لدى سرير المريض غير هياب ولا مضطرب البال لان الطبيب الجبان لايملك امر نفسهِ فهو ابداً متذبذب متردد بين الشك واليقين كما ان الطبيب المضطرب البال لا يقوى علي التجرد لممارسة الصناعة والاعتناء بعليله لانهُ يفقد حريتهُ ويضيع انتباههُ ولاشيء يحمل على اضطراب البال مثل الاشتغال بالمضاربات ولعب القمار ....

,, ويجب عليه ان يكون صبوراً رزيناً بعيداً عن التوهم صادق اللهجة لا يبتغي الكسب الا من اوجهه المحللة . هذه هي خطة الاطباء الافاضل اما المخرقون الذين يعتمدون على الادعاء والتمويه لرواج بضاعتهم فانما هم بمثابة الاثمار الخمجة تسقط من الشجرة الزكية وكم من اسرة كريمة لا يتدنس عرضها بنشوز فرد منها ''

والطب علم وعملٌ فعلم الطب يراد بهِ معرفة الامراض بما تحدث عنهُ اي الاسباب وما تُعرَف بهِ اي الاعراض وما تتميز بهِ اي التشخيص وما تؤول اليه اي تقدمة المعرفة اوالانذار وكل ذلك يستلزم التعمق بمعرفة جميع فروع علم الطب لان معرفة الخلل لايمكن الحصول عليها بدون معرفة منافع الاعضاء في حالتي الصحة والمرض وعلم منافع الاعضاء مرتبط بعلم التشريح وهذا العلم يفتقر الى علوم الكيمياء والنبات والحيوان وكلها محتاجة الى العلم الطبيعي وهو مرتبط بالعلم الرياضي * وعمل الطب العلاج بواسطة وبغير واسطة فيدخل فيهِ ما يتعلق بعلم حفظ الصحة وتدبير المرضى ووصف الدواء والجراحة وكل ذلك يقتضي ان يكون مبنياً على اساس العلم المتين فوجب ان يكون الطبيب عالماً عاملاً والذين يمارسون الصناعة بدون علم هم دجالون

ولما كان الطبيب مؤتمناً على نفس مريضه وجب ان يعاملهُ

بعاطفة الشفقة والحنو كأنهُ يشاركهُ فيما يشكوهُ مهتماً بشفائه كما يهتمُّ لنفسهِ سالكاً بالصدق والامانة فيما يستعملهُ وما يجيب بهِ على الاسئلة مما لا بدَّ لهُ من ان يجيب عليه متجنباً الفضول والهذر والانذار على غير علم صحيح ومعرفة محققة بما تصير اليه نهاية العلة · وينبغي لهُ ان يكون حازماً حاذقاً متلطفاً في اختيار انفع العقاقير وايسر وسائط العلاج جرياً على مقاومة عوارض الامراض بما تقتضيه ادلة الحال فقد قيل ان الطبيب اذا دخل على المريض ينبغي ان يكون كالشجاع الذي يدخل الحرب وقد اعدَّ جميع ما يقيهِ ويتلقى بهِ فانه لا يعلم اي خصم يعدو عليه وباي سلاح يأتيهِ وبأية حيلة يأخذهُ وكذلك الطبيب يحتاج اذا دخل على المريض ان يكون عارفاً بمزاجهِ عالماً بطبيعة البلاد التي يعالج فيها واخلاق اهلها وعاداتهم ومنزلتهم في مراتب المدنية وان لا يذهل عن استقصاء كل مسئلة طبية واستطلاع جميع ما يعرض في هذا الفن من تغير الآراء وتبدل المذاهب واختلاف التعاليم فان هذا العلم ليس محدود المبادىء مضبوط القواعد كالعلوم الرياضية ولكنهُ كثير التغير خفيُّ المسائل تبعاً لتغير موضوعهِ الذي هو بدن الانسان فان افرادهُ تختلف اختلافاً عظيماً من جهة العمر والجنسية والسلالة والبنية والمزاج والطباع والاستعداد المرضي والتربية

والقوى الادبية والعقلية والاميال والصفات المتوارثة ومحل الاقامة وحالة البلاد ونوعية المعاش والحرفة وسائر الاحوال مما يؤثر في الامراض فيجعل المرض الواحد مختلفاً في اثنين اختلافاً يجعل الدواء النافع لاحدهما مضرًّا بالآخر او غير نافع لهُ ففي مثل هذه الاشياء يجب على الطبيب ان يحترز من الخطاء ليكون نافعاً في علمهِ معتمداً عليهِ في عملهِ

نبذة ثالثة

في واجبات الاطباء نحو زملائهم

اما واجبات الاطباء بعضهم نحو بعض فنقتصر منها على ذكر ما نشرتهُ مجلة مجلس الجمعيات الطبية العام في باريز بتاريخ ٥ افريل سنة ١٩٠١ وهو ما اتخذهُ المجلس المذكور دستوراً يجري بموجبه

(١) يجب على كل طبيب دعي لعيادة مريض في غيبة الطبيب المداوي سواء كان غائباً او مريضاً ان لا يستعمل علاجاً الا ريثما يعود زميله

(٢) اذا تأكد الطبيب المدعو في غيبة الطبيب المداوي ان المريض يقصد قصداً باتاً ان يعتمد على علاجه في المستقبل يسوغ له ان يداوم عيادة المريض بعد ان يُخطر زميله

(٣) كل طبيب يُدعى بطريقة الصدفة لعيادة مريض يعالجه

طبيب آخر يجب عليه ان يقتصر على وصف الادوية اللازمة لملافاة العوارض الحالية ولا يعود لعيادة المريض الا اذا دُعي من الطبيب المداوي للمشاورة

(٤) كل طبيب يُدعى لمعالجة مريض في اثناء علة يتعاطى علاجها طبيب اخر سواء كانت حادة او مزمنة يجب عليه ان يبذل جهده لاستدعاء الطبيب المداوي فان لم يفلح يجب عليه ان يخبر بدون تأخير زميله الذي خلفهُ عما توقع

(٥) كل طبيب يدعى للمشاورة يلتزم ان يمتنع عن اعطاء افكارهِ للمريض ولمن حوله وانما يجب ان تجري المشاورة بمعزل عنهم. والعلاج المتفق عليهِ يتعاطاهُ الطبيب المداوي

(٦) الطبيب المدعو للمشاورة من قبل الطبيب المداوي او من قبل اهل المريض يجب عليه ان لايعود لعيادة المريض الا اذا دُعي للمشاورة مرة اخرى ورُخص له من الطبيب المداوي

(٧) تقتضي واجبات الاخوّة بين الاطباء قبول الطبيب الذي يقدّمهُ اهل المريض للمشاورة مهما كان سنهُ ومرتبتهُ وحالتهُ على شرط ان لا يكون ملاماً في شرفه الشخصي وفي شرف المهنة

(٨) ندوة المشاورة حرة يستطيع الطبيب ان يعطي فيها اراءهُ لكل من يسألهُ اياً كان الطبيب المداوي

نبذة رابعة

واجبات العامة للاطباء

وللأطباء على العامة حقوق لا يبخسهم اياها الا الذين يجهلون قدر العلم ولا يعرفون للصحة مزية ولقد احسن القائل

ان المعلمَ والطبيبَ كلاهما ☆ لا ينفعان المرءَ ان لم يُكرَما
فاصبر لدائك ان اهنتَ طبيبهُ ☆ واصبر لجهلك ان اهنت معلما

ومن اخص هذه الحقوق معاملتهم بالتجلة والاكرام والعمل بنصائحهم واتباع ما يأمرون به بالدقة وعدم التعرُّض لهم في صناعتهم فلا يليق بالمريض ومن حولهُ ان يشيروا على الطبيب بما يخطر لهم و يعارضوهُ في تدبيرهِ او يبدلوا علاجهُ بآخر او يضيفوا اليهِ شيأ من تلقاء انفسهم او مما وصفهُ لهم آخرون ولكنهم يستطيعون متى شاؤوا ان يكلفوهُ بطلب طبيب آخر المداولة معهُ فان اتفقا وجب العمل برأيهما والا فهما يستدعيان طبيباً آخر ولاهل المريض ان يطلبوا من يثقون بهم للاجتماع بالطبيب المداوي الذي لا يسوغ لهُ ان يرفض طلبهم و يستدعي من يحبُّ او من يتفق معهُ كما يفعل البعض . . . . . . ولا يُعذَر الطبيب لجهله او اهمالهِ ولكنهُ يُعذَر اذا لم يكن في وسعه ان يأتي بالخوارق و يصيرَ المحال ممكناً ففي هذه الحالة لا يسوغ ان يغتاب الطبيب

اهلُ المريض اذا قُضي عليه ويعيبوهُ ويستهينوا بالصناعة الطبية كأن الطبيب ضامن دَرَك الحياة او كأنه يستطيع ان يشفي سائر الامراض . وما الطبيب الا خادم الطبيعة كما قال بقراط وعليه قول مدرسة مُنبلياي Medicus interpres et minister naturæ فما عليهِ الا ان يراقب اعمالها ويسعفها بما تحاولهُ من دفع الضرر واصلاح الخلل الا اذا تجاوز ذلك حدَّ الاعتدال فحينئذٍ يوجه النظر الى مؤاخذتها وتلطيف حدتها ان استطاع الى ذلك سبيلاً

نبـذة خامسة

في رد شبهات يُعترَضُ بها على الطب

ويرِدُ على الطب شبهات لا يزال الناس يلهجون بها مع تقدم العلوم وترقي المدنية كما كانوا في العصرِ الخوالي وقد ذكرها ابن القف في شرح الفصل الاول من فصول بقراط وهو قوله ,, العمر قصير والصناعة طويلة '' وفندها بكلام ننقلهُ عنه بنصهِ الرائق وهو :

اولاً — ارادة الله تعالى او علمهُ او قدرتهُ في الازل او الطالع الفلكي على ما يقول المنجمون اما ان تقتضي حفظ صحة زيد وان لا يمرض الى وقت مخصوص واما ان تقضي تغيير مزاجهِ

واختلالهُ فان كان الاول فلا حاجة الى علم الطب لان الصحة باقية بدون استعمال قوانينهِ وان كان الثاني لم يُفد استعمال الطب

والجواب كما ان الله قدَّر وجود الصحة جعل استعمالهُ على ما ينبغي سبباً لحصولها حاصلةً او ردها زائلة . ويقال لقائل هذا الشبه يلزمك ان تستريح من تكليفات المآكل والمشارب وذلك لان الامور المذكورة اما ان تقتضي الشبع والريّ او لا تقتضي شيئاً من ذلك فان اقتضت فلا حاجة الى استعمال ذلك وان كان الثاني فلا حاجة الى استعمالها لانهُ يكون عبثاً وكل ذلك محال لانهُ يلزم عنهُ ان يكون وجود الاغذية عبثاً وهو قول بالتعطيل وهو خطأٌ محض

ثانياً — لو كان الطب علماً نافعاً في حفظ الصحة وازالة المرض لكان الطبيب الفاضل قادرًا على دفع الموت عن نفسهِ لكن ذلك محال . والجواب كلُّ علم فلهُ غايةٌ لكن ليس دفع الموت فان هذا غير ممكن ولا يلزمُ من انتفاء هذه الغاية انتفاء مطلق الغاية اذ لا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء العام فانه لا يلزم من انتفاء الانسان انتفاء الحيوان بل نقول غايتهُ دفع الاسباب المعجلة للتجفيف لا الواجبة لهُ وهو منع العفونة وحفظ الرطوبة الاصلية من التحليل بقدر الامكان

ثالثاً — الاطباء متفقون على ان اكثر قوانين الطب حدسية ظنية وهذا امرٌ ظاهر فانهُ متى حضر جمعٌ من الاطباء لمباشرة

المريض او حضر واحدٌ واحد منهم فان كل واحد يصف ما لا يصفهُ الآخر ولا يحصل الاتفاق بينهم الا نادرًا وعامٌ يكون حالهُ كذلك يكون خطاءُ صاحبهِ اكثر من اصابتهِ وما كان كذلك فلا حاجة اليهِ البتة لانهُ يكون حالهُ حالَ المجرب لشيءٍ في شيءٍ بغير علم ومعرفة والجواب ان التقصير المذكور وخفاء ما يخفى من احوال البدن حتى صار اكثر قوانين العلاج حدساً وتخميناً ليس هو لتقصير الصناعة في نفسها بل لعجز الطالب عن ادراك فروعها وقوانينها على ما ينبغي ولذلك صار الجمع من الاطباء يختلفون فيما يأمرون بهِ المريض في المداواة لان كل واحد منهم يقع لهُ في المداواة غير ما يقع للآخر بسبب ان هذا ادرك من الاعراض ومعرفة المرض ما لم يدركهُ الآخر ولذلك متى جُمع بين الفضلاء المحققين منهم وقع اتفاقهم على نوع واحد من المعالجة

•••

يتهم البعض جمهور المسلمين بانهم لا يتداوون لاعتقادهم بان المرض وشفاءه والحياة والموت كلُّ ذلك انما يقع بقضاء الله تعالى وقدرهِ وربما حملهم على هذه التهمة ما يرى من عدم اعتناء الفقراء والمغفلين بالصحة وعدم اكتراثهم بالعلاج واستهانتهم بالطب والاطباء والحال ان دين الاسلام يوجب الاعتناء بالصحة والمداواة من

الامراض عملاً بما ورد في القرآن العزيز والحديث النبوي والسنة ونحن نذكر هنا ما يدفع هذه التهمة نقلاً عن بعض العلماء المحققين فمما جاء في القرآن قولهُ „ لا تلقوا بايديكم الى التهلكة " وعن النبي (١) „ تداووا عبادَ الله فان الله لم يضع داءً الا وضع لهُ شفاءً لا الهرم " رواهُ ابو داود وابن ماجة وقولهِ ان الله لم يعطِ شيئاً احبَّ اليهِ من العافية " رواه الترمذي والنسائي · وعن ابن عباس جاء اعرابي الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقال يارسول الله ما اسأل الله تعالى بعد الصلوات الخمس قال اسأل الله العافية فاعاد عليهِ فقال في الثالثة سل الله العافية في الدنيا والاخرة رواه الترمذي . وقال من اصبح معافىً في بدنهِ آمناً في سربهِ عندهُ قوت يومهِ فكانما حيزت لهُ الدنيا بحذافيرها. رواه الترمذي . وعن هلال بن سياف قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعودهُ فقال ارسلوا الى الطبيب فقال قائل وانت تقول ذلك يارسول الله قال نعم ان الله لم يرسل داءً الا جعل لهُ دواءً رواه ابن السني والاحاديث في هذا المعنى متواترة · وقال الاحنف بن قيس ثلاثة لا ينبغي للانسان ان يدعهنَّ علم يحثهُ على عمل يتزوَّدهُ لمعادهِ وطب يذبُّ به عن نفسهِ وصنعة يستعين بها على امر معاشهِ

(١) نقلاً عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازي

وقال الشافعي صنفان لاغنى للناس عنهما الاطباء لابدانهم والعلماء لاديانهم وصح عنهُ انه قال العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان وساقهُ بعضهم حديثاً عن النبي . وقال بعض الحكماء البلد الذي ليس فيهِ طبيب لايسكن . والطب من فروض الكفايات لو تركهُ اهل بلدٍ لعصوا



تنبيه

المسائل التي ضمّنها ابو الحسن بن بطلان رسالتهُ الموسومة بدعوة الاطباء شرحها ابو الحسن عليّ بن هبة الله بن اثردي الارشيديا كي في جوابٍ عن كتاب ارسلهُ اليهِ الشيخ ابو العلاء محفوظ المسيحي البيلي قال فيهِ ,, سألتني أيدك الله بحسن المعونة والتوفيق وارشدك من اليقين الجليّ اوضح طريق ايضاح اجوبة المسائل التي أودعها الشيخ ابو الحسن بن بطلان مقالتهُ الموسومة بدعوة الاطباء واظهار معانيها لذوي العقول الالباء فجنحت عن ذلك لإشكال البعض عليّ ووصول معرفة بعضها اليّ ولكون الخاطر متبددًا والهمّ متجددًا ثم انني فكرتُ في علّامة زمانهِ ورئيس اوانهِ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا وقولهِ حيث سألهُ بعض تلاميذهِ ,, اما اجوبة المسائل التي اعلمها علماً يقيناً فقد

كتبت في جوابها مع البرهان عليهِ والتي لم يكن عندي لها برهان فقد كتبتُ جوابها اقناعاً وما لم اعلمهُ قلتُ لا اعلمهُ فلي فيهِ اعلى قدوة . . . وهذا القول يشفّ عن نفس زكية وفيهِ عبرةٌ لمدعي العلم في زماننا ممن يتوهمون انهم يجيبون على كل مسئلة اصابوا ام لم يصيبوا ليعتبرهم المغفلون فلاسفة

اشدُّ الناسِ للعلم ادعاءً ☆ اقلُّهم بما هو فيهِ علما

وقد كان في النية ان انشر جوابهُ برمتهِ واستوفي الشرح بما ينطبق على المعارف المحصلة الى يومنا هذا بقدر ما تصل اليهِ معرفتي القاصرة ولكنني رأيت ان الكلام في ذلك يطول وان بعض هذه المسائل الى المعاياة اقرب وبعضها لايترتب عليهِ كبير امر الاّ بتحويل المعنى الى قصدٍ آخر . وكلها على الجملة مما ينبغي ان تروّض بهِ افكار الالباء . فتركت الاشتغال بها ليتبصر كل من اطلع عليها ويتمرّن على حلّ مشاكلها بقدح زناد الفكرة وفوق كل ذي علم عليم



خاتمة

هذا حديث عن رجالِ العلمِ ... يُحكى لاصحاب الحجى والفهمِ
أَلّفتهُ بلُغَةِ القومِ الأُولى ... كانوا مصابيحَ الدُّجى بينَ الورى
وقد رغبتُ في بيانِ نُبلهم ... ليقتدي أبناؤهم بفضلهم
ويقتفوا آثارَهم ان يبتغوا ... طريقةً الى النجاحِ تُبلِغ

وفي الحديثِ كلماتٌ مرّه ... ترمي الى اغراض نفسٍ حره
اوردتها موجزةَ العباره ... ويفهم اللبيبُ بالاشاره
رجاءَ ان ينهضَ ابناءُ الوطن ... من وهدةِ الخمول في هذا الزمن
وينفضوا عنهم غبار الذلِّ ... ويرأبوا الصدع بجمع الشملِ

والجمعُ كالعقدِ لهُ سلكٌ فإن ... وهى فبالشتات ذا الجمعُ يَهِن
وذاك السلك لسانُ العربِ ... من ينتظمْ بهِ يَفزْ بالاربِ

اي بني وطني لقد طال سباتكم أفما تستيقظون وقد لاح لكم ضوءُ الصباح لتسيروا في محجةِ النجاح أفلا تُبصرون

فهبوا ولبوا دعوةَ العلمِ إنهُ ☆ ليَعمرُ ما قد صيّرَ الجهلُ بلقعا
وشدّوا اواخي الاتحادِ فترأبوا ☆ بذلك من بُنيانكم ما تصدّعا

احسن الله خواتمنا وسدّد الى الصواب عزائمنا وحسبنا الله ونعم الوكيل



فهرس كتاب دعوة الاطباء

صحيفة

صحيفة



فهرست التكملة





وقعت اغلاط في الطبع لا تخفى عن ذوي الالباب ونحن نشير هنا الى ما عثرنا عليهِ منها ليصلحهُ المطالعون ولهم الفضل

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٦	١٨	محلسى	مجلسي
١٧	١٢	عمر	عمرو
٢٠	٢	كان	لكان
٢١	١٥	حيا	حيى
٢٦	١٢	الغارة	الفاره
٣٣	١١	جمعة	جمعةُ
٦٠	٨	العاتكه	لعاتكة
٦٤	١٥	عمآء	عمى
١٠٦	٣	مفطورًا	مفطورٌ
١١٦	١٨	Travau	Travaux
١٢٨	٣	الحميري	الحيري
١٤٣	٨	دفعًا	دافعًا
١٤٣	١٠	فأدخلو	فأدخلوا
١٤٥	١٣	الفقة	الفقه

صحيفة	سطر	خطا	صواب
١٤٨	١٨	النطير	النظير
١٤٩	٢	وكان	وكانوا
١٥٠	١٣	تصنيف	مصنّف
١٦٩	٦	تجرًا وقبل	تجرأوا قبل
١٨٠	٤	هذا	هذه
١٩٧	١٣	١٤٧٢	١٨٤٢
٢٠٣	١٥	الذي	الذين
٢٠٩	٦	مرح	مسرح
٢٢٣	٦	قعت	فوقعت
٢٢٥	٥	أنشتا	أنشئتا

